الجمهـــــوريـــة الجـــزائرية الديمقـــراطيـــة الشعبيـــة

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الحاج لخضر – باتنة1 -

كلية: اللغة و الأدب العربي و الفنون

قسم: اللغة و الأدب العربي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم

بعنوان:

تداولية الخطاب السياسي عند محمد البشير الإبراهيمي

مقالات فصل الدين عن الحكومة و سجع الكهّان – أنموذجا -

التخصص: بلاغة و شعرية الخطاب

إنجاز الطالب: عماد بوخاري

إشراف الأستاذ الدكتور:

علي منصوري

نوقشت بتاريخ: 2018/07/11

لجنة المناقشة:

الاسم و اللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
أ.د الشريف بوروبة	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	رئيسا
أ.د علي منصوري	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	مشرفا و مقررا
أ.د محمد العيد تاورته	أستاذ التعليم العالي	جامعة قسنطينة	عضوا مناقشا
أ.د عبد القادر دامخي	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	عضوا مناقشا
د. شراف شناف	أستاذ محاضر أ	جامعة باتنة	عضوا مناقشا
د. ياسين سرايعية	أستاذ محاضر أ	جامعة سوق أهراس	عضوا مناقشا

الإهداء

سافر لفظي ببضائع فكري من أرض قلبي إلى بادية فمي،

فسلّم ثمار العمل إلى ذوي الفضل. . .

مُقَدِّمَة

مُقَدِّمَة

يستند الخطاب السياسي، في الغالب الأعم إلى بعد استراتيجي، والمقصود بهذا المفهوم زمرة من العمليات الخطابية التي يلتجئ إليها الفاعل السياسي للوصول إلى مقاصده الإقناعية، بحيث قد يضع نصب عينيه ترويج صورة عن نفسه أو الدفاع عن أفكار إيديولوجية ، أو تقديم تأويل سياسي لحدث معين. و قد يسعى، داخل أوضاع نزاعية إلى تقويض مرتكزات الخطاب المنافس والنيل من صورة الآخر، لكي تفقد مصداقيتها وجاذبيتها لدى المخاطب، ولا يمكن بلوغ هذه المقاصد ما لم يتم التوسل بإجراءات لغوية أو غير لغوية تناسب مقتضيات المقام التخاطبي.

و لئن كان يراد بالاتصال السياسي بأنّه عملية نقل المعاني ذات الدلالة السياسية المرتبطة بعمل النظام السياسي، فقد يراد به أيضا خطاب السلطة الحاكمة في شائع الاستخدام، و هو الخطاب الموجه إلى متلق مقصود، بقصد التأثير فيه و إقناعه بمضمون الخطاب، و يتضمن هذا المضمون أفكارا سياسية، أو يكون موضوع هذا الخطاب سياسيا.

إن السياسة إذن تعد بمثابة إدارة الأنماط المتعددة في نشاط التفكير الإنساني ضمن استراتيجية معينة تهدف إلى تحقيق وظائف منها:

- وظيفة الإخبار.
- وظيفة المقاومة و المعارضة و الاحتجاج.
- وظيفة إخفاء الحقيقة.
- وظيفة منح الشرعية أو نزعها.

و متى اشتغل الخطاب بوظيفة من هذه الوظائف ضمن الاستراتيجية يمكن أن نعده خطابا سياسيا، و إذا كان ذلك كذلك، فقد رأيت أغلب هذه الوظائف متجسّدا في سلسلة مقالات للعلاّمة محمد البشير الإبراهيمي أولها مقالات "فصل الدين عن الحكومة"، و قد نشرت في جريدة البصائر ابتداء من العدد الخامس و السبعين الصادر بتاريخ 11 أفريل 1949 إلى غاية العدد التاسع و الخمسين بعد المائة الصادر بتاريخ 11 جوان1951؛ و أما السلسلة الأخرى فهي مقالات

"سجع الكهان" و التي نُشرت بداية من العدد التاسع و الستين بتاريخ 28 فيفري 1949 إلى غاية العدد الثامن و الثمانين بتاريخ 25 جويلية 1949.

إنّ مقالات الإبراهيمي التي نشرت في (عيون البصائر) تعد صورا من إبداعه الأدبي، و سمو بيانه العربي، نحتت كلماتها من لآلئ النثر الفني، و رسمت عباراتها بروائع الذوق الشعري، فهي تضرب بجذورها في أعماق التراث العربي القديم، في الوقت الذي تبسط فيه أغصانها المتعددة على فروع المعرفة الحديثة؛ فقد كان الإبراهيمي –كمال قال عنه عبد الله ركيبي- يجمع بين العناية بالصياغة و بين التعبير عن العاطفة و الشعور المتقد، كما يجمع بين الفكرة الإصلاحية في مضمونه و بين الجمال الأدبي في تعبيره، كما يعنى بالصورة البيانية بشكل جلي، و تظهر الثقافة العربية بمختلف فروعها و تنوع منابعها في لغته و أسلوبه، و هو من الكتّاب الذين يحتفلون بالقالب اللغوي و يصبّون فيه خواطرهم و أفكارهم، فاللّغة عنده ليست فقط وسيلة و لكنّها هدف أيضا.

لقد سعى محمد البشير الإبراهيمي إلى جعل اللغة أداة فاعلة يهدف من خلالها إلى إبلاغ رسالة على نحو ما إلى المتلقي بحيث يمكّنه من إدراك تلك الرسالة كما يقصدها و يريدها في مناسبة معينة، الأمر الذي فرض علينا مقاربة تداولية، تستحضر البعد الاستعمالي في اللغة، وتفاعل الأطراف التواصلية ، ومقاصدهم الإنجازية، وسياق التلفظ؛ بمعنى هل كتب الإبراهيمي تلك المقالات بأسلوب أدبي مباشر أم أنها ضرب من التعمية المبصرة و الزمزمة المفصحة تحتاج إلى وقفات لسبر أغوارها؟ ثم ما مدى تجلّي تلك المظاهر التداولية في الخطاب الإبراهيمي؟ و هل يمكن أن نعدّ هذه المقالات خطابا سياسيا؟ تلكم هي بعض التساؤلات التي سنحاول الإجابة عنها من خلال هذه الدراسة التي نهدف من خلالها إلى تحقيق هدفين لا ثالث لهما:

- أولهما تدعيم الدراسات الجزائرية و العربية بمثل هذه البحوث المتعلقة بتداولية الخطاب السياسي الإبراهيمي خاصة.

- و الآخر إبراز سمو البيان الإبراهيمي و تسليط الضوء على بعض الخطابات الخالدة التي كثيرا ما تنطبق على واقعنا المعاصر.

تشير المصادر إلى أن كلمة تداولية يقابلها مصطلح (pragmaticus) اليونانية، التي تعني الغرض العلمي حيث استخدمها فلاسفة اليونان منذ العهود الأولى للدلالة على العلمية، وانتقل هذا الدال إلى اللاتينية بما يقارب شكلا المصطلح اليوناني؛ فلفظة (pragmaticus) اللاتينية هي امتداد لذلك الاصطلاح العلمي. و ترجم مصطلح التداولية إلى العربية بعدة ألفاظ، وذلك نظرا لتداخل حقولها بحقول أخرى مجاورة لها، فإن لها كثيرا من الترجمات في العربية منها :التبادلية، الاتصالية، والنفعية، و الذرائعية، و تعنى التداولية بالاستعمال العادي للغة من خلال العناصر الثلاثة فتهتم بالمتكلم و السامع مشاركا في فعل الكلام والحدث التواصلي، وتهتم بظروف الكلام، ومقام الحال، وكل ما له صلة بالكلام من عوامل خارجية، أو تناسب حال من الأحوال، أو تنافره للحدث الكلامي، وتهتم بالسياقات اللغوية للمتكلمين حسب الواقع اللغوي، فتبحث في الكيفية الخطابية و تستنتج مقاصد المخاطب، فهي دراسة اللغة في الاستعمال.

و في الدرس النقدي العربي يعترضنا تعريف صلاح فضل لها من أنها ذلك الفرع العلمي المتكون من مجموعة العلوم اللغوية التي تختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة، ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام، فاللسانيات التداولية تخصص لساني يدرس العلاقة بين مستخدمي الأدلة اللغوية (المرسل، المرسل إليه) وعلاقات التأثر والتأثير بينهما في ضوء ما ينتجانه من تحاور متصل، مما يعنى كونها علما تلفيقيا أو موسوعيا يجمع بين اختصاصات متعددة، فليست التداولية بهذه المفاهيم المتعددة علما لسانيا صرفا يقف عند البنية الظاهرة للغة بل هي على ما يؤكده جاك موشلار علم جديد للتواصل يسنح بوصف و تحليل وبناء استراتيجيات التخاطب اليومي والمتخصص بين المتكلمين في ظروف مختلفة.

لقد بُني هذا البحث على **مقدمة و أربعة فصول**، تحدثت في **الفصل الأول** عن مفهوم الخطاب و علاقته بالمصطلحات الأخرى كالملفوظ و النص، و الجملة، بالإضافة إلى ارتباطه بمصطلح السلطة و الإيديولوجيا و الإعلام، ثم تحدثت عن الخطاب السياسي مبرزا أهم تعريفاته و سماته عند

العرب و الغرب، و الإشارة إلى وظائفه و أهدافه و أشكاله مختتما بالحديث عن الخطاب السياسي و مسألة الهوية.

و بما أنّ المقاربة في هذا البحث ستكون تداولية فقد أردت أن يكون **الفصل الثاني** بحثا في ماهيتها متناولا أهم مصطلحاتها و مفهومها عند العرب و الغرب، مسلطا الضوء على مبادئها و اتجاهاتها و علاقتها بالعلوم الأخرى، كما تطرقت إلى الأفعال الكلامية و تصنيفاتها، و من ثمَّ الحديث عن المقام، و السياق و أنواعه.

إنّ التداولية تبحث في كل ما من شأنه أن يقرب الفهم والتواصل بين المتكلم والسامع، فهي تبحث في السياق وفي كل الظروف الاجتماعية والثقافية والتاريخية والزمنية والمكانية التي يمكن أن تساعد المستمع، وتحرك كفاءته ومقدرته للوصول إلى معاني المتكلم ومقاصده وأغراض كلامه، لذلك تولى **الفصل الثالث** الاستفادة من كلّ هذه الآليات التي تدرس ضمن ما يسمى بالإشاريات و الأفعال الكلامية بالإضافة إلى المعاني الحرفية و السياقية، و تطبيقها على مدونة البحث في سلسلتها الأولى و المتمثلة في مقالات "فصل الدين عن الحكومة"، و السلسلة الثانية المتمثلة في مقالات "سجع الكهان" و هو ما تكفل به **الفصل الرابع** من هذه الدراسة.

و أمّا خاتمة البحث فقد كانت معرضا لأهم النتائج المتوصل إليها، و ليس معنى ذلك أنيّ قد طرقت جميع أبواب الموضوع، و إنّما هي قبس يهتدي به القارئ الباحث لعلّه يجد في ذلك هدى.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ أهمية مثل هذه الدراسات لا تكمن فقط في إبراز مدى كفاءة المنهج التداولي في معالجة الخطاب السياسي الإبراهيمي، و إنما تكمن في الكشف عن طبيعة المضامين الفكرية التي سعى الإبراهيمي إلى كشفها و التعبير عنها بأسلوب غير مباشر يتطلّب من الباحث و القارئ كثيرا من البحث و إعمال الفكر من أجل الظفر بالمعنى.

و في الختام أتقدّم بالشكر الجزيل إلى أستاذي المشرف الفاضل الأستاذ الدكتور علي منصوري الذي كان نعم الموجّه و نعم المعين، و الشكر موصول إلى كلّ أعضاء لجنة المناقشة الذين تجشّموا عناء قراءة المذكرة و تصويبها لتبدو في أجمل حلّة.

الفصل الأول

ماهية الخطاب و الخطاب السياسي

1/ مفهوم الخطاب و إشكالية المصطلح

2/ الخطاب السياسي

3/ سمات الخطاب السياسي

4/ أهداف الخطاب السياسي

5/ وظائف الخطاب السياسي

6/ أشكال الخطاب السياسي

7/ الخطاب السياسي و مسألة الهوية

1/ مفهوم الخطاب و إشكالية المصطلح:

إنّ أول ما يمكن الخوض فيه في هذه الدراسة هو التوصل إلى مفهوم محدد للخطاب، حيث يتفق الباحثون على تعدد التحديدات النظرية باختلاف المنطلقات الفكرية، و هو ما أدى أحيانا إلى نوع من الالتباس بين مفاهيم مجاورة كالقول و الملفوظ و النص.

لقد تشكّل مفهوم الخطاب(Discours) في النقد العربي الحديث استنادا إلى أسس غربية لسانية يتمثل منطلقها في ثنائية دي سوسير (De Saussure) اللغة/الكلام، حيث شكّلت هذه الثنائية ربطا بين اللغة بعدّها نظاما من الرموز في أدمغة البشر جميعا و بين تحليلها الخاص بالكلام من طرف كل إنسان على حده، أي أنّ الكلام بهذا المعنى مرادف للخطاب كونه إنجاز لغوي فردي يتوجه به المتكلم إلى شخص آخر يدعى المخاطب.

إنّ أبسط و أوضح سبيل لتعريف مصطلح ما، هو اللجوء إلى المعاجم سواء أكانت غربية أم عربية، فقد وردت مادة (خطب) في معجم لسان العرب لابن منظور كالآتي: "و الخطاب و المخاطبة مراجعة الكلام، و قد خاطبة بالكلام مخاطبة و خطابا، و هما يتخاطبان."[1] أما ابن فارس في مقاييس اللغة فقال إنّ "الخاء و الطاء و الباء أصلان: أحدهما الكلام بين اثنين، يقال خاطبه يخاطبه خطابا، و الخطبة من ذلك. و في النكاح الطلب أن يزوج، قال الله تعالى: ﴿لا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء﴾. و الخُطبة: الكلام المخطوب به. و يقال اختطب القوم فلانا، إذا دعوه إلى تزوج صاحبتهم. و الخطب الأمر يقع؛ و إنما سمّي بذلك لما يقع فيه من التخاطب و المراجعة"[2].

أما من الناحية الاصطلاحية فيعد هاريس (Zellig Harris) أول من أعطى مفهوما محددا للخطاب يتجاوز أبعاد الجملة أو الرسالة حيث يرى أن الخطاب"ملفوظ طويل أو هو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجية التوزيعية، و بشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض"[3].

---

[1]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي: لسان العرب، م1 دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت. ص361.

[2]- أحمد بن فارس: مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، ج2،ط2، دار الفكر، القاهرة، 1979. ص198.

[3]- سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ط4، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 2005. ص17.

إنّ الخطاب حسب هذا التعريف يستند أساسا إلى مبدأ التوزيع الذي هو مجموعة السياقات التي تظهر فيها كل وحدة جملية و تميز تلك الوحدات عن بعضها البعض؛ كما أنه لا يكفي أن يقال إنّ مجرد توالي مجموعة من الجمل يشكل خطابا، لأن "أي نسق من الجمل لا بد أن يترابط لكي يصنع خطابا"[1].

كما عرّف إميل بنفنست(Emile Benveniste) الخطاب بأنه" الملفوظ منظورا إليه من وجهة آليات و عمليات اشتغاله في التواصل"[2]، و هو يقيم مفهوم التلفظ في مقابل الملفوظ، و يعني بالأول "الفعل الذاتي في استعمال اللغة، إنه فعل حيوي في إنتاج نص ما"[3]، و يعرف الآخر بعده "الموضوع اللغوي المنجز و المنغلق و المستقل عن الذات التي أنجزته"[4]، و يرى (بنفنست) أن التلفظ هو موضوع الدراسة و بناء عليه يعرف الخطاب بقوله:" هو كل تلفّظ يفترض متحدثاً وسامعاً تكون للطرف الأول نيّة التأثير في الطرف الثاني بشكل من الأشكال."[5] و في هذا السياق يذهب (دومينيك مانغونو) إلى القول بأن"النظر الملقى إلى النص من حيث بناؤه (اللغوي) يجعل منه ملفوظا، أما الدراسة اللغوية لظروف إنتاج هذا النص فتجعل منه خطابا"[6].

كما حاول تودوروف(Tzvetan Todorov) تعريف الخطاب قائلا:"و ليس الخطاب مكونا من عبارات، بل من عبارات بينة، و بالاختصار من بيانات. إلا أن تفسير البيان محدد، من ناحية بالعبارة التي نبينها، و من ناحية أخرى ببيانه نفسه. و يشتمل هذا البيان على متكلم يبين، و على مخاطب نتوجه إليه، و على زمان و على مكان، و على خطاب يسبق و يتلو، أي باختصار على سياق و بيان"[7].

---

[1]- ديان مكدونيل: مقدمة في نظريات الخطاب، تر: عز الدين إسماعيل، ط1، المكتبة الأكاديمية، مصر، 2001. ص30.

[2]- سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي. ص19.

[3]- المرجع السابق. ص19.

[4]- المرجع نفسه. ص19.

[5]- محمد الباردي : إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000. ص8.

[6]- دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر:محمد يحياتن، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008. ص39.

[7]- تزيفتان تودوروف: مفهوم الأدب، تر: عبود كاسوحة، ط1، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 2002. ص26.

لقد أشار (تودوروف) من خلال هذا التعريف إلى أهمية عناصر الخطاب التي ذكرها جاكبسون قبله، فهو يشترط لقيامه أن يكون هناك مخاطِب و خطاب و مخاطَب، منوها بدور السياق في عملية الإفهام و الفهم.

أما ميشال فوكو(Michel Foucault) فإنه يعرف الخطاب بقوله:"هو أحيانا يعني الميدان العام لمجموع العبارات، و أحيانا أخرى مجموعة متميزة من العبارات، و أحيانا ثالثة ممارسة لها قواعدها، تدل دلالة وصف على عدد معين من العبارات و تشير إليها."[1]

يركز (فوكو) في هذا التعريف على كون الخطاب منطوقا، فهو أحيانا السياق العام الذي يحتوي تلك المنطوقات، و أحيانا مجموعة متميزة من المنطوقات القابلة لأن تستقل بذاتها، و أحيانا أخرى إنجاز و ممارسة منظمة لها عناصرها و قواعدها التي تفسر و تبرر العديد من المنطوقات و تشير إليها. و لعله بهذا التعريف يجمع بين كلّ التعريفات السابقة و يكفكف ما بينها من اضطراب و تقلب.

كما يتفق أوليفي روبول (Olivier Reboul) مع ميشال فوكو في إعطائه مفهوم الخطاب أكثر من معنى، فهو يرى أن المقصود بالخطاب عدة معان:[2]

- المعنى الشائع: الخطاب مجموعة منسجمة من الجمل المنطوقة.
- المعنى اللساني المختزل: الخطاب عبارة عن متوالية من الجمل المشكلة لرسالة.
- المعنى اللساني الموسّع: الخطاب عبارة عن مجموعة من الرسائل بين أطراف مختلفة تعرض طبائع لسانية مشتركة.

الملاحظ من خلال التعريفات السابقة أنه على الرغم من تعدد مفاهيم مصطلح (الخطاب) أو تداخلها أو تقاطعها انطلاقا من تعدد تصورات المهتمين به من النقاد الغربيين، إلا أنها تحقق التكامل في الوقت ذاته محققة للخطاب مفهوما واسعا يتضمن جل الخصائص اللسانية و المنطقية و التواصلية المكونة للخطاب.

[1]- ميشال فوكو: حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، 1987. ص76.

[2]- أوليفي روبول: لغة التربية تحليل الخطاب البيداغوجي، تر: عمر أوكان، د.ط، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002. ص41-42.

أما في النقد العربي الحديث فإن أغلب الدارسين يؤكدون على القطيعة الدلالية لمصطلح (الخطاب)بين مفهومه القديم و مفهومه الحديث، ذلك لأنّه "واضح الدلالة في الأصول، و لا يثير فيها دلالة و ممارسة أية إشكالية، إنما تكمن الإشكالية الأساسية في اجتذابه القسري خارج حقله، و شحنه بدلالات غريبة عنه، و ذلك بتأثير مباشر من المحمول الدلالي لمصطلح الخطاب (Discourse) الذي تغلغل في ثنايا الشبكة الدلالية لمصطلح الخطاب (العربي) و قوضه، أو كاد، من الداخل بحجة تحديث دلالة المصطلح من جهة و ما تقتضيه الثقافة الحديثة من جهة أخرى"[1].

كما يعلل (صلاح فضل) هذا التباعد الملحوظ بين المفهوم الجديد لمصطلح (الخطاب) و المفاهيم التراثية بأن "مجموعة التحولات المعرفية و المنهجية التي جدت في نظرية اللغة، و أصولها، و مستوياتها و وظائفها، و الفلسفة العلمية الكامنة و راءها تمس بشكل مباشر مفهوم الخطاب و طرق تحليله و وظائفه المتعددة بشكل كلي شامل، مما يجعل أية مقاربة علمية لهذا الخطاب تختلف في محدداتها و نهجها عن المقاربات البلاغية السابقة."[2]

لقد ترجم النقاد العرب المحدثون مصطلحي (Discourse) الإنجليزي و (Discours) الفرنسي بـ(الخطاب) في سبعينات القرن العشرين، بعد أن كان يعني لهم الحديث، الكلام، القول، النص و الرسالة وغيرها من المصطلحات، و لعل ارتباط مفهوم الخطاب بالمفاهيم المجاورة له خاصة النص و الكلام و القول هو السمة الغالبة لدى النقاد العرب المحدثين في ترجمتهم و تعريفهم لمصطلح (Discours)، و هو ما نجده في قول (يمنى العيد):" و عليه فإذا كان الكلام هو ما له صفة الفوضوي و المتوحش، و إذا كان الخطاب هو التوجه إلى آخر بمرسلة، فإن القول هو، و ربما إضافة إلى هذا كله، نبرة، كتلة نطقية لها طابع الفوضى و حرارة النفس، و رغبة النطق بشيء، بقول، ليس هو تماما الجملة، و لا هو تماما النص، بل هو فعل يريد أن يقول"[3].

[1]- عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية الحديثة و المرجعيات المستعارة، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1999. ص102.

[2]- صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص، د.ط، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1992. ص26.

[3]- يمنى العيد: في القول الشعري، ط1، دار توبقال، المغرب، 1987. ص10.

أما (ريمون طحان) فإنه يترجمه بـ(الكلام) و يعرفه بقوله:" الكلام هو ما تركب من مجموعة متناسقة من المفردات لها معنى مفيد، و الجملة هي الصورة اللفظية الصغرى أو الوحدة الكتابية الدنيا للقول، أو الكلام الموضوع للفهم و الإفهام، و هي تبين أن صورة ذهنية كانت قد تآلفت أجزاؤها في ذهن المتكلم الذي سعى في نقلها، حسب قواعد معينة، و أساليب شائعة إلى ذهن السامع، و لا يكون الكلام تاما (الجملة المفيدة) إلا إذا روعيت فيها شروط خاصة تعود إلى المنطق، و منها تعود إلى متطلبات اللغة و قيودها"[1]. فبالإضافة إلى أنه يترجم مصطلح (Discours) بالكلام فإنه يحصره في الجملة، و هو نقضته و تجاوزته اللسانيات الحديثة حيث حددت الخطاب بمجموعة من الجمل المتسقة و المنسجمة فيما بينها.

كما يشير (صلاح فضل) إلى الجانب الشفوي أو المنطوق للخطاب في سياق حديثه عن النص، مستشهدا بقول بول ريكور(P.Ricoeur) أثناء تعريفه للنص، يقول:"و هناك سمة أساسية أخرى للنص الأدبي شغلت الباحثين البنيويين و من يهتم من التفكيكيين بالأدب و هي علاقة النص بالكتابة (écriture) و ارتباطهما معا بمصطلح الخطاب(discourse) بحيث يعد الخطاب من هذا المنظور حالة وسطية تقوم ما بين اللغة و الكلام. و هذه السمة ذات أهمية خاصة في عمليات الفهم و التأويل؛ أي في عمليات إنتاج النصوص و إعادة إنتاجها مرة أخرى. و في هذا الصدد يقول (بول ريكور) (P.Ricoeur): لنطلق كلمة نص على كل خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة."[2]

أما (عبد الله إبراهيم) فإنه بعد استعراض عدة تعريفات للخطاب لدى النقاد و اللسانيين الغربيين ينتهي إلى القول بأن الخطاب:"وحدة لغوية أشمل من الجملة، فالخطاب تركيب من الجمل المنظومة طبقا لنسق مخصوص من التأليف"[3].

و من خلال رصده للعديد من الآراء حول مصطلحات (الخطاب) و (الملفوظ) و (النص)، يرى (سعيد يقطين) أنّ "هذه المصطلحات نجدها أحيانا تتقارب إلى درجة أنها تصبح ذات مدلول

[1]- ريمون طحان: الألسنية العربية، ط1، دار الكتاب، لبنان، 1972. ص44.

[2]- صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص. ص236-237.

[3]- عبد الله إبراهيم : الثقافة العربية الحديثة و المرجعيات المستعارة. ص108-109.

واحد، و أحيانا أخرى تتباعد إلى الحد الذي يصبح لكل منها مدلوله أو مدلولاته الخاصة"[1].

و يخلص الباحث إلى ملاحظتين أساسيتين هما[2]:

– تتعدد دلالات الخطاب بتعدد اتجاهات و مجالات تحليل الخطاب، و على هذا الأساس، تتداخل التعريفات أحيانا أو تتقاطع، و أحيانا أخرى يكمّل بعضها الآخر أو يتباعد و إياه.

– لتحديد الخطاب و تحليله التحديد و التحليل المقبولين علينا أن نحدد الاتجاه الذي تنتمي إليه و المجال الذي نشتغل فيه وفق أسئلة إبستيمولوجية محددة. نجيب من خلالها عن هذه الأسئلة: لماذا هذا التعريف؟ ما هي الأدوات و الإجراءات المناسبة؟ إلى ماذا نبغي الوصول؟ و كيف؟؟

و خلاصة القول إنه يمكن تعريف الخطاب على أنه:[3]

أ– متتالية من الجمل.

ب– متتالية منسجمة من الملفوظات.

ج– فعل حيوي و إنجازي يتطلب مؤثرا و متأثرا و قصدا.

د– دليل لغوي.

ح– الخاطب فعل الكلام.

هـ– متسق مترابط.

ط– ظاهرة اجتماعية حية.

و– وحدة تواصلية تامة.

ي– الخطاب موجه و مقصدي.

ز– نتاج نشاط لفظي.

ك– الخطاب يستلزم مشاركة مباشرة.

1.1/ الخطاب و السلطة:

يشير فوكو إلى أن الخطاب "ليس فقط هو ما يترجم الصراعات أو أنظمة السيطرة، لكنه هو ما نصارع من أجله و نصارع به، و هو السلطة التي نريد الاستلاء عليها"[4]. فالخطاب سلطة و قد ارتبط منذ القدم بالسياسة، و ارتبطت السلطة بالخطاب، فهو أداة السلطة لإدارة القوة و نيل الآخرين،

[1]- سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي. ص16–17.

[2]- المرجع نفسه. ص26.

[3]- محمود عكاشة: لغة الخطاب السياسي، ط1، دار النشر للجامعات، مصر، 2005. ص39–40.

[4]- ميشال فوكو: نظام الخطاب، تر: محمد سبيلا، د.ط، د.ت، ص05.

و له دور في تسيير الأمور و توجيهها، فهناك خطاب سائد ليحقق العدالة، و خطاب مضاد أو مواجه له، و لكل فعل كلامي متن من الكلمات لها دلالاتها و علاقتها بالخطاب، و قد يتغير معناها وفقا له، لأن نوعية الخطاب هي التي تفرض على الكلمات دلالاتها فالكلمات تغير معناها وفقا للمواقف التي ترد فيها، و نسبة إلى الدلالة التي يريد المخاطِب إيصالها إلى المخاطَب.

إنّ مفهوم السلطة أو السيطرة مفهوم مجازي عندما يستعمل في التفاعل و الخطاب، لذلك تعددت تعريفات السلطة، فمن الناحية اللغوية تشير مادة (سلط) إلى"السَّلاطةُ: القهرُ، و قد سلَّطه الله فتسلّط عليهم، و الاسم سُلطةٌ، بالضَّمِّ"[1].

أما في اللغة الفرنسية فإننا نجد مفهوم السلطة يتغير بتغير الحقل الذي ينتمي إليه المصطلح سواء أكان إداريا أم سياسيا أم اجتماعيا أم معرفيا، و على العموم فإن السلطة (L'autorité)هي "القدرة على إتّخاذ قرار أو أمر من أجل فرض إرادتها على الآخرين...و قد يكون للكتاب أو لمؤلفه سلطة إذا كانت آراؤه مقبولة عند فئة كبيرة من الناس"[2*] ؛ كما أن السلطة في الخطاب هي "الحق الذي نعتقده فيما نقوله"[3]، نفهم من ذلك أن الإنسان قد يمتلك السلطة بمجرد التلفظ بالخطاب، لكن هذا لا يمنع من وجود أبعاد أخرى للسلطة سابقة على إنتاج الخطاب منها: "سلطة اللغة وسلطة المجتمع، بما في ذلك مكان المرسل و زمان التلفّظ بالخطاب، و كذلك سلطة المرسل إليه. و على هذا، فالمرسل لا ينتج خطابه، مكتوبا أو شفهيّا، جزافا، بل ينتجه بعد أن يضع هذه العناصر السياقية في الحسبان، و هذا الاعتبار هو نتيجة لسلطة تلك العناصر السياقية"[4]؛ لذلك نظر (فوكو) إلى السلطة كونها "عبارة عن علاقات تحدث في المجتمع، و لأن العلاقات قد تكون غير متكافئة فإن المرسل يأخذها

[1]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي: لسان العرب، م7. ص320.

[2] - http://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/autorité

* ترجمة شخصية بتصرف من الباحث.

[3] - Franck Salaun : l’autorité du discours, éditions champion, paris, 2010. P07.

[4]- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004. ص224.

بعين الاعتبار في الربط بينها وجودا أو عدما، و بين استعمال اللغة في الخطاب عند إنتاجه، مما يجعل الخطاب هو الإطار الذي تتجسد فيه"[1].

و يرى عبد الهادي بن ظافر الشهري أنّ السلطة "هي عد توازن في القوى، حيث يقع أحد الطرفين فوق حدّ التوازن في اتّجاه ما، في حين يقع الآخر تحت هذا الحدّ في نفس الاتجاه. و ينشأ عدم التوازن من عدة مصادر، من ذلك: قدرة الإنسان اللغوية ذاتها، و وضعه الاجتماعي قياسا على الآخرين، و القيود التي يفرضها الموضوع، و الفروق في العمر، و أشياء أخرى كثيرة"[2].

و عن علاقة الخطاب بالسلطة و المعرفة يقول فوكو "ففي الخطاب بالذات، يحدث أن تتمفصل السلطة و المعرفة، و لهذا السبب عينه ينبغي أن نتصور الخطاب كمجموعة أجزاء غير متصلة وظيفتها التكتيكية غير متماثلة و لا ثابتة. بصورة أدق يجب أن لا نتخيل عالما للخطاب مقسما بين الخطاب المقبول و الخطاب المرفوض أو بين الخطاب المسيطِر و الخطاب المسيطَر عليه، بل يجب أن نتصوره كمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل في استراتيجيات مختلفة[...] الخطاب ينقل السلطة و ينتجها، يقويها، و لكنه أيضا يلغمها، يفجرها، يجعلها هزيلة، و يسمح بإلغائها"[3].

و فوكو هنا لا يفصل بين الخطاب و سلطة الخطاب، "إن الفصل الذي يمكن الحديث عنه هو فصل منهجي، و لكن في إطار نظرة تكاملية، تناقش الخطاب في مختلف مستوياته اللغوية و المعرفية و السياسية و الأخلاقية، مستويات تعكس مفهومه و امتداداته و علاقاته بحقول و ممارسات معرفية و سلطوية و أخلاقية، و هو ما يشير إليه فوكو في إرادة المعرفة"[4].

إن الخطاب عند ميشال فوكو يشكل سلطة، و ينقل هذه السلطة و ينتجها و يقويها و يلغمها و يفجرها، و يمكن أن يجعلها هزيلة و يسمح بإلغائها —على حد قوله– كما يلعب دورا أساسيا مماثلا بالنسبة للخطابات الأخرى؛ "إذ إن هذا الخطاب قد يقوم بالنسبة لها، بدور (النموذج

[1]- ميشال فوكو: نظام الخطاب، تر: محمد سبيلا. ص222.

[2]- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب. ص224.

[3]- ميشال فوكو: إرادة المعرفة، تر: جورج أبي صالح و مطاع صفدي، ط1، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990. ص108-109.

[4]- الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، 2000. ص133.

الصوري) الذي تحاول أن تطبقه في حقولها الدلالية المختلفة، و قد يكون على العكس، نموذجا معبرا عن خطابات أكثر تعميما و تجريدا منه، و قد يكون مرتبطا بعلاقة بارزة من التشابه أو التعارض مع خطابات أخرى في مجال بعيد نسبيا"[1].

و إذا كان للخطاب سلطة يمارسها على ما حوله من مجتمع و بشر و مؤسسات فإنه أيضا انعكاس لسلطة، و هو أحد عناصرها، كما أن السلطة تعمل من خلال الخطاب.

و يرى (الزواوي بغورة) "أن التحليلات التي يقوم بها فوكو لا تناقش الخطاب انطلاقا من الذات أو المؤلف أو الفاعل، و لكنها تختبر مختلف الأدوار أو الوظائف التي يقوم بها الخطاب، داخل نظام استراتيجي أو سلطوي. ينتج عن هذا أن السلطة ليست خارج الخطاب، و لكن هذا لا يعني أن السلطة مصدر أو أصل الخطاب، بل إن السلطة تعمل من خلال الخطاب، ما دام الخطاب ذاته يشكل أحد عناصر الجاهزية الاستراتيجية لعلاقات السلطة"[2]؛ أي أن السلطة تمارس تأثيرها فينا و حولنا من خلال الخطاب، بل إنها تتوغل بواسطته في أعماقنا –سواء وعينا أم لم نع– لتجعلنا نتفاعل إيجابا أو سلبا مع ما ينقله إلينا المخاطِب، و قد يكون تأثيرها أخطر إذا تعدى الأمر إلى ما يتصل بعلاقتنا مع أنفسنا.

إن العلاقة بين الخطاب و السلطة علاقة وطيدة تاريخية في توجيه الخطاب للمعنى السياسي و الممارسة السياسية؛ فالمثقف –مثلا– يقدّم نفسه عادة على أنه صاحب رسالة، وليس صاحب غاية أو منفعة مباشرة، فهو يعلن أنه لا يبتغي سلطة، و إنما يدافع عن القيم و المقدسات —و هنا وجه الخداع– فمهنة المثقف هي مهنة قوامها أن تخفي حقيقتها و تؤدي دورها تحت غطاء القداسة، فهو يوظف رأسماله الرمزي و المتمثل في علمه (أدبه) و خبرته، أو في منصبه و لقبه، أو في قدراته الكلامية و الخطابية، يوظفه في ممارسته لمهنته التي تدر عليه منافع معنوية و مادية، و هكذا فالمثقف يزعم أنه يعمل على مقارعة السلطة السياسية فيما هو يعمل على منافستها على المشروعية[3].

[1]- محمد علي الكردي: الخطاب و السلطة عند ميشال فوكو، مجلة فصول، مج11، العدد1، 1992. ص38.

[2]- الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو. ص247.

[3]- علي حرب: أوهام النخبة أو نقد المثقف، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2004. ص57-58.

و بهذا يمكننا وضع المثقف و السياسي في سلة واحدة "كلاهما يسعى على طريقته و باستخدام رأسماله إلى احتكار المشروعية"[1]. فكلاهما يمارس التلاعب و التمويه في حقله و ميدان عمله، التسلط على الأجساد مقابل التسلط على العقول، و العنف المادي مقابل العنف الرمزي الذي يمارسه المثقفون.

و إذا كان ذلك كذلك، فإن المخاطِب يختار استراتيجية الخطاب المناسبة للسياق وفقا لما تقتضيه سلطته، و مفهوم المرسل لا يقتصر على الأفراد بل يمكن أن يكون مرسلا اعتباريا: مؤسسة، هيئة...لأن المؤسسات تتكئ في إبراز سلطتها على أشخاص معينين يمتلكون زمام السلطة فيها و ينتجون الخطاب اقتضاء لها، و يظهر ذلك في رصيدهم من الملفوظات بدلالاتها التي تحمّل الخطاب قيمتين: تداولية و تواصلية، و تمنح المرسَل قدرته على إنجاز العمل القولي و تدفع مستعملي اللغة إلى التعامل مع التراكيب كأشكال تعاقدية تعبر عن تلك السلطة.

و عليه يمكن أن نطرح الإشكال الآتي: هل يمكن أن يكون الخطاب بديلا عن السلطة؟ يمكن الإجابة عن هذا السؤال بالقول إنّ السلطة التي لا تستند إلى الخطاب غير قادرة على مواجهة المشاكل التي تعاني منها الشعوب أو حلّها، كما أنّ "انعدام السلطة سوف يؤدي بخطاب المرسل إلى فشله، فلا يستطيع أن ينجز شيئا من خلال خطابه؛ لأنّ معظم الشروط التي ينبغي أن تتوفر كي يعمل الإنجاز الكلامي عمله تنحصر في مدى التلاؤم بين المتكلم، أو وظيفته الاجتماعية، و بين ما يصدر عنه من خطاب. إنّ أي أداء للكلام سيكون عرضة للفشل إذا لم يكن صادرا عن شخص يملك سلطة الكلام،...و بعبارة موجزة، إذا لم يتوفر المتكلم على السلطة التي تخول له أن يتفوه بالكلمات التي ينطق بها"[2]. لذلك لا بد من معادلة جديدة في العمل السياسي قوامها السلطة والخطاب بعدّهما ركيزتان أساسيتان في المجتمع بحيث تصوغ إحداهما الرؤى و الأفكار و تمسك الأخرى بزمام الضبط و التوجيه.

[1]- المرجع السابق. ص59.

[2]- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب. ص233.

2.1/ الخطاب و الأيديولوجيا

بادئ ذي بدء، نشير إلى أنّ كلمة "إيديولوجية" ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر على يد (ديستوت دو تراسي– Destut de Tracy) الذي عنى بها "علم الأفكار"؛ و قد جسّدت الكلمة تطلعات وسط مثقف كان أعضاؤه الذي سمّوا بالأيديولوجيين يحاولون تفسير الأفكار انطلاقا من الظروف الموضوعية و الفيزيائية و الاجتماعية للحياة البشرية، و قد استوحوا توجههم من أعمال (كوندياك– Condillac)، الذي كان يرى أنّ من الممكن أخذ مجموع الظواهر الذهنية بالحسبان انطلاقا من الأحاسيس[1].

و بما أنّ بعض المفكرين يرى أنّ "السياسة مظلة واسعة تكون الأيديولوجيا أحد فروعها"[2]، ارتأيت أن يكون البحث في الخطاب السياسي مرتبطا بالبحث في ماهية الأيديولوجيا؛ و انطلاقا من رأي عبد الله العروي فإنّ أيّ بحث مهما بلغ من الطول لا يمكن أن يضع حدا لجميع التساؤلات حول موضوع الأيديولوجيا، ذلك أن مفهوم الأيديولوجيا "ليس مفهوما عاديا يعبّر عن واقع ملموس فيوصف وصفا شافيا، و ليس مفهوما متولدا عن بديهيات فيحدّ حدّا مجرّدا، إنّما هو مفهوم اجتماعي تاريخي، و بالتالي يحمل في ذاته آثار تطورات و صراعات و مناظرات اجتماعية و سياسية عديدة. إنّه يمثل (تراكم معان)"[3].

انطلاقا من هذا القول و من خلال البحث في مختلف المراجع التي تناولت مصطلح الأيديولوجيا اتّضح لي المعنى الحقيقي لهذه الفقرة التي ذكرها عبد الله العروي في مقدمة كتابه "مفهوم الأيديولوجيا" فهذا المصطلح عصيّ على الفهم، حيث تعدّدت التعريفات بحسب التوجّهات الفكرية لكلّ باحث، فإذا أردنا الانطلاق من مفهومه اللغوي وجدنا ما ورد في معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب: "الإيديولوجيا هي علم الأفكار، و موضوعه دراسة الأفكار و المعاني، و خصائصها

[1]- جان ماري دانكان: علم السياسة، تر: محمد عرب صاصيلا، د.ط، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع (مجد)، بيروت، 1997. ص174.

[2]- علي منصوري: البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، مذكرة دكتوراه دولة، جامعة باتنة، الجزائر، 2007. ص37.

[3]- عبد الله العروي: مفهوم الأيديولوجيا، ط5، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 1993. ص05.

و قوانينها و علاقاتها بالعلامات التي تعبر عنها، و البحث عن أصولها بوجه خاص...[و]تطلق على التحليل و المناقشة لأفكار مجّردة لا تطابق الواقع. و [هي]عند ماركس جملة الآراء و المعتقدات الشائعة في مجتمع ما، دون اعتداد بالواقع الاقتصادي."[1] كما ورد في معجم اللغة العربية المعاصرة أنّ الإيديولوجية هي: "مجموعة الآراء و الأفكار و العقائد و الفلسفات التي يؤمن بها شعب أو أمّة أو حزب أو جماعة"[2].

نلاحظ من خلال التعريفين السابقين أنّ المفهوم اللغوي لكلمة (إيديولوجيا) في اللغة العربية ارتبط بالمفهوم اللغوي الذي انبثق عن اللغات الأجنبية الأخرى*، فهو في اللغة الفرنسية مثلا يعني "نظام من الأفكار العامة التي تشكّل هيئة عقيدة فلسفية و سياسية انطلاقا من سلوك فردي أو جماعي"[3] ؛ كما يشير إلى: "مجموعة المعتقدات و الأفكار التي تميز شخصا و مجموعة أو مؤسسة في وقت معين"[4].

يتبيّن لنا مما سبق أنّ هذا المصطلح دخيل عن اللغة العربية حيث لم نجد له أصلا في معاجمها، و إن كان عبد الله العروي قد اقترح تعريب هذا المصطلح و إدخاله في قالب من قوالب الصرف العربي، فاستعمل كلمة (أدلوجة*) ويختلف معناها حسب اختلاف الميدان الذي تستعمل فيه، نقول:" إنّ الحزب الفلاني يحمل أدلوجة و نعني بها مجموعة القيم و الأخلاق و الأهداف التي ينوي تحقيقها على المدى القريب و البعيد،...[و] ندرس أدلوجة عصر النهضة، و نعني بها النظرة التي كان يلقيها رجل النهضة إلى الكون و المجتمع و الفرد، و التي يندرج تحت قواعدها العامة كل تقرير

---

[1]- مجدي وهبه، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984. ص70.

[2]- أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، م1، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 2008. ص143-144.

* مصطلح أيديولوجيا يقابله في اللغة الفرنسية مصطلح (idéologie) و في اللغة الإنجليزية (ideology) و هو يتكون من (idéo) و يعني (الأفكار) و (logie) و تعني علم و بالتالي يعني مصطلح (إيديولوجيا) علم الأفكار.

[3] - Système d'idées générales constituant un corps de doctrine philosophique et politique à la base d'un comportement individuel ou collectif. www.larousse.fr/encyclopedie.

[4] -Ensemble de croyances, des idées caractéristiques d'une personne, d'un groupe, d'une société à un moment donné.
http://www.linternaute.com/dictionnaire/fr/definition/ideologie

* يستعمل الأصل اللغوي لكلمة أدلوجة في اللغة العربية استعمالا مختلفا حيث يعني السير في خفية؛ و سير الليل كله او بعضه. مجمع اللغة العربية: المعجم الكبير، ط1، ج6، القاهرة، 2004. ص460.

أو حكم صدر في ذلك العصر...فأدلوجة عصر من العصور هي إذن الأفق الذهني الذي كان يحد فكر إنسان ذلك العصر."[1]

كما يقابل مفهوم (الأدلوجة) عن عبد الله العروي مفهوم (الحق)، نقول: "إنّ فلانا ينظر إلى الأشياء نظرة أدلوجية، نعني أنّه يتخيّر الأشياء و يؤوّل الوقائع بكيفية تظهرها دائما مطابقة لما يعتقد أنه الحق"[2] .

و لعلّ كلمة الحق هنا ترادف كلمة الصدق، وكأنني بالإيديولوجيا حسب هذا التعريف تحمل في طياتها "عدم صدق"، ذلك أنّ تخيّر الأشياء و تأويل الوقائع بكيفية تظهرها دائما مطابقة لما نعتقد أنّه الصدق يدلّ على إخفائنا لأشياء أخرى نعتقد حقيقة أنها (كذب)، لكننا نحاول عمدا أن نوهم المتلقي أنها صدق، أي أنّ الإيديولوجيا هي النظر إلى الأشياء وفق ما نريد أن نراه نحن، و إيصالها إلى الآخر بالكيفية التي نريدها نحن أيضا، فتصبح الأيديولوجيا عندئذ هي الأفكار المتحكمة في رؤيتنا للأشياء و في طريقة إيصالها للآخرين.

و يخلص عبد الله العروي إلى خمسة استعمالات رئيسة لمفهوم الأدلوجة في الغرب:

"أولا: استعمال القرن الثامن عشر، حيث تعني الأدلوجة الأفكار المسبقة الموروثة عن عصور الجهل و الاستعباد و الاستغفال. يتقابل في هذا الاستعمال التقليد الجاهل مع العقل الكاشف عن الحقيقة البديهية، و هو عقل لا يختلف في الفرد و في الإنسانية جمعاء. فيُنْظَر إلى الأدلوجة انطلاقا من العقل الفردي.

ثانيا: استعمال الفلاسفة الألمان، هيغل و الرومانسيين بوجه خاص، حيث تعني الأدلوجة منظومة فكرية تعبر عن الروح التي تحفز حقبة تاريخية إلى هدف مرسوم في خطة التاريخ العام. فينظر إلى الأدلوجة انطلاقا من التاريخ كخطة واعية بذاتها.

[1]- عبد الله العروي: مفهوم الإيديولوجيا. ص9-10.

[2]- المرجع نفسه. ص10.

ثالثا: الاستعمال الماركسي حيث الأدلوجة منظومة فكرية تعكس بنية النظام الاجتماعي. فينظر إلى الأدلوجة انطلاقا من البنية الباطنية للمجتمع الإنساني الذي يتميز بإنتاج وسائل استمراريته.

رابعا: استعمال نيتشه، حيث الأدلوجة مجموعة الأوهام و التعليلات و الحيل التي يعاكس بها الإنسان/ الضحية قانون الحياة. فينظر إلى الأدلوجة انطلاقا من الحياة كظاهرة عامة تفصل عالم الجماد عن عالم الأحياء.

خامسا: استعمال فرويد، حيث الأدلوجة مجموعة الفكرات الناتجة عن التعاقل الذي يبرر السلوك المعاكس لقانون اللذة، و الضروري لبناء الحضارة. فينظر إلى الأدلوجة انطلاقا من اللذة و هي ميزة الحيوان، و بالتالي ميزة الإنسان الأولى." [1]

يمكننا أن نلاحظ من خلال الاستعمالات الخمسة للأيديولوجيا في الغرب –حسب ما خلص إليه عبد الله العروي– أنها تشترك جميعا في كونها منظومة فكرية تميز فردا أو جماعة من أجل الكشف أو الوصول إلى حقيقة ما سواء أكانت تاريخية أم اجتماعية أم نفسية، "و هكذا يكشف الليبرالي عن أكاذيب سلطة التقليد، و يفضح الماركسي تعليلات البرجوازية المكشوفة، و يرفع النيتشوي النقاب عن أوهام المستضعفين...إلخ"[2]؛ و لعلّ الأداة المستخدمة في كلّ ذلك هي الخطاب، فبالخطاب يكشف الليبرالي عن الأكاذيب، و به يفضح الماركسي تعليلات البرجوازية، و يرفع النيتشوي النقاب عن أوهام المستضعفين، و يبرر الفرويدي سلوكه المعاكس لقانون اللذة، فكأني بالخطاب في كلّ ذلك يتحول في حدّ ذاته إلى أيديولوجيا، و هو ما جعل بعض الدارسين يقولون: "إن أي خطاب لا يستحق اسمه و لا يكتفى به إلا إذا كان قابلا للوصف و التحليل ككيان مجرد في ذات و كوحدة يمكن عزلها، لكن ما إن يدخل هذا الخطاب حلبة التاريخ حتى يتحول إلى إيديولوجيا"[3]. أي أن كلّ خطاب تضمّن أو تبنّى منظومة فكرية معينة في حقبة تاريخية ما، قد يتحول إلى أيديولوجيا خاصة بالجهة التي أنتجهته، وخير دليل على ذلك المقالات موضوع الدراسة، حيث تدلّ في مجملها على

[1]- المرجع السابق. ص103-104.

[2]- المرجع نفسه. ص104.

[3]- بنسالم حميش: التشكلات الأيديولوجية في الإسلام، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت، 1993. ص10.

موقف إيديولوجي رافض للاستدمار بكلّ أشكاله، منددّ بالتخاذل العربي بكلّ أنواعه، فاضح للواقع بكلّ سوءاته؛ بل إننا اليوم أمام خطاب يحمل أيديولوجيا دموية يتبناه ما يسمى بتنظيم (داعش) يدّعي تطبيق تعاليم الإسلام لكنه لا يفرق بين قتل جندي في معركة و بين قتل النساء و الأطفال و الشيوخ في أوطانهم و منازلهم.

إنّ الترويج لإيديولوجيا معينة في مجتمع ما قد يتم عن طريق وسائل ثقافية مختلفة، و لعلّ أبرزها و أخطرها وسائل الإعلام، حتى و إن اختلفت تلك الإيديولوجيا عن الثقافة السائدة في ذلك المجتمع، لذلك كان لزاما أن نتطرق فيما يأتي إلى علاقة الخطاب بالإعلام و دور هذا الأخير في نشر الأيديولوجيات المبثوثة في الخطاب من أجل التأثير في أفراد المجتمع و محاولة إقناعهم و السيطرة على أفكارهم و توجّهاتهم.

3.1/ الخطاب و الإعلام:

وردت مادة (علم) في لسان العرب كالآتي: "عَلِمتُ الشَّيءَ أَعْلَمُه عِلْما: عرَفتُه...وعَلِم بالشيء: شعر، يقال: ما علِمت بخبر قدومه أي ما شعرت،...و يجوز أن تقول: علِمتُ الشيء بمعنى عرفتُه و خَبَرته، و عَلِمَ الرّجُلَ: خَبَرَه، و أحبَّ أن يَعلَمه أي يَخْبُرَه."[1]

أي إنّ الإعلام بهذا المعنى يكون دالا على التعريف و المعرفة بالشيء؛ أم اصطلاحا فقد أخذ الإعلام عدة تعريفات نذكر منها: "الإعلام هو تزويد الناس بالأخبار الصحيحة و المعلومات السليمة و الحقائق الثابتة التي تساعدهم على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات، بحيث يعبر هذا الرأي تعبيرا موضوعيا عن عقلية الجماهير و اتجاهاتهم و ميولهم"[2].

لكن هذا التعريف يفتقد إلى الدقة نظرا لكونه حصر الإعلام في الأخبار الصحيحة و المعلومات السليمة و الحقائق الثابتة، و الأمر ليس كذلك لأننا كثيرا ما نسمع أخبارا نعتقد أنها

[1]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي: لسان العرب، م12. ص418 .

[2]- سمير بن جميل راضي: الإعلام الإسلامي رسالة و هدف، رابطة العالم الإسلامي، العدد 172، السنة الخامسة عشرة، السعودية. د.ت. ص27

صحيحة لكن يتضح لنا زيفها بمرور الزمن حتى و إن كانت تلك الأخبار قد رُوِّجت بالحجج و الأدلة التي تثبت صحّتها.

و هناك من يرى أنّ الإعلام: "هو كلّ نقل للمعلومات و المعارف و الثقافات الفكرية و السلوكية بطريقة معينة خلال أدوات و وسائل الإعلام و النشر، الظاهرة و المعنوية، ذات الشخصية الحقيقية أو الاعتبارية بقصد التأثير سواء اعتبر موضوعيا أم لم يعتبر، و سواء أكان التعبير لعقلية الجماهير أم لغرائزها."[1]

لقد وسّع هذا التعريف من دائرة المعلومات و ركّز على جانب التأثير في المتلقي بغض النظر عن كون تلك المعلومات صحيحة أو خاطئة، أو كونها مستندة إلى أدلة عقلية أو أساليب عاطفية.

كما عُرِّف الإعلام على أنه: "كلّ قول أو فعل قصد به حمل حقائق أو مشاعر أو عواطف أو أفكار أو تجارب قولية أو سلوكية، شخصية أو جماعية، إلى فرد أو جماعة أو جمهور، بغية التأثير سواء أكان الحمل مباشرا أم بواسطة وسيلة اصطلح على أنها وسيلة إعلام قديم أو حديث"[2].

لم يقتصر الإعلام في هذا التعريف على نقل الحقائق بل تعداه إلى نقل الأفعال و التجارب السلوكية بغية التأثير في المتلقي، كما أنه أبان عن طرق نشر المعلومات و التجارب إما نقلا مباشرا أم بواسطة وسائل قديمة أو حديثة.

و مهما اختلفت التعريفات حول الإعلام إلاّ أنّه يمكن التوصل إلى تعريف جامع مفاده أنّ الإعلام "نشر للأخبار و الحقائق و الأفكار و الآراء يتم التعبير عنها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، في إطار موضوعي بعيد عن الهوى و الغرض، من خلال أدوات و وسائل محايدة، بهدف إتاحة الفرصة للإنسان للوقوف على الأخبار و الحقائق و الأفكار و الآراء، ليكون قادرا على تكوين فكره الخاص به الذي يمكنه من اتخاذ الموقف الذي يراه ملائما"[3].

[1]- المرجع السابق. ص28.

[2]- المرجع نفسه. ص28.

[3]- محمود محمد سفر: الإعلام موقف، ط1، تهامة، المملكة العربية السعودية، 1982. ص24.

استوقفتني في هذا التعريف عبارة "في إطار موضوعي بعيد عن الهوى و الغرض"، ذلك أنّ الإعلام بوسائله إذا حاد عن هذا المبدأ أصبح أداة تضليل للشعوب، حيث تمرر المنظومة الحاكمة خطابها من خلاله من أجل تطويعهم لأهدافها الخاصة، أي –بعبارة أخرى– يصبح الإعلام هنا أداة للهيمنة الاجتماعية.

و تجدر الإشارة هنا إلى أنّ "الحكّام لا يلجؤون إلى التضليل الإعلامي –كما يوضح فرير– إلاّ عندما يبدأ الشعب في الظهور (ولو بصورة فجة) كإرادة اجتماعية في مسار العملية التاريخية، أما قبل ذلك فلا وجود للتضليل (بالمعنى الدقيق للكلمة)، بل نجد بالأحرى قمعا شاملا، إذ لا ضرورة هناك لتضليل المضطهدين، عندما يكونون غارقين لآذانهم في بؤس الواقع"[1].

و قد يكون الإعلام أداة بيد (أحرار الرجال) للدفاع عن حقوق الشعوب و الوقوف أمام مخططات المستدمر و سياساته الغاشمة، و هو ما فعله محمد البشير الإبراهيمي من خلال جريدة البصائر، حيث جعلها أداة لبث الوعي و محاربة كلّ أشكال الاستدمار و الهيمنة و محاولة طمس هوية الشعب الجزائري، بل كانت تلك الجريدة منبرا أوصل صوت الإبراهيمي لكلّ الشعوب العربية و بيّن موقفه و موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من القضايا السائدة في العالم العربي و الإسلامي.

2/ الخطاب السياسي:

1.2/ مفهوم السياسة:

أ– لغة: السياسة لغة مأخوذة من الجذر اللغوي (سوس) حيث ورد في معجم لسان العرب: "و السّوس الرّياسة، يقال ساسوهم سوسا، و إذا رأَّسوه قيل: سوّسوه و أساسوه. و ساس الأمر سياسة: قام به، [...]. الجوهري: سست الرعية سياسة. و سُوِّس الرجل أمور الناس، على ما لم يسمّ فاعله، إذا مُلِّك أمرهم، [...] و السّياسة: القيام على الشيء بما يصلحه. و السّياسة: فعل السائس..."[2].

[1]- هربرت أ. شيللر: المتلاعبون بالعقول، تر: عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، العدد243، الكويت، مارس1999. ص6.

[2]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي: لسان العرب، م6. ص108.

أما في معجم اللغة العربية المعاصرة فقد وردت كلمة السياسة تحت الأصل اللغوي (سوس) أيضا، و هي من الفعل "ساس يسوس سُسْ، سياسة، فهو سائس، و المفعول مسوس. ساس النّاس: حكمهم، تولى قيادتهم و إدارة شؤنهم، [...] ساس الأمور: دبّرها، أدارها، قام بإصلاحها. و السياسة[مفرد]: مصدر ساس، مبادئ معتمدة تُتّخذ الإجراءات بناء عليها،[...] سلوك الحكومات و الدول و مواقفها تجاه القضايا الداخلية و القضايا المتعلقة بالدول الأخرى"[1].

يتّضح من خلال المعاني اللغوية للأصل (ساس) أنها تدل جميعا على من قام بأمر الرعية و مُلّك أمرهم؛ و كلّ من قام بعمل السياسة فهو سائس، و (سياسي) نسبة إلى السياسة. أما السّياسة فهي تلك المبادئ التي تعتمدها الدول و الحكومات و تكشف عن مواقفها تجاه القضايا الداخلية و الخارجية.

أما في اللغات الأجنبية الإنجليزية و الفرنسية فإنّ كلمتا (politique) و (politics) من الأصل اللاتيني (politicus) و الأصل اليوناني (politikos) و كلاهما يشتركان في الأصل (polis) أي الحاضرة (la cité)، "و هي تعني اجتماع المواطنين الذين يكوّنون المدينة، و الكلام عن الحاضرة يستدعي إعطاء تحديد واضح لما كانت تعنيه هذه الكلمة عند اليونان القدماء...كان هناك فارق كبير بين بين الحاضرة و المدينة، فهذه الاخيرة كانت تحمل معنى ماديا، كونها مجموعة الأبنية و الشوارع و الساحات، بينما الحاضرة على عكس المدينة، لم يكن لها مفهوم مادي إنما إنساني و حقوقي، فهي مجموعة المواطنين القاطنين في المدينة،...لكن لم يكن كلّ إنسان يسكن المدينة مواطنا، فالنساء لم تكن لهنّ حقوق، لذلك لم تشمل المواطنية الرجال و النساء على حدّ سواء، إنما اقتصرت على الرجال، و ليس كلّ الرجال، فقط أولئك الذين يتمتعون بوضع حقوقي، ممنوح لهم من الحاضرة، و يخولهم حق المشاركة في الحياة السياسية و تولي المناصب الإدارية و السياسية....فنستنتج من ذلك أنّ الحاضرة هي مجموعة العلاقات المنظمة و القائمة بين الأشخاص الذين يتمتعون بصفة المواطنية"[2].

1- أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، م2. ص1133-1134.

2- عصام سليمان: مدخل إلى علم السياسة، ط2، دار النضال، بيروت، 1989. ص8.

ب– اصطلاحا:

تدلّ كلمة (politique) على "كلّ ما له علاقة بإدارة شؤون المجتمعات و الدول، و هي أيضا فن و طريقة الحكم، تنظيم السلطات، تسيير شؤون العامة، بالإضافة إلى الإجراءات المخطط لها و المزمع تنفيذها من قبل مؤسسة أو منظمة أو حزب أو دولة أو شركة أو فرد،... لتحقيق هدف معين"[1].

كما تطور استعمال كلمة (سياسة)، حيث عرّفها معجم الأكاديمية بأنّها "معرفة بكلّ ما له علاقة بفن حكم الدولة و بإدارة علاقاتها الخارجية، و هي تعني أيضا الشؤون العامة، و الأحداث السياسية، و التحدّث بالسياسة، و السياسة الداخلية. و السياسة كصفة هي ما له علاقة بالشؤون العامة، و حكم الدولة، و العلاقات المتبادلة بين الدول"[2]؛ بل إنّ الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية تذهب إلى الإقرار بأنّ مفهوم السياسة "له تعريفات كثيرة، فهو طريقة يمكننا من خلالها أن نفهم و ننظم شؤوننا الاجتماعية، و هي الوسائل التي يستطيع من خلالها بعض الأفراد و الجماعات السيطرة على الوضع أكثر من الآخرين، و هو مفهوم نستخدمه كجزء من النماذج و الأطر الذهنية التي نفسّر من خلالها أو نحاول أن نفهم العالم من حولنا."[3]

بالإضافة إلى ذلك، فقد شاع استعمال عبارة (النظرية السياسية) كمرادف لعبارة (علم السياسة)، و أنّ الأولى تسمية للدراسة التحليلية العلمية لعالم السياسة، إلاّ أنّه لكلّ من العبارتين مدلوله الدقيق الخاص به، "فعلم السياسة يعنى بتحليل الظواهر السياسية، بينما تعنى النظرية السياسية بمدلولها التجريبي المعاصر تنظير الحياة السياسية تنظيرا علميا عاما، أي الانتهاء عن طريق الملاحظة و التجريب

[1]-La politique recouvre tout ce qui a trait au gouvernement d'une communauté ou d'un Etat :
- l'art et la manière de gouverner ;
- l'organisation des pouvoirs ;
- la conduite des affaires publiques ;
- les actions prévues ou mises en œuvre par une institution, une organisation, un parti, un Etat, une entreprise, un individu... en vue d'atteindre un objectif préalablement fixé. http://www.toupie.org/Dictionnaire/Politique

2– عصام سليمان: مدخل إلى علم السياسة. ص9.

3– إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، www.kotobarabia.com . ص264.

إلى بناء ذهني نظري، و من ثمّ نظرية نتصور بها الحياة السياسية في جملتها، و لنتخذها أداة ذهنية لفهم تلك الحياة و تفسيرها."[1]

فإذا كان الخطاب وحدة تواصلية تامة موجّه و مقصود، و كانت السياسة إدارة شؤون العامة و فن حكم الدولة و إدارة علاقاتها الخارجية و الداخلية، نجد أنّ الخطاب السياسي حلقة الوصل الرئيسة بين الحاكم والمحكوم، والسبيل الرئيس لإقناع الجماهير أو توجيهها وفقاً لمقتضيات الحاجة والمصلحة التي ترتئيها السلطة، بل إنه يتعدى ليشمل خطابات أولئك الذين نذروا على أنفسهم تشكيل الوعي السياسي لدى العامة من النّاس و بلورته، حيث أصبح الخطاب لديهم قوة سياسية يخشاها الساسة و جيوشهم على حدّ سواء. و يذهب البعض إلى القول إنّ الخطاب السياسي "يقصد به خطاب السلطة الحاكمة في شائع الاستخدام، و هو الخطاب الموّجه عن قصد إلى متلق مقصود، بقصد التأثير فيه و إقناعه بمضمون الخطاب، و يتضمن هذا المضمون أفكارا سياسية، أو يكون موضوع هذا الخطاب سياسيا."[2]

3/ سمات الخطاب السياسي:

يرى (دومينيك مانغنو) في كتابه (تحليل الخطاب السياسي) أنّه يمكن حصر أهم سمات الخطاب السياسي في النقاط الآتية:

"– يتّسم الخطاب السياسي بكونه ذا بنية نظرية على درجة من التماسك، و هي بنية مستمدة من أيديولوجيا معينة هي الايديولوجية التي يتبناها النظام السياسي القائم.

– يكون الخطاب السياسي، في الغالب، على شيء من التعقيد في الصياغة، و مفكّرا به مسبقا.

– يهدف الخطاب السياسي، بالأساس، إلى إضفاء المشروعية على إجراءات السلطة السياسية في الماضي و الحاضر و المستقبل و لذلك فهو يتضمن وعودا من جهة، و نقدا للآخر الأيديولوجي من جهة أخرى.

– القصد من الخطاب السياسي هو التوجيه لمن تمارس عليهم السلطة، لتسويغ الأخطاء و الإخفاقات إن وقعت، أو لتوضيح الخطط و الإجراءات المستقبلية.

1– محمود طه بدوي: النظرية السياسية، د.ط، المكتب المصري الحديث، القاهرة، د.ت. ص11

2– محمود عكاشة: لغة الخطاب السياسي. ص45.

– يصدر الخطاب السياسي عن السلطة السياسية، الحزبية أو الحكومية، إلى جهة أدنى هي الشعب عامة، لذلك تكون لغة السياسة آمرة، كما تميل إلى التذكير بالواجبات حتى و إن حاولت إخفاء ذلك.

– يزعم المتكلم السياسي عادة بأنّه يعالج مشكلات الواقع، و ذلك لإخفاء الجوهر السلطوي لخطابه"[1].

كما لا يشكّل الوضوح الهدف الأساس للخطاب السياسي، " بل يسعى إلى التعتيم و تضبيب الرسالة عن طريق خلق الصيغ اللغوية المضادة و الملتبسة من أجل قطع الطريق على كلّ جدلي و عقلي أو معارضة منطقية، و لهذا يخلق صيغ خاصة بمضامين خاصة يراها من منظوره صوابا، و يفرضها على المتلقي؛ لأنّ هدفه الرئيس ليس الحوار أو المجادلة، و إنّما الانصياع و الخضوع و الطاعة"[2].

و يضيف (محمود عكاشة) إلى ذلك سمات أخرى للخطاب السياسي يوردها على النحو الآتي:[3]

- يعد الخطاب السياسي من أكثر الخطابات المعاصرة تأثيرا و أوسعها انتشارا، و مردّ ذلك إلى ما يملكه من وسائل تساعد على انتشاره و مدّ نفوذه، مثل وسائل الإعلام، و سلطته القوية التي تنبع من قائله.
- يرتبط الخطاب السياسي ارتباطا كليا بظروف الواقع الخارجي، و يتفاعل معه و يتأثر بجميع الأحداث الداخلية و الخارجية.
- يعتني بشكل كبير بالمضمون و الفكرة ، ثم يأتي الشكل اللغوي بعد ذلك .
- الخطاب السياسي ليس له أغراض جمالية، و من ثمة فهو يعتمد على الشكل المباشر البسيط و اللغة الواقعية التي تعايش الجمهور.
- يميل الخطاب السياسي إلى الجماعية المتمثلة في (نحن، الشعب، الأمة)، لا الفردية المعبرة على الذات المتكلمة، لذلك فهو يخلو من المشاعر الشخصية.
- ليس له قيمة ثابتة، فقيمته وليدة الظروف و المصالح و الاتجاهات و النفوذ، و من ثمة فهي غير ثابتة و غير مستقرة و ذات مفاهيم متعددة تحتمل وجوه كثيرة.

1– سلوى الشرفي: تحليل الخطاب، مركز النشر الجامعي، د ط، تونس، 2010. ص 65.

2- محمود عكاشة: لغة الخطاب السياسي. ص46.

3- المرجع نفسه. ص346-348.

- القصدية، و افتقاده الى المصداقية، فالمصداقية هي كلّ ما تفرضه السلطة و تراه صوابا.
- الخطاب السياسي رهين الظروف التي أوجدته و لذلك يفقد فاعليته بغيابها .
- يأخذ طابع رسميا ليعطي نفسه قداسة الهدف، و مصداقية الفعل، و ليقطع طرق الرفض و الجدال و المناقشة.
- الخطاب السياسي أحادي، يقوم بتغييب الآخر و استبعاده من المثول أمام الرأي العام، و لهذا فهو أحادي التوجيه و الممارسة، لا يقبل الثنائيات، و مرد ذلك سيطرته على منافذ الاتصال بالجماهير، و قدرته على نفي خطاب الآخر بقوة السلطة.
- يستخدم المفردات الاجتماعية المعاصرة المستخدمة من قبل الجمهور مما يضفي عليه الحيوية و سرعة الفهم و قوة التأثير.
- يحظى بأكبر جمهور، فجمهوره جموع الشعب، كما يتجاوز المتلقي الداخلي إلى متلق خارجي في الخطابات الدولية، أو الخطابات ذات المضامين المتعلقة بالمجتمع الدولي؛ و هذا لا يتسنى لغيره من الخطابات.
- يبنى على مواقف الصراع و الأزمات و الخلافات و الظروف المحيطة بالمجتمع السياسي، فالموقف هو الذي يصنع الخطاب السياسي و ليس العكس.
- الخطاب السياسي ممتد يتجاوز حدود القطر الجغرافية، لأنه خطاب شمولي، جمعي، مقصدي، و غالبا ما يتحقق ذلك في الخطابات السياسية ذات أيديولوجية معينة.
- يعد خطابا اجتماعيا، يتواجد بتواجد المجتمع السياسي، و المفردات و المعاني و القيم التي يتضمنها الخطاب في أساسها ملك المجتمع الذي نشأ فيه الخطاب، نتيجة التفاعل و الاتصال بين أفراده .

من خلال ما سبق نستنتج أن الخطاب السياسي يعدّ أداة للتعبير عن الآراء و اقتراح الأفكار و المواقف حول القضايا السياسية بصفة عامة، لذلك فهو يعدّ خطابا إقناعيا يهدف إلى حمل المخَاطب على القبول و التسليم بصدقية الآراء، مستندا في ذلك إلى حجج و براهين تؤيد وجهة نظر المخاطِب؛ بل يعدّ، أحيانا، من أهم الأدوات التي تلجأ إليها القوى السياسية للوصول إلى مراكز القرار أو السلطة و إضفاء المشروعية على محاولاتها.

4/ أهداف الخطاب السياسي:

نظرا لكون الخطاب السياسي خطابا إقناعيا بامتياز، فإنّ هدفه الأساس هو حمل المخاطَب على القبول بصدقية دعواه عبر وسائل حجاج متنوعة، تتظافر فيها الوسائل اللغوية و المنطقية، و مكونات تعبيرية أخرى موازية للتواصل، وذلك وفق ما يقتضيه المقام؛ بالإضافة إلى ذلك فإن الخطاب السياسي يروم بصفة عامة تحقيق الأهداف الآتية:

- مدح سياسة معينة في إدارة الشأن العام، أو انتقادها، أو الدعوة لإصلاحها.
- الدفاع عن الاختيارات السياسية والبرامج المنبثقة عنها.
- تقديم تصوُّرات سياسية بديلة لأنظمة الحكم.
- توضيح بعض المفاهيم السياسية كالحرية، أو المساواة، أو العدل، أو الديمقراطية.
- السعي إلى التغلب على الخصوم و المحافظة على السلطة.
- إخضاع المتلقي و حثّه على الانصياع و الطاعة.
- بث الوعي في نفوس الشعوب المستعمرة و تشجيعها على النهوض بمجتمعاتها.
- مواجهة السياسات الاستعمارية الداعية إلى طمس معالم الهوية الوطنية.
- تذكير الشعوب بواجباتها تجاه القضايا المصيرية المرتبطة بأمتها.
- خوض غمار الحروب النفسية خاصة أثناء التصدي للعدوان، و الرفع من معنويات الجيوش.
- إضفاء المشروعية على القرارات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية المتخذة من طرف السلطة.
- الاقتراب من فئات المجتمع المختلفة و ربطهم بالأحداث الداخلية و الخارجية.

5/ وظائف الخطاب السياسي:

هناك العديد من الوظائف التي يقوم بها الخطاب السياسي وهي:

- **وظيفة الإخبار**: حيث يقوم الخطاب السياسي بإيصال الخبر للجمهور بطريقة صحيحة و مقنعة، معتمدا في ذلك على وسائل الإعلام المختلفة التي تعمل على تشكيل الوعي لدى الملايين من البشر؛ و الإخبار هنا قد يقع تحت طائلة الانحياز بتأثير من التوجّه الأيديولوجي للمخاطِب السياسي، فقد يختار معلومات بعينها و يحجب أخرى و يهمّشها، إلى أن يؤول الأمر في النهاية إلى اقتناع المتلقي بما يقرأ ويسمع و يرى. و من نافلة القول إنّ هذه الأخبار أو المعلومات التي يحملها الخطاب السياسي قد تكون مزيجا بين الحقائق و أنصاف الحقائق و الأكاذيب، تفضي إلى التأثير في المتلقين إيجابا

أو سلبا، و في الغالب يقوم كلّ شخص بانتقاء المعلومات التي تنسجم و تتوافق مع توجّهاته و قناعاته، و استبعاد كلّ ما يناقض ذلك.

- **وظيفة المقاومة والمعارضة:** يعمل الخطاب السياسي بشكل أساس على تقديم المعارضات والاحتجاجات على سياسة متبعة في المجتمع الذي يعيش فيه، بالإضافة إلى مقاومة هذه السياسية والنظام المتبع من أجل تغييره والحصول على نظام آخر. و غالبا ما يكون الخطاب منتجا في هذه الحالة من قبل أحزاب معارضة لمنظومة الحكم أو جمعيات حملت على عاتقها التصدي لكلّ محاولات التغريب و طمس الهوية الوطنية، و هو حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي من أهدافها: إيقاد شعلة الحماسة في القلوب بعد أن بذل الاحتلال جهده في إطفائها حتى تنهار مقاومة الجزائريّين، وإحياء الثقافة العربية ونشرها بعد أن عمل المستعمر على وأدها، والمحافظة على الشخصية الجزائرية بمقوماتها الحضارية والدينية والتاريخية، ومقاومة سياسة الاحتلال الرامية إلى القضاء عليها.

- **وظيفة إخفاء الحقيقة:** يساعد الخطاب السياسي –أحيانا–في إخفاء الحقائق وتزييفها، وتقديم حقائق أخرى غير الموجودة والمتبعة من قبل أفراد معينين، و في هذه الحالة يكون خطابا تجزيئيا انتقائيا، يشوّش و لا يوضّح، و هو خطاب يوصل المتلقي إلى الصدمة أو الحيرة عندما يكتشف أنّه كان مخدوعا طوال الوقت.

- **وظيفة منح الشرعية أو نزعها:** تقوم هذه الوظيفة على إعطاء السلطة لمجموعة معينة أو انتزاع السلطة من القائمين عليها. بل إن الخطاب هنا قد يؤدي إلى انهيار دول و أنظمة حكم بأكملها، و لعلّ سقوط بغداد و ما يسمّى الآن بالربيع العربي خير دليل على خطورة هذه الوظيفة التي يمارسها الخطاب السياسي. و في المقابل نجد هذا الخطاب يحافظ على الأنظمة و يمنحها الشرعية، و خير مثال على ذلك فشل الانقلاب العسكري في تركيا في جويلية 2016، حيث خرج الرئيس التركي (رجب طيب أردوغان) مخاطبا شعبه و داعيا لهم للخروج إلى الشوارع من أجل إحباط الانقلاب و هو ما حدث فعلا، حيث نزل الأتراك إلى الشوارع و تصدوا للفئة العسكرية التي حاولت الانقلاب، و كان ذلك بدعم من الأمن التركي أيضا.

6/ أشكال الخطاب السياسي:

الخطاب السياسي نوعان: نوع منطوق و آخر مكتوب، يتميز الأول باستخدامه للجمل النحوية البسيطة التي تقترب من الخطاب اليومي، كونها مباشرة تلقائية، سريعة الفهم و التأثير و أقرب إلى عامة الشعب، كما يعتمد فيه المتكلم على عناصر صوتية تحدد المراد من المعنى كالنبر و التنغيم و غيرهما؛ أما الآخر، فبالإضافة إلى تمتّعه بالصفات الكتابية، قد تمّ تخطيطه و إعداده بإحكام من أجل التأثير في المتلقي، و عادة ما يكون من إنجاز متخصصين و مستشارين.

بالإضافة إلى ذلك نجد (محمود عكاشة) في كتابه "لغة الخطاب السياسي" قد بيّن مميزات لكلّ منهما حيث يرى أنّ المنطوق يتميّز بـ[1]:

– احتواؤه على بعض الجمل غير التامة أو الناقصة، و تأتي غالبا في صورة أشباه جمل متعاقبة فقد ينسى المتكلم ركنا من الجملة و يبدأ أخرى أو قد لا يتم المعنى. كما أنّ جمله القصيرة مكوّنة من المسند و المسند اليه.

– يتعدد فيه الحذف و الفراغات في الجمل، لاستعانة المتكلم بالحركات و الإشارة و الإحالة إلى العالم الخارجي الذي يتفاعل معه الخطاب.

–يعد التكرار بجميع مستوياته أبرز سمات الخطاب المنطوق، إذ يحقق وظيفتين في الاتصال و هما: الأولى: خلق تأثير انفعالي مباشر يعين على إقناع المتلقي و يسهم في تصعيد قوة الخطاب حتّى يبين عن مضمونه. الثانية: وظيفة متعلقة بعملية الاتصال و هي تنشيط ذاكرة المتلقي أثناء الاستقبال، و التأكيد على وصول المعنى تاما دون فوات أجزاء منه، فالتكرار يؤكد المعنى، و ينبه المتلقي إليه و يشارك في إيقاع الخطاب.

– يتميز الخطاب المنطوق بالإطناب و الاسترسال في الكلام لعدة عوامل نذكر منها: تدفق الفكر و غزارة الألفاظ، و رغبة المتكلم في الاستفاضة، و الشرح لكلّ ما يخشى فواته أو نسيانه، و حرصه على الإقناع و توجيه المتلقي نحو مقاصده، بالإضافة إلى تناوله للسيرة الذاتية و الحديث عن النفس و الانجازات، و تاريخ المتكلم في الحقل السياسي.

[1]- محمود عكاشة: لغة الخطاب السياسي. ص336-346.

– يعتمد كذلك على وجهات النظر و الآراء و الانطباعات الشخصية، و التجارب و المواقف الخاصة و الاعتقادات الذاتية.

– تتمثل قيمته في عملية الأداء التي يتدرب عليها السياسيون، لما في الأداء من عناصر صوتية مؤثرة، و لو تعرّض للكتابة لافتقد كثيرا من عناصر الاتصال الشفهي، مثل الجانب الصوتي، و الحركات و الإشارات التي تصاحب الأداء، و افتقد عنصر التفاعل مع العالم الخارجي.

– تنوع الموضوعات داخل الخطاب المنطوق حيث لا يتقيد –كما هو الحال– في الخطاب المكتوب بنص معين يفرض عليه قيودا محددة؛ كما تعقبه ردود أفعال سريعة و مباشرة تعبر عن موقف الجمهور بالقبول أو الرفض لمضامينه..

– المخالفات اللغوية الكثيرة التي يقع فيها كضياع علامات الإعراب من أواخر الكلمات، و التصحيح الفوري لتلك الأخطاء عند التنبه لها.

أما عن الخطاب السياسي المكتوب، فيرى الكاتب أنّه يتميّز بما يأتي[1]:

– أن جمله تامة متناسقة، تحتوي على جمل متتابعة و على تنوعات كثيرة عن طريق النعوت و الظروف و الأحوال، فقد قام المرسل بمراجعة خطابه، و تنقيحه، و قد وفّر له ذلك عامل الإعداد و الوقت الذي قضاه معه قبل وصوله إلى المتلقي.

– ترد صيغ المبني للمجهول كثيرا خاصة في القرارات الرسمية باعتبارها صادرة عن لجنة مختصة أو جهة رسمية، و هي غير القرارات التي يصدرها رئيس الجمهورية و يسند فيها الفعل إليه.

– يعتمد الخطاب المكتوب على تكديس المعلومات دون كثرة التفاصيل والاستغراق في الوصف و التصويرية.

– يعد خطابا موضوعيا لأنّه يقدم المعلومة على شكل تقريري دون الإشارة إلى شعور المتكلم أو موقفه الخاص، و لا يسترسل في السيرة الذاتية.

– الوصف اللغوي للأشياء، والتعبير بالكلمات عن الأفكار بحيث تصف اللغة الأشياء دون إحالة خارج الخطاب أو دون الاستعانة بالعالم الخارجي.

– الخطاب المكتوب قابل للقراءة و الإلقاء كونه معدّ و تمّت مراجعته و تنقيحه قبل الأداء أو القراءة.

[1]- المرجع السابق. ص328– 334.

– يتمتع دون غيره من الخطابات بعدم تلقائيته و مصداقيته كونه مقصود و موجه، ويخضع مضمونه بما يتفق مع الموقف السياسي.

– التسلسل الموضوعي: فالفقرات مرتبة يتلو بعضها بعضا، و تسلم كل واحدة منها الفكرة لما بعدها، و هناك اتساق مستمر في الموضوع حيث يتطور على طول الخطاب حتى يصل إلى الخاتمة التي توجز، و تحمل ما سبق، و تضع الحلول المباشرة.

إنّ الحديث عن الخطاب السياسي بنوعيه المنطوق و المكتوب و سمات كلّ منهما، يحيلنا إلى الحديث عن الأدبية في كليهما، و بالتالي الكشف عن دور الأدب في المجال السياسي، حيث حظي هذا الاتجاه بعناية خاصة من قبل الكتّاب و نقاد الأدب، "و خاصة الكاتب الإيطالي (إيطالو كالفينو) في كتابه (استخدامات الأدب: مقالات)، حيث يتحدث الكاتب عن دورين للأدب:

– الأول يتعلق بإمكانية الأديب من خلال قدراته اللغوية، و رؤيته المميزة، و مخيلته الواسعة، أن يقدّم نموذجا للقيم ذا أبعاد جمالية و أخلاقية يكون بمثابة مرجعية صلبة و قوية توجّه العمل السياسي و تتحكم به.

– أما الدور الثاني فإنه يتلخص بأن يقوم بدور الأذن التي تسمع الأشياء خارج نطاق فهم لغة السياسة، و كذلك دور العين بأن يبلور رؤية تسهم في تكوين الإدراك الجمعي المغاير لما يراه السياسي،...و بذلك يصبح الأدب يمثل صوت من لا صوت له"[1].

7/ الخطاب السياسي و مسألة الهوية:

قبل الحديث عن الخطاب السياسي و علاقته بالهوية العربية، نشير إلى أنّ هذا المصطلح –الهوية–مأخوذ من السؤال: من هو؟ "فهي عملية تمييز الفرد لنفسه عن غيره من سماته، و الهوية الواضحة هي هوية جواز السفر التي تحدد جنسية الفرد و ديانته، أما مبدأ الهوية المقصود به أنّ الموجود هو ذاته أو هو ما هو، فالهوية أن يعرف الشخص جذوره و ميوله و يؤكد على انتمائه لهذه الجذور."[2] و يقابل هذا المصطلح في الإنجليزية مصطلح (Identity) و في الفرنسية (Identité) و "كلاهما مشتق من الأصل اللاتيني (identitas) أو (identitatis) بمعنى نفسه"[3]. أي أنّ الهوية

[1]- علي منصوري: البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة. ص38–39.

[2]- إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية. ص477.

[3] - http://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/identité

بهذا المعنى تحمل في طيّاتها بذور التفرد و التميّز، بل هي "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النّواة على الشجرة في الغيب المطلق"[1].

و جدير بالذكر أنّ الحديث عن الهوية ليس وليد عصرنا الحاضر، حيث "بدا الاختلاف إزاء الهوية واضحا في التراث العربي الإسلامي من خلال المؤتمر الذي عقد في القاهرة عام 1984 بعنوان (الهوية و التراث)، حيث خرج المؤتمرون بزخم متنوع من التعاريف للهوية، فاعتبرها فريق بأنّها (الإدراك الحضاري المتميز للمجتمع الذي يتبلور في الشعور بالانتماء، و في التعبير عن هذا الشعور سياسيا)، بينما رأى فريق أنّ الهوية (تجسيد للسمات النفسية و الاجتماعية و الحضارية)، و رأى فريق ثالث بأن الهوية (هي السمات التي ترتبط بالفرد نتيجة لانتمائه للمجتمع)، في حين رأى فريق رابع بأنّ الهوية (السمات المميزة لدولة وطنية، و التي تعبر عن الواقع الاجتماعي و الاقتصادي لتاريخ المجتمع)، و اختلف المؤتمرون حول استخدام مصطلح الهوية بمعنى الشخصية أو الطابع الوطني أو الطابع الاجتماعي أو الطابع الحضاري"[2].

و يرى (حسن حنفي) أن الهوية "إنسانية تتجاوز الحدود الجغرافية و العرقية و اللغوية و الثقافية"[3]، و هو ما جعل الخطاب السياسي العربي أداة للتعبير عن الهوية و المحافظة عليها، فالهوية لا تكتسب مقدرتها على البقاء إلا بمقدرتها على التطوّر والتفاعل مع المعطيات الاجتماعية السياسية والثقافية التاريخية؛ و في المقابل قد يؤدي الصراع الأيديولوجي بين الحاكم و المحكوم إلى كبت الهوية و محاولة طمسها، و ذلك عن طريق السجن و التعذيب و الملاحقة و الاستبعاد و التغريب، و هنا يأتي دور الخطاب السياسي من أجل التصدي لكلّ هذه المحاولات حاملين شعارات القومية و العروبة و الإسلام، من خلال الدعوة إلى توحّد أفراد المجتمع و التمسّك بالقيم الدينية و الثقافية التي بني عليها، مما يؤدي إلى نشوء فكرا واحد و قرارا واحدا يعبّر عن إرادة الشعوب و حقّها في تقرير مصيرها و المحافظة على هويتها.

---

[1]- محمد السيد الشريف الجرجاني: معجم التعريفات، تح: محمد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د.ت. ص216.

[2]- ميمونة مناصرية: هوية المجتمع المحلي في مواجهة العولمة، أطروحة دكتوراه، جامعة بسكرة، الجزائر، 2011. ص78.

[3]- حسن حنفي: الهوية، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2012. ص73 .

و ربما كانت الفتن الأخيرة التي فتكت بالعديد من الدول العربية، بالإضافة إلى تصاعد الأعمال الإرهابية و ظهور ما يسمى بتنظيم الدولة الإسلامية في العراق و الشام (داعش)، دليلا على أزمة هوية في المجتمع العربي والإسلامي، حيث كان الخطاب السياسي في تلك الدول سلاحا ذو حدّين، حيث برهن من ناحية على عجزه و عدم قدرته على إقناع الشعوب بما يدبّر لهم، و بالتالي تجنيبهم الفتن و ويلات الحرب، و استطاع من ناحية أخرى استغلال تلك الأحداث من أجل الترويج لثقافة عدم الخروج على الحكّام حتى لو كانوا مستبدين.

لقد أصبحت المنطقة العربية ميدان صراع لمختلف القوى الداخلية و الخارجية بسبب فقدان التضامن بين أقطارها، خاصة في ظل تنامي المخزون النفطي الذي أصبح مدار أنظار العالم ومطامعه، فضاعت بذلك معالم الهوية العربية و ساد التشرذم بين أبنائها مما يجعلنا في حاجة ماسة إلى خطاب سياسي يلملم أشلاء الهوية العربية يراعى فيه التاريخ و العقيدة و القيم و طبيعة الشعوب و المنظومة الفكرية و الثقافية التي تحكمها.

الفصل الثاني

ماهية التداولية و الأفعال الكلامية

1/ مفهوم التداولية

2/ مجالات البحث التداولي

3/ مهام التداولية في البحث اللغوي

4/ علاقة التداولية بالعلوم الأخرى

5/ مفهوم السياق

6/ أنواع السياق

نشأ الفكر التداولي من الاهتمام بالتواصل و الاستعمال الفعلي للغة، كما أن التقاء التداولية مع منظومة من العلوم جعل الجانب المفاهيمي لها يمتاز بالثراء و التشعب من باحث لآخر، فظهرت تعريفات مختلفة لها و هذا نتيجة للمنشأ الفلسفي الذي نشأت منه بالدرجة الأولى.

1/ مفهوم التداولية:

أ– لغة:

يرجع مصطلح التداولية في أصله العربي إلى الجذر اللغوي (د و ل) و له معان مختلفة، فقد ورد في معجم لسان العرب:" تداولنا الأمر، أخذناه بالدول، و تداولته الأيدي أخذته هذه مرة و هذه مرة، و تداولنا العمل و الأمر بيننا، تعاورناه فعمل هذا مرة و هذا مرة"[1].

كما ورد في معجم أساس البلاغة للزمخشري:"و تداولوا الشيء بينهم، و الماشي يداول بين قدميه، يراوح بينهما"[2].

و يرى بعض الدارسين أن "الجذور البعيدة للتداولية ترجع إلى وشائج تربطها بعمق تاريخ الفكر الغربي، فعلى الرغم من أن التداولية فرع جديد نسبيا في اللسانيات الحديثة فإن البحث عنها يمكن أن يرجع قديما إلى اليونان و الرومان، حيث إن المصطلح(pragmatique) يوجد في اللاتينية المتأخرة، كما أن المصطلح(pragmaticus) يوجد في اليونانية، و كلاهما بمعنى العملي"[3]؛ و يعني الجذر (pragma) القول أو الفعل (action)[4]، فالمصطلح الأول يقارب الآخر و يعد امتدادا له من الناحية الشكلية؛ و قد ترجم هذا المصطلح إلى العربية بعدة ألفاظ منها: التبادلية، الاتصالية، النفعية و الذرائعية[5]؛ لكنني اعتمدت في هذا البحث مصطلح (التداولية) بعده أكثر انتشارا و تداولا في أغلب الدراسات اللسانية و النقدية العربية الحديثة.

---

[1]– أبو الفضل جمال الدين بن منظور: لسان العرب، ط3، م11، دار صادر، بيروت، 1994. ص252–253.

[2]– جار الله الزمخشري: أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، ط1، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998. ص303.

[3]– عيد بلبع: التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، مجلة فصول، العدد66، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2005. ص38.

[4]– نواري سعود أبو زيد: تداولية الخطاب الأدبي، ط1، بيت الحكمة، الجزائر، 2009. ص18.

[5]– ميجان الرويلي و سعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000. ص102.

لقد وضع (طه عبد الرحمان) التداوليات مقابلا للمصطلح (pragmatique) سنة 1970[1]، و أطلقت عليه (ريم فرحان) الذرائعية أحيانا و البراغماتية أحيانا أخرى و عرفتها: "ما نعنيه بهذا المصطلح هو نزوع اللغة إلى التغير تبعا لما تمليه عليها قوانين التطور المختلفة التي يبدو التناقض واضحا في عمل بعضها."[2]

ووردت (التداولية) بلفظ (البراغماتية) عند (سامية الدريدي) و عرفتها بقولها: "هي نظام لساني فرعي يهتم تحديدا باستعمال الكلام في التواصل"[3].

أما (عبد المالك مرتاض) فيشكّك في ملاءمة المصدر (تداولية) للمصطلح الأجنبي (pragmatique) و يقترح أن يكون (التداول) دون الياء الصناعية كي يتم ترجمة مصطلحي (pragmatique) و (pragmatisme) بصيغة عربية واحدة، "فيكون التداول للدلالة على الأول أي تداول اللغة، و تكون التداولية للدلالة على المفهوم الثاني المرتبط بالنزعة المذهبية الفلسفية القائمة على مبدأ النفعية."[4]

إنّ هذه الترجمات المختلفة للمصطلح الواحد إن دلت على شيء فإنما تدل على انتماء أصحابها إلى حقول معرفية معينة، و تنبثق ترجمتهم انطلاقا من مجال معرفتهم.

ب– اصطلاحا:

قبل الحديث عن التعريفات المختلفة لمصطلح (التداولية) تجدر الإشارة أولا إلى الظروف التي اكتنفت نشأة هذا المصطلح و أهميته في البحث اللغوي؛ حيث يعود استعمال مصطلح (التداولية) للفيلسوف شارل موريس(C. Morris) انطلاقا من غايته بتحديد الإطار العام لعلم العلامات أو السيميائية من خلال تمييزه بين ثلاثة فروع[5]:

---

[1]– طه عبد الرحمان: أصول الحوار و تجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000. ص27.

[2]– ريم فرحان المعايطة: براغماتية اللغة و دورها في تشكيل بنية الكلمة، د.ط، دار اليازوري، الأردن، 2008. ص17.

[3]– سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ط1،جدار الكتاب العالمي، الأردن، 2008. ص16.

[4]– عبد المالك مرتاض: تداولية اللغة بين الدلالة و السياق، مجلة اللسانيات، مركز البحوث العلمية و التقنية لترقية اللغة العربية، العدد 10، الجزائر، 2005. ص66-67.

[5]– عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب. ص21.

– الفرع الأول: النحو أو التركيب (syntax) و هو دراسة العلاقات التشكيلية بين العلامات بعضها ببعض.

– و الفرع الثاني الدلالة (semantics) و هي دراسة علاقة العلامات بالأشياء التي تؤول إليها هذه العلامات.

– و الفرع الثالث التداولية (pragmatics) و هي دراسة علاقة العلامات بالأشياء لمستعمليها و بمؤوليها.

و يمكن القول إن مبتدع (التداولية) المفترض هو تشارلز بيرس(C.Peirce) إلا أن تلميذه تشارلز موريس (C. Morris) هو الذي أدخلها ضمن إطار نظري يعنى فيه هذا المصطلح العلاقة بين العلامات و مستعمليها.

و يتفق الدارسون على أن (التداولية) لم تصبح مجالا يعتد به في الدرس اللغوي المعاصر إلا في العقد السابع من القرن العشرين بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي لجامعة أوكسفورد و هم: أوستن(Austin) و سيرل(Searl) و غرايس(Grice)، و كانوا جميعا مهتمين بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ متكلم رسالة إلى متلق يفسرها، و كان هذا من صميم عملهم و هو من صميم التداولية كذلك.[1]

أما عن تاريخ نشأة (التداولية) بمفهومها اللغوي فيعود إلى سنة 1955 "عندما ألقى (جون أوستن) محاضراته في جامعة هارفارد ضمن برنامج محاضرات (وليام جيمس)(wiliam james)"[2].

و استعمل (تشارلز بيرس) مصطلح البراجماتيزم(pragmatisme) لأول مرة في مقال نشره بإحدى المجلات العلمية عام 1878 تحت عنوان: كيف نصنع أفكارنا (how to make our ideas clear)[3].

[1]– محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2006. ص9-10.

[2]– آن روبول، جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2003. ص28.

[3]– محمود سليمان ياقوت: منهج البحث اللغوي، ط1، دار المعرفة الجامعية، الكويت، 2000. ص172.

و نشأت كلمة براجماتيزم (pragmatisme) حين تساءل (بيرس) عن معنى الفكرة، و معنى العبارة و متى يكون للفكرة معنى؟ و متى تكون العبارة صادقة؟ و متى يجوز لنا أن نتكلم عن العبارة بوصفها معبرة عن فكرة و متى لا يجوز؟[1]

و لما انتهى (بيرس) إلى أن الفكرة هي ما تعمله، أي أن معناها يرتبط بنتائجها و آثارها المترتبة عنها، صاغ لنفسه كلمة (براجماتيزم) التي يقول إنه أخذها من تمييز كانط (Emmanuel Kant) بين كلمتين هما: (pragmatic) و (practical) و قال: "إن الفرق بينهما مثل الفرق بين القطبين ، إذ تشير الأولى إلى بحث في قواعد الفن الذي يشتق من التجربة، بينما تشير الثانية إلى القوانين الخلقية ذات الأساس القبلي"[2].

أما عن (فيجنشتاين)(wittgenstein) فقد كان فكره متأثر بالفلسفة و المنطق و قد حاول الإسهام في حقل اللغة و إيجاد لغة مثالية تتطابق و الفكر الفلسفي لكنه سرعان ما عدل عن ذلك و اتجه إلى دراسة اللغة العادية، و الملاحظ أن (فيجنشتاين) ينظر للتداولية من وجهة نظره الفلسفية، و اعتمدت فلسفته على ثلاثة مفاهيم أساسة هي: الدلالة*، القاعدة**، الألعاب اللغوية[3].

و يرى (فيجنشتاين) أن الألعاب اللغوية هي شكل من أشكال الحياة، فقد تنوع النشاط اللغوي و تعددت الطرائق في استخدام الجملة الواحدة كالشكر و التحية، و اللغة ليست حسابا منطقيا، بل كل لفظة لها معنى معين، و لكل جملة معنى في سياق محدد، فالكلمة و الجملة تكسب معناها من خلال استخدامها؛ فالمعنى عنده هو الاستعمال[4].

---

[1]- المرجع السابق. ص173.

[2]-المرجع نفسه. ص173.

*الدلالة: حيث فرق بين الجملة و القول و جعل الجملة أقل اتساعا من القول.

**القاعدة: و هي مجموعة المثل الصالحة لعدد كبير من الأحوال و المتكلمين و التي تسمح بتنويع النشاط اللغوي، و هي القاعدة النحوية الصحيحة في الترتيب و الاستعمال.

[3]- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. ص42-43.

[4] - الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986. ص33.

لعل أقدم تعريف للتداولية هو تعريف شارل موريس (C.Morris) "فهو أول من استعمل مصطلح (pragmatique) (التداولية) سنة 1938 بعدّها جزءا من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات و مستعملي هذه العلامات"[1].

و يعرفها (آن ماري ديلر) (A.M.Diller) و (فرانسوا ريكاناتي) (F.Riccanati) بقولهما: "التداولية هي دراسة استعمال اللغة في الخطاب، شاهده في ذلك مقدرته الخطابية، فهي إذن تهتم بالمعنى كالدلالية و بعض الأشكال اللسانية التي لا يتحدد معناها إلا من خلال استعمالها."[2]

كما ذهب (فرانسيس جاك) (Francis Jaques) إلى أن "التداولية تتطرق إلى دراسة اللغة كظاهرة خطابية تواصلية و اجتماعية معا"[3].

كما ظهرت لمصطلح (التداولية) عدة تعريفات نظرا لما لها من أهمية بالغة في الدراسات اللسانية العربية، و من أبرز التعريفات التي استخلصها الدارسون في هذا المجال نذكر:

* تعريف (علي محمود حجي الصراف):"التداولية دراسة كل جوانب المعنى التي تهملها النظريات الدلالية، فإذا افتقر علم الدلالة دراسة الأقوال التي تنطبق عليها شروط الصدق فإن التداولية تعنى بما وراء ذلك، و قصر علم الدلالة على هذا النوع من الأقوال غير مسلم به في النظريات الدلالية التي ظهرت منذ العقد الثامن من القرن العشرين، فضلا عن أن ما وراء ذلك لا يستطاع حصره"[4].

* تعريف (محمود أحمد نحلة):" التداولية دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل، لأنها تشير إلى أن المعنى ليس شيئا متصلا في الكلمات وحدها، و لا يرتبط بالمتكلم وحده، و لا المتلقي وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم و المتلقي في سياق محدد (مادي، و اجتماعي، و لغوي) وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما"[5].

---

[1]– نعمان بوقرة: الخطاب التداولي، د.ط، مركز بحوث كلية الآداب، الرياض، 2009. ص11.

[2]– فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، د.ط، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986. ص8.

[3]– عبد الحليم عيسى: المرجعية اللغوية في النظرية التداولية، مركز البصيرة للبحوث و الاستشارات و الخدمات التعليمية، العدد1، الجزائر، 2008. ص17.

[4]– علي محمود حجي الصراف: في البراغماتية–الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، 2010. ص3.

[5]– محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. ص10–11.

* و يعرفها (صلاح فضل) بأنها :"أحدث فروع العلوم اللغوية، و هي التي تعنى بتحليل عمليات الكلام و الكتابة، و وصف وظائف الأقوال اللغوية و خصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام"[1].

* و أما (مسعود صحراوي) فعرفها بأنها :"مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللساني اللغوي لمستعمليه، و طرق و كيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، و السياقات و الطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، و البحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة و ناجحة، و البحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية"[2].

من خلال كل التعريفات الغربية و العربية السابقة يمكن القول إن (التداولية) منهج يعنى بدراسة اللغة في الاستعمال من خلال سياق محدد يكشف عن معنى المتكلم و مقاصده.

2/ مجالات البحث التداولي:

نظرا لظروف نشأة (التداولية) و اهتمامها بالمعنى المراد داخل السياق الخاص بالاستعمال اللغوي الحي الفردي بين متكلم بعينه و متلق بعينه، و نظرا لترتيب البحث التداولي بعد البحث التركيبي و البحث الدلالي، فإنه يصعب حصر مجال البحث التداولي و تحديد موضوعاته بدقة إلا أنه يمكننا استعراض بعض الأهداف التي تسعى التداولية إلى تحقيقها و هي كالآتي[3]:

- دراسة استعمال اللغة
- شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة المنطوقات.
- شرح أسباب فشل المعالجة اللسانية البنيوية في معالجة المنطوقات.
- بيان أسباب أفضلية التواصل غير المباشر و غير الحرفي على التواصل الحرفي المباشر.

[1]- صلاح فضل: بلاغة الخطاب و علم النص. ص10.

[2]- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2005. ص5.

[3]- علي محمود حجي الصراف: في البراغماتية-الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة. ص8.

كما اتفق معظم الدارسين على مجموعة من المجالات التداولية و هم يكادون يتفقون على ترتيب عرضها كالآتي:[1]

* الإشاريات

* الافتراض المسبق

* الاستلزام الحواري

* الأفعال الكلامية

أ- الإشاريات:

و تسمى المعينات، و هي: "تعبيرات تحيل إلى مكونات السياق الاتصالي و هي المتكلم، المتلقي، و زمن المنطوق، و مكانه،...إلخ، و هذا يعني أن هذه التعبيرات غير مستقلة عن السياق المتغير، و لها دائما محيلات أخرى"[2]. و الإشاريات مثل أسماء الإشارة و أسماء الموصول، و الضمائر، و ظروف الزمان و المكان، من العلامات اللغوية التي لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب، لأنها خالية من أي معنى في ذاتها، لذلك فقد كان العرب سابقا يطلقون عليها (المبهمات)؛ إلا أنها عامل هام في تكوين بنية الخطاب، إذ لها دور مهم في الإحالة إلى المعلومات[3].

والإشاريات هي تلك الأشكال الإحالية التي ترتبط بسياق المتكلم مع التفريق الأساس بين التعبيرات الإشارية القريبة من المتكلم مقابل التعبيرات الإشارية البعيدة عنه[4]. فكل فعل لغوي يكون ناجحا إذا علم المخاطب قصد و إحالة العبارة، و إذا كان للمتكلم غرض ينبغي بموجبه أن يشكل المخاطب هذه المعرفة.[5]

نستطيع القول إن قيمة و دور الإشاريات عموما يكمن في ما تحيل إليه، و كيفية تأويلها حسب السياق الذي ترد فيه، و كلها خادمة له إذ أنها تعنى بعناصره عناية بالغة.

---

[1]- مسعود صحرواي: التداولية عند العلماء العرب. ص30.

[2]- فان دايك: علم النص، تر: سعيد حسن بحيري، ط2، دار القاهرة، القاهرة، 2005. ص136.

[3]- عيد بلبع: التداولية ابعد الثالث في سيميوطيقا موريس. ص41.

[4]- عبدالهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب. ص81.

[5]- فان دايك: النص و السياق، تر: عبد القادر قنيني، ط1، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1999. ص266.

إن المتكلم إذن يشكل المركز الذي من خلاله يمكن أن نحدد مسألة القرب و البعد المادي و الاجتماعي بالنسبة لأطراف الخطاب، لأنه في كل اللغات كلمات و تعبيرات تعتمد اعتمادا تاما على السياق الذي تستخدم فيه، و لا يستطيع إنتاجها أو تفسيرها بمعزل عنه، و لتوضيح هذا الكلام سنعمد إلى أصناف الإشاريات و سنوضح من خلالها المفاهيم التداولية التي تكتنف كل صنف و هي: الإشاريات الشخصية، الإشاريات الزمانية، الإشاريات المكانية، الإشاريات الاجتماعية، الإشاريات الخطابية.

أ.1 / الإشاريات الشخصية:

تشمل الإشاريات الشخصية ضمائر المتكلم و المخاطب و الغائب، فهذه الضمائر عناصر إشارية لأن مرجعها يعتمد اعتمادا تاما على السياق الذي تستخدم فيه؛ مثل: أنا نعسان، فالسياق هو الذي يحدد إحالة الضمير (أنا)، و لا بد في الإحالة من تحقق شرط الصدق فلو قالت امرأة: أنا أم نابليون، فليس بكاف أن يكون مرجع الضمير هو تلك المرأة بل لا بد من التحقق من مطابقة المرجع للواقع، بأن تكون المرأة هي أم نابليون فعلا، و أن تكون الجملة قيلت في الظروف التاريخية المناسبة[1].

و تجدر الإشارة في هذا الموضع أن شرط الصدق يرتبط ارتباطا مباشرا بالسياق التاريخي الذي قيل فيه القول.

كما أنه قد ينشأ نوع من اللبس في استخدام الضمائر، خاصة إذا تعدد الأشخاص فيؤدي هذا إلى تعدد في إحالات الضمائر؛ و يوضح (أحمد المتوكل) هذه الحالة بالمثال الآتي: "دخل خالد القاعة فرأى بكرا جالسا و رآه بكر، فابتسم له و صافحه، فإن إحالة الضمير في (ابتسم) و (صافحه) فيها نوع من اللبس في أنها يمكن أن تعود على خالد أو بكر[2].

[1]– محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. ص18.

[2]– أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، د.ط، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985. ص144.

أ.2/ الإشاريات الزمنية:

هي كلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التلفظ، فإذا لم يعرف زمان التكلم أو مركز الإشارة الزمنية التبس الأمر على السامع أو القارئ[1].

فإذا وجدنا إعلانا مثلا: ستبدأ التخفيضات الأسبوع القادم، فإننا لم نعلم زمن الخطاب (الإعلان) كما أننا لا نعرف هل التخفيضات ستبدأ أم مضى الأسبوع و بدأت التخفيضات، كما أننا لا نستطيع تحديده على وجه الدقة إذا لم نعلم وقت الإعلان تماما.

و قد تستغرق الإحالة إلى الزمن المدة الزمنية كلها كأن يقال اليوم الاثنين، و قد تستغرق مدة محددة من الزمان، كأن يقال ضرب زيد عمرا يوم الخميس، فالضرب يستغرق جزءا من اليوم؛ و قد يتسع مدى بعض العناصر الإشارية إلى الزمان المحدد له عرفا إلى زمان أوسع فكلمة اليوم في قولنا: بنات اليوم، تشمل العصر الذي نعيش فيه و لا يتحدد بيوم مدته أربع و عشرون ساعة[2]، و كل ذلك موكول إلى السياق الذي تستخدم فيه هذه العناصر الإشارية في الزمان.

أ.3/ الإشاريات المكانية:

و هي كلمات الإشارة نحو هذا و ذاك للإشارة إلى قريب أو بعيد من مركز الإشارة المكانية، و كذلك هنا و هناك من ظروف المكان التي تحمل معنى الإشارة إلى قريب أو بعيد من المتكلم، و سائر ظروف المكان مثل: فوق و تحت و أمام و خلف، و هذه العناصر الإشارية إلى الأماكن تعتمد في استعمالها و تفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، و على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع، و يكون لتحديد المكان أثره في اختيار العناصر التي تشير إليه قربا أو بعدا أو وجهة.

و لا نستطيع تفسير هذه الألفاظ الإشارية إلا إذا وقفنا على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى المكان، فهي تعتمد على السياق المادي المباشر الذي قيلت فيه[3]؛ فلو قال شخص:

---

[1]- فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية. ص45.

[2]- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. ص20.

[3]- المرجع نفسه. ص21- 22.

أحب أن أعمل هنا: فهل يعني: في هذا المكتب؟ أو في هذه المؤسسة؟ أو في هذا المبنى؟ أو في هذه القرية؟ أو في هذه الدولة؟...فكلمة (هنا) تعبير إشاري، و إن كان يشير إلى شيء قريب من المتكلم إلا أنه قد يكون بعيدا عن المخاطب، فلا يمكن تفسيره إلا بمعرفة المكان الذي يقصد المتكلم الإشارة إليه.[1]

و تتعقد المسألة إذا كان المخاطب لا يرى المتكلم، مثلا: حين يصف شخص لصديقه مكانه عبر الهاتف قائلا: تقع الجامعة على يميني، فبالرغم من اكتمال الخطاب لغة، و بالرغم من معرفة المرسل إليه بموقع الجامعة، إلا أنه يصعب معرفة موقع المرسل بالتحديد، فلا يقدر على ذلك إلا إذا استطاع أن يعرف اتجاه سير المرسل[2].

أ.4/ الإشاريات الخطابية:

هناك إشاريات للخطاب تعد من خواص الخطاب و تتمثل في العبارات التي تذكر في النص مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم مثل: و مهما يكن من أمر، لكن، فضلا عن ذلك، من ثم...و هذه الإشاريات قد تلتبس بالإحالة إلى سابق أو لاحق. و قد تستعار إشاريات الزمان و المكان لتستخدم إشاريات للخطاب فكما يقال: الأسبوع الماضي، يمكن أن يقال الفصل الماضي من الكتاب أو الرأي السابق، أو يقال هذا النص و تلك القصة.[3]

أ.5/ الإشاريات الاجتماعية:

و يقصد بها تلك الألفاظ و التراكيب التي تشير إلى نوع العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين و المتخاطبين، من حيث هي علاقة رسمية أو غير رسمية، أي علاقة صداقة أو ألفة[4]؛ فالعلاقة الرسمية يدخل فيها صيغ التبجيل في مخاطبة من هم أكبر سنا و مقاما من المتكلم، أو مراعاة للمسافة الاجتماعية بينهما فتشمل الألقاب، فخامة الرئيس، جلالة الملك، سمو الأمير، و السيد

[1]- المرجع السابق. ص22.

[2]- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب. ص84.

[3]- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. ص24.

[4]- المرجع نفسه. ص25.

و السيدة،...أما العلاقة غير الرسمية فتشمل النداء بالاسم المجرد؛ فمسألة تحديد نوع العلاقة الاجتماعية بين أطراف الخطاب مسألة نسبية، تختلف من موقف لآخر من حيث قرب أو بعد الأطراف سواء أكان البعد ماديا أم نفسيا أم اجتماعيا.[1]

ب/ الافتراض المسبق:

و المقصود به الافتراض السابق بالمعلومات المشتركة بين المتكلم و المتلقي المعروفة سابقا، حيث "يوجه المتكلم حديثه إلى المتلقي على أساس مما يفترض سلفا أنه معلوم، فإذا قال رجل لآخر: أغلق النافذة، فالمفترض سلفا أن النافذة مفتوحة، و أن هناك مبررا يدعو إلى إغلاقها، و أن المتلقي قادر على الحركة و أن المتكلم في منزلة الأمر، و كل ذلك موصول بسياق الحال و علاقة المتكلم بالمتلقي.[2]

و يقرر فينمان (Venman) بأن لأي خطاب "رصيدا من الافتراضات المسبقة يضم معلومات مستمدة من المعرفة العامة، و سياق الحال و الجزء المكتمل من الخطاب ذاته"[3].

فلدى كل طرف من أطراف الخطاب رصيدا من الافتراضات المسبقة و هذه الافتراضات في تزايد مع تقدم عملية الخطاب. و يرى كل من (براون و يول) أنه ضمن رصيد الافتراضات المسبقة المصاحبة لأي خطاب توجد مجموعة من المسلمات الخطابية[4].

كما يرى بعض الدارسين أن أداة التعريف تشير إلى ما يسمى بالمعلومات السابقة، بينما تؤدي أداة التنكير وظيفة الإشارة إلى معلومات لاحقة، أي إلى وحدات لغوية لم يوضحها المتكلم بعد، مثلا حين تقول: كان في قديم الزمان فتاة...(إشارة إلى معلومة لاحقة يتوقع السامع أن يُخبر بها) لذلك فإن المتلقي يبني فهمه لمعنى السياق على ترتيب معين.[5]

فالتعريف "يعتمد على ما يفترضه المتكلم من علم السامع بالأمر، و التنكير على العكس من ذلك فهي أمور لا يعرف السامع عنها شيئا، أو لا يعرف أي أمر منها يراد بين أمور عديدة...و قد

[1]- فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية. ص42.

[2]- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. ص26.

[3]- ج.ب براون و ج.يول: تحليل الخطاب، تر: محمد الزليطي، و منير التريكي، د.ط، جامعة الملك سعود، الرياض، 1997. ص96.

[4]- المرجع نفسه. ص97.

[5]- فولفجانج هاينه مان و ديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم لغة النص، تر: سعيد حسن بحيري، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2004. ص24.

لا تكون معروفة عند المتكلم أيضا"[1]؛ كما التفت النحاة إلى دور المخاطب في الاتصال الكلامي، و جعلوا تعريف الشيء أو تنكيره محكوما بالعلاقة المفترضة بين المتكلم و المخاطب، فإذا قدر علمه بالشيء استخدمه معرفة، و إذا قدر جهله به استخدمه نكرة[2]؛ فالمنكِر لا يحيل إلا على معلومات معجمية أو لغوية مخزونة في ذهن السامع، أما المعرّف فإنه يحيل أحيانا على المعلومات المعجمية و اللغوية و أحيانا الاصطلاحية، و أحيانا على معلومات تخص أفرادا معينين للسامع سابق معرفة بهم. و يميز الباحثون بين نوعين من الافتراضات المسبقة:

- المنطقي أو الدلالي
- التداولي

فبالنسبة للافتراض المنطقي فإنه يستلزم أن تكون الجملتان صحيحتان (الجملة المحكية و الجملة المفترضة) مثل: يعرف محمد أن الأرض كوكب شمسي، فالافتراض المسبق: أن الأرض كوكب شمسي؛ فإذا كانت الجملة الأولى صحيحة فإن الجملة المفترضة صحيحة.

أما الافتراض التداولي المسبق: فلا دخل له بالصحة أو عدمها، حيث يبقى غير متأثر بالنفي، فإذا قال شخص: سيارتي جديدة ثم قال سيارتي ليست جديدة، فعلى الرغم من تناقض القولين إلا أن الافتراض المسبق و هو أن له سيارة لا يزال قائما في الحالين؛ و من هنا فإن كافة الافتراضات المسبقة هي دائما صحيحة[3].

ج/ الاستلزام الحواري:

يرجع البحث في هذا المجال إلى الفيلسوف (غرايس) عندما ألقى محاضرته في جامعة هارفارد، و كانت نقطة البدء عنده "أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون و قد يقصدون أكثر مما يقولون، و قد يقصدون عكس ما يقولون...، فأراد أن يقيم معبرا بين ما يحمله القول من معنى صريح

[1]- محمود أحمد نحلة: التعريف و التنكير بين الدلالة و الشكل، د.ط، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1999. ص81.

[2]- المرجع نفسه. ص220.

[3]- جيفري ليتش و توماس جيني: اللغة و المعنى و السياق، البراغماتية المعنى في السياق، الموسوعة اللغوية، تر:محي الدين حميدي و عبد الله الحميدان، د.ط، جامعة الملك سعود، 2000. ص189-190.

و ما يحمله القول من معنى متضمن مما نشأ عنه فكرة الاستلزام الحواري"[1]؛ و قد ربط (غرايس) هذا الموضوع بمبدأ التعاون بين المتخاطبين و جسده في أربع قواعد سلوكية حوارية هامة هي[2]:

أ/ قاعدة الكمية: اجعل إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب دون زيادة أو نقصان.

ب/ قاعدة النوعية: لا تقل ما تقصد أنه غير صحيح، و لا تقل ما ليس عندك دليل عليه.

ج/ قاعدة المناسبة: اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة بالموضوع.

د/ قاعدة الهيئة: كن واضحا و محددا، و تجنب الغموض و اللبس و أجز كلامك و رتبه.

لكن ألا تقيد هذه القواعد الحوار الكلامي الأمر الذي سيضطر المتخاطبين أحيانا إلى الخروج عنها، خاصة إذا كان في هذا الخروج فائدة و تفصيلا؟ لذلك يرى (محمود أحمد نحلة) أن من خصائص الاستلزام الحواري ما يأتي[3]:

- الاستلزام يمكن إلغاؤه.
- الاستلزام متصل بالمعنى الدلالي لما يقال.
- الاستلزام متغير.
- الاستلزام يمكن تقديره.

د/ الأفعال الكلامية:

إن البحث في الأفعال الكلامية من صميم التداولية فهي تحتل فيه مكانة معتبرة، و قد انبثقت أساسا من تيار الفلسفة التحليلية بزعامة (فينجشتاين) الذي طور فلسفته الجديدة التي توصي بمراعاة الجانب الاستعمالي في اللغة مبينا "أن الاستعمال هو الذي يكسب تعليم اللغة و استخدامها"[4].

[1]- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. ص32.

[2]- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب. ص33.

[3]- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. ص38.

[4]- حسن مصدق: النظرية النقدية التواصلية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005. ص130.

د.1/ التداولية و أفعال الكلام عند أوستن:

أخذت التداولية جذورها من أعمال الفيلسوف (أوستن) الذي قام ضد تقاليد الوضعية المنطقية التي ترى أن اللغة تصلح فقط لوصف الواقع و هي نظرة يصفها (أوستن) بطريقة قدحية (بالاهتمام الوصفي)؛ و يدافع في مقابل ذلك عن نظرة أكثر إجرائية يصلح الكلام بموجبها لأداء أفعال لغوية، مؤسسا نظريته في الكلام و استعماله على فحص الملفوظات المثبتة، المسندة إلى ضمير المتكلم في الزمن الحاضر، المبني للمعلوم، الملفوظات التي لا تسعى إلى وصف شيء و التي لا يمكن وسمها بالصحة أو الخطأ، و هي تلك التي تسعى إلى إنجاز أفعال[1].

د.1.1/ التمييز بين الإنجازي (الإنشائي) و الوصفي و مختلف أفعال الكلام:

عالج (أوسين) أثناء تمييزه بين الإنشائي و الوصفي، مسألة ما نقوم به حتى نقول شيئا ما، فنحن –حسب رأيه– نحقق بالضرورة ثلاثة أعمال[2]:

– العمل التصويتي: و مفاده إنتاج بعض الأصوات

– العمل الصيغي: و مفاده إنتاج بعض الألفاظ في تركيب معيّن و بتنظيم معين.

– العمل التبليغي: و مفاده استعمال بعض التراكيب بدلالة معينة، و هذه الدلالة تتكون من معنى مكونات التركيب المستعمل و إحالتها.

و يلاحظ (أوستين) أنّ إنتاج العمل الصيغي يقتضي العمل التصويتي، و لكن العكس غير صحيح بالطبع، و أنّ العمل التبليغي هو الذي ننقله في الخطاب غير المباشر، و أخيرا فإنّ المعنى و الإحالة اللذين يكوّنان الدلالة هما عملان مساعدان يتحقّقان من خلال إنجاز العمل التبليغي.

غير أنّ ذلك –كما لاحظ (أوستين)– لا يوضّح التمييز بين الوصفي و الإنشائي بما أنّ هذه الأعمال الثلاثة لا تنفصل عن أي إنتاج لغوي ذي دلالة سواء أكان ما ينتج عنه قولا وصفيا أم قولا إنشائيا.

---

[1]– نور الدين اجعيط: تداوليات الخطاب السياسي، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2012. ص68-69.

[2]- جاك موشلر، آن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: عز الدين المجدوب و آخرون، ط2، دار سيناترا، تونس، 2010. ص64-65.

من أجل ذلك اقترح (أوستين) تمييزا جديدا بين أعمال ثلاثة أخرى هي:

– **فعل القول أو العمل القولي**: الذي نحققه **حين** نقول شيئا ما.

– **فعل الإنجاز أو العمل المتضمن في القول**: هو الذي نؤديه أو نحقّقه **في** قولنا شيئا ما.

– **فعل التأثير أو عمل التأثير بالقول**: هو العمل الذي يتحقق نتيجة قولنا شيئا ما أو بتعبير آخر العمل الذي نحققه **بواسطة** قولنا شيئا ما.

إن الملاحظ أن المستويات المذكورة تكمل بعضها البعض، فالإنجاز ينتج عن القول و التأثير ينتج عن الإنجاز و بالتالي فلكل مستوى من هذه المستويات يتمم الآخر، كما أن الفعل هو القاسم المشترك بينها.

كما صنف (أوستن) الأفعال الكلامية حسب قوتها الإنجازية، فميز بين خمسة مستويات كبرى من الأفعال هي[1]:

– **أفعال الأحكام**: و هي التي تعبر عن حكم صادر عن حكم (يتهم، يبرئ، يحلل...)

– **الأفعال التنفيذية**: لها علاقة بممارسة الأحكام و القوانين(يقهر، يتحكم، يأمر يسامح...)

– **أفعال الالتزام و التعهد**: لها علاقة بالمتكلم، إذ تعبر عن إلزامه بفعل شيء(أعد، أتعهد...)

– **أفعال السلوك**: تعبر عن رد فعل تجاه الآخرين نحو (سامح، شكر، عزى، هنأ...)

– **أفعال الإيضاح أو العرض**: تستعمل لتوضيح وجهة نظر أو عرض قضية (أثبت، نفي، أكد...)

و يضيف (سيرل) إلى نظرية (أوستن) مبدأ قويا هو مبدأ التعبيرية الذي عرفه كما يلي: "عندما يريد المتكلم التعبير عن دلالة ما، فهناك تعبير مناسب أو صيغة صحيحة حاملة لهذه الدلالة"[2]. لكن الجديد الذي أتى به (سيرل) هو تمييزه داخل الملفوظين بين اسم المحتوى القضوي و اسم القوة الإنجازية، فمثلا في قولنا: "أعدك أن أحضر غدا" هو ملفوظ ذو قوة إنجازية ظاهرة،

[1]– نور الدين اجعيط: تداوليات الخطاب السياسي. ص69.

[2]– المرجع نفسه. ص71.

فيكون اسم المحتوى القضوي هو"أحضر غدا" و اسم القوة الإنجازية هو "أعدك". و يصنف (سيرل) الأفعال اللغوية إلى[1]:

– **الإخباريات:** يدخل في هذا الصنف أفعال العرض و الإيضاح و كثيرا من الأحكام(الإثبات، التأكيد...)

– **التوجيهيات:** يتضمن هذا الصنف أفعال الأمر و الطلب و التوجيه و الاستفهام و الاستعطاف و الإذن...

– **الالتزاميات:** يتضمن هذا الصنف أفعال الوعد و الدعوة...

– **التعبيريات:** يندرج ضمن هذه المجموعة أفعل التهنئة و الشكر و الاعتذار و التعزية.

– **الإعلانيات:** و يتضمن أفعال الإعلان عن الحرب و التقنين و التمهيد(فعل يتعلق بمؤسسة الكنيسة).

3/ مهام التداولية في البحث اللغوي:

تتلخص مهام التداولية في مجموعة عناصر تتمثل في دراسة اللغة أثناء التلفظ بها في السياقات و المقامات المختلفة، و في هذا الشأن يقول عبد الهادي بن ظافر الشهري: "التلفظ هو النشاط الرئيسي الذي يمنح استعمال اللغة طابعها التداولي"[2].

إن التلفظ يرتبط ارتباطا وثيقا بالسياق الذي يتلفظ فيه، و ذلك كونه ينتقل باللغة من وجودها بالقوة في ذهن صاحبها إلى وجودها بالفعل من خلال الممارسة الفعلية، و على أساس هذه الممارسة يتحدد القصد و الغرض من الكلام.

كما يرى فان دايك (Van Dijk) أن مهام التداولية دراسة شروط نجاح العبارات، و صياغة شروط ملاءمة الفعل لإنجاز العبارة، و مدى ملاءمة كل ذلك لبنية الخطاب، يقول: "صحيح إن أحد مهام التداولية أن تنتج صياغة شروط إنجاح إنجاز العبارة، و بيان أي جهة يمكن بها أن يكون مثل

[1]– المرجع السابق. ص73.

[2]– عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب. ص27.

هذا الإنجاز عنصرا في اتجاه مجرى الفعل المتداخل الإنجاز، الذي يصبح بدوره مقبولا أو مرفوضا عند فاعل آخر، و بهذا الاعتبار فإن المهمة الثانية تقوم في صياغة مبادئ تتضمن اتجاهات مجاري فعل الكلام المتداخل الإنجاز، الذي ينبغي أن يستوفي في إنجاز العبارة حتى تصبح ناجحة، و المهمة الثالثة: أنه لما كانت معطيات التجربة متاحة بأوسع ما تكون، في صورة العبارة فقط، فيجب أن يكون من الواضح في التداولية كيف تترابط شروط نجاح العبارة كفعل إنجازي، و كمبادئ فعل مشترك الإنجاز التواصلي مع بنية الخطاب و تأويله"[1].

إن التداولية عند (فان دايك) تقوم بمهمة دراسة الشروط التي تضمن النجاح و الفعالية المناسبة لكل استخدام لغوي، وفق ما يقتضيه و يتطلبه كل موقف تواصلي.

و من مهام التداولية كذلك شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات، كما أنها تسعى لبيان كيف يمكن أن يكون التواصل الضمني (غير الحرفي) في الاستعمال أفضل من التواصل الحرفي المباشر.[2]

كما تهدف التداولية في محصولها العام للإجابة عن أسئلة تطرح نفسها بقوة، و لم تستطع المناهج النقدية و اللسانية السابقة، في دراستها للغة، الإجابة عنها؛ و تلك الأسئلة[3]:

- ماذا نصنع حين نتكلم؟
- ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟
- من يتكلم، و إلى من يتكلم، و لأجل من؟
- ماذا علينا أن نعلم حتى يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟
- كيف يمكننا قول شيء آخر غير ما كنا نريد قوله؟
- هل يمكننا أن نركن للمعنى الحرفي لقصد ما؟
- ما هي استعمالات اللغة؟

[1]- فان دايك: النص و السياق. ص292.

[2]- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب. ص27.

[3]- آن روبول و جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل. ص71.

4/ علاقة التداولية بالعلوم الأخرى

1.4/ علاقة التداولية باللسانيات:

ترتبط التداولية باللسانيات ارتباطا وثيقا و مرد هذا الارتباط اهتمامها بدراسة علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، و طرق و كيفية استخدام العلامات اللغوية بنجاح، و السياق الذي ينجز ضمنه الخطاب، الأمر الذي يجعل من الخطاب عملية ناجحة بالدرجة الأولى.

فبالنسبة لـ(أوستن) و (سيرل) يأتي ارتباط التداوليات باللسانيات من صميم دلالات فعل الكلام، الذي يعني التصرف أو الفعل الاجتماعي أو المؤسساتي الذي ينجزه الإنسان بالكلام[1].

و هناك من الباحثين من يتحدث عن التداولية اللسانية و يؤكد على أنها تيار أتى بعد (سيرل) و تطور بأوروبا، و هي تداولية تسعى لأن تكون مدمجة في اللسانيات لا تكملة لها، بل هي جزء لا يتجزأ منها، و من ذلك التداولية المندمجة كما عرضها (ديكرو).[2]

و يرى (إدريس مقبول) أن اهتمام التداولية بالبعد الاستعمالي للكلام ليس منسجما و موحدا، و يرى أن مجالاتها مختلفة و موزعة إلى ثلاثة انشغالات أساسة كالآتي[3]:

– **التداولية التلفظية:** أو لسانيات التلفظ: التي تركز على (مرسل، متلقي، وضعية التلفظ) التي يندرج ضمنها الملفوظ.

– **التداولية التخاطبية:** (أو نظرية أفعال الكلام): مع (أوستن و سيرل) التي تخصص لدراسة القيم التخاطبية داخل الملفوظ و التي تسمح له بالاشتغال بعده فعلا لغويا خاصا.

– **التداولية التحاورية:** و تهتم بدراسة اشتغال هذا النمط الخاص من التفاعلات التواصلية الذي هو الحوارات، و هي تبادلات كلامية تقتضي خصوصيتها أن تنجز بمساعدة دوال لفظية و لفظية موازية.

---

[1]– مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب. ص5.

[2]– آن روبول و جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل. ص47.

[3]– إدريس مقبول: الأسس الابستيمولوجية و التداولية، ط1، جدار للكتاب العالمي، عمان، 2006. ص263.

2.4/ علاقة التداولية بالبلاغة:

إن أول ما تنصرف إليه البلاغة هو الإبلاغ فتعالج كيفية التأثير في الآخر و إقناعه و بيان المقاصد التي يهدف الباحث إلى تحقيقها، و هذا يعد من صميم البحث التداولي الذي يعالج درجات التفاعل الاتصالي بين المخاطِب و المخاطَب و شدة التأثير و قوته، و هو ما يتم بالأفعال الكلامية الموظفة في الخطاب، و الأدوات (أدوات التوكيد، النفي، التعريف...) و كذا تحديد الخطاب الناجح(الكلام البليغ)[1].

إن البلاغة إذن تستحضر عناصر الخطاب الأساسة و هي المخاطِب و المخاطَب و الرسالة مع مراعاة السياق الذي يرد فيه الخطاب، أي أن تجعل لكل مقام مقال، و هو ما أكدت عليه التداوليات الحديثة.

3.4/علاقة التداولية بالنحو:

إن المتأمل في التراث النحوي العربي يدرك أن النحاة العرب لم يكونوا بعيدين عن التصور التداولي الحديث، خاصة في تطبيقهم لظواهر الخبر و الإنشاء، و لعل جهود العالمين (عبد القاهر الجرجاني) و (الرضي الاستراباذي) خير دليل على ذلك، حيث أوليا عناية كبيرة بالارتباط التداولي بين الأسلوب—خبرا كان أم إنشاء- و بين معناه الإبلاغي و وظيفته التواصلية، مع حرصهما القوي و المتكرر على المعاني و الأغراض الإبلاغية المتوخاة من الخطاب؛ فسلكا منهجا تداوليا -بالمفهوم الحديث دون التصريح بالاسم- خاصة في تحليلهما للظواهر التركيبية كالتقديم و التأخير و الإثبات و النفي...و غيرها من الأغراض و الغايات التواصلية التي يسعى المتكلم إلى تحقيقها، و أما بلغة العصر فهي أفعال كلامية طالما أنه يراد بها تخصيص الخطاب أو الحرص على تضمين الخطاب فائدة تواصلية معينة، أو تنبيه المخاطب، أو تأكيد رسالة إبلاغية له، أو ندائه، أو إغرائه أو تحذيره أو توبيخه،... و مما يؤكد اهتمام النحاة بالبعد التداولي للظاهرة اللغوية إشارة بعضهم إلى المعاني

[1]- باديس لهويمل: التداولية و البلاغة العربية، مجلة المخبر، العدد7، جامعة محمد خيضر، بسكرة-الجزائر، 2001. ص165.

و الأغراض العميقة الكامنة وراء الألفاظ و المباني، و من ذلك إشارة (سيبويه) إلى أن القسم لا يعدو أن يكون تأكيدا للكلام، و أن للاستفهام عدة وظائف تواصلية منها التنبيه.

كما يحظى طرفا الخطاب المخاطِب و المخاطَب باهتمام بالغ في تحليلات العلماء العرب القدامى، و يتمثل اهتمامهم بالمتكلم في العناية بغرضه و قصده من الكلام، أما اهتمامهم بالمخاطَب فيتمثل في الاحتفاء بالإفادة، و هي الفائدة التي يجنيها السامع من الخطاب.

و انطلاقا من قول (محمد مفتاح): "كلما راعى منتج الخطاب مقامات الخطاب كان أقرب إلى الإقناع و الإمتاع"[1]، و لأن التداولية تعنى بدراسة اللغة في الاستعمال و التواصل و علاقتها بالسياق، فقد أردت أن يكون الحديث عن التداولية مردوفا بالحديث عن السياق بأنواعه و دوره في عملية الفهم.

5/ مفهوم السياق:

تعدّ الكلمة موروثا رشيق الحركة من نص إلى آخر، فهي تقبل تغيير هويتها و وجهتها حسب ما هي فيه من سياق[2]، و ربّما هذا ما دفع "جون ليونز"(John Lyons) إلى القول: "أعطني السياق الذي وردت فيه هذه الكلمة و سأخبرك عن معناها"[3]، إذن فالكلمة يتحدّد معناها من خلال السياق الذي ترد فيه، حيث إنّ للكلمة عدّة استعمالات سياقية و كلّ سياق يظهر أو يحدّد أحد هذه المعاني أو وجها منها، وكما يقول الفيلسوف الألماني "فتجنشتين" (Wittgenstein):"لا تسأل عن المعنى ولكن سل عن الاستعمال "[4]؛ ويذهب (مارتيني) أبعد من ذلك ورأى أنّه "خارج السياق لا تتوفّر الكلمة على المعنى" [5].

---

[1]– محمد مفتاح: بعض خصائص الخطاب، علامات، ج35، مج9، 2000. ص30.

[2] – عبد الله الغذامي: الخطيئة و التكفير (من البنيوية إلى التشريحية)، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998. ص328.

[3] –John Lyons : linguistique générale « introduction a la linguistique », tr: F.Dubois-Charlier et David Robinson, librairie Larousse, Paris,1970. P 314 .

[4] – محمد محمد داود: العربية و علم اللغة الحديث، دار غريب للطباعة، القاهرة، 2001. ص 197.

[5] – عبد الجليل منقور: علم الدلالة "أصوله و مباحثه في التراث العربي " اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001. ص88.

كما اهتدى علماء العربية في وقت مبكر من تاريخ العلوم اللغوية والبلاغية إلى ما يحفّ بظاهرة الكلام من الملابسات، كالسامع والمقام وظروف المقال وكلّ ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية من روابط، والأمثلة كثيرة على أصالة هذا المبدأ الفني في التراث البلاغي العربي؛ فقد تحدث علماء القرآن عن أسباب النزول وأفردوه بالتأليف، وتحدّث علماء الحديث عن أسباب الورود كما تحدّث الأدباء والنقاد عن أسباب وظروف الإنشاد.. و من ذلك ما أورده الجاحظ في كتابه من أجوبة فيها توجيه لما نحن فيه، فمما نقله عن بعض أهل الهند قولهم: "جماع البلاغة التماس حسن الموقع والمعرفة بساعات القول، و قلّة الخَرَقِ [الحيرة و الدهشة] بما التبس من المعاني أو غمض، و بما شرد عليك من اللفظ أو تعذّر"[1]؛ وأنّ "مدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم"[2]. كما فطن المفسرون إلى الفرق بين ظاهر القرآن وباطنه، فكان فهمهم لهذا الفرق تفريقا منهم بين المعنى المقالي والمعنى المقامي.

أمّا النحاة فقد اعتنوا بدورهم بالمقام الذي تتشكل فيه العناصر اللغوية، مشيرين بذلك إلى تأثير دلالة سياق النص اللغوي وسياق الموقف الملابس له على العناصر النحوية من حيث الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف و التنكير وغير ذلك مما درسه ما يعرف بعلم المعاني إذ يدرس أحوال الإسناد الخبري وأحوال المسند إليه وأحوال المسند وأحوال متعلقات الفعل.

و تعدّ نظرية النظم عند "عبد القاهر الجرجاني" خير شاهد على معرفتهم بالسياق اللغوي حيث يقول: "اعلم أنّ ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه و أصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها"[3].

فنلاحظ هنا مدى الاهتمام بصحّة الكلام، و صحّة الكلام مرتبطة بصحّة المعاني الناتجة عن فكرة الموقعية، فهذا سياق لغوي.

[1]– الجاحظ: البيان و التبيين، ت: عبد السلام محمد هارون، ج1، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998. ص88.

[2] – المرجع نفسه. ص93.

[3] – عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ت: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية للطباعة و النشر، بيروت، 2002. ص128.

إنّ أبرز الملامح في النظر البلاغي عند العرب قام على اشتراط (موافقة الكلام لمقتضى الحال)، و الأخذ بالمقولة السائدة (لكلّ مقام مقال)، ورصد على وجه التفصيل ما يكون من تأثير السياق، سياق الحال خاصة، وهي حال المتكلم والمخاطب وسائر ما يأتلف منه المقام ورصد ما يكون من تأثير ذلك في تشكيل الكلام وتأليفه على هيئات في القول تتنوع وفقا لتنوع المقامات.

لكن ما المقصود بمقتضى الحال عند البلاغيين؟

يقدّم (محمد عبد المطلب) جوابا عن هذا التساؤل قائلا: "المقصود به: الاعتبار المناسب للحال الذي يستدعي بالضرورة بناء لغويا معينا، فكلّ اعتبار له ناتج صياغي يتوافق معه." [1]

فمطابقة الكلام لمقتضى الحال هو أساس البلاغة كلّها، وهو الذي يجب مراعاته في الكلام حتى يصبح بليغا يتعدى مرحلة الإفهام. وبهذا يكون "اللغويون العرب عند اعترافهم بفكرة (المقام) متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم، لأنّ الاعتراف بفكرتي (المقام) و (المقال) باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة"[2]، حيث تزعّم " فيرث " (Firth) فكرة السياق و أصّل دراسة المعنى من خلال إطار منهجي معتمدا على تفكير علماء الأنثروبولوجيا خاصة "مالينوفسكي" (B.Malinowski) الذي طوّر نظريته لسياق الحال (context of situation) والتي على أساسها ترجع معاني الكلمات إلى وظائفها المختلفة في سياق الحال الخاص الذي يستعمل فيه[3].

والعلاقة بين المقام و المقال تسير في اتجاهين على نحو مستمر، فكما أنّ المقال دليل على المقام فكذلك نجد المعرفة بالمقام جوهرية في فهم المقال، وتظل العلاقة الجدلية قائمة بينهما طوال عملية الممارسة اللغوية؛ فكلّ من المقام والمقال متمّم للآخر، وكلّ منهما يفترض الآخر مسبقا، وتعتبر

[1] – محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1997. ص 70.

[2] – تمام حسان: اللغة العربية معناها و مبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2001. ص337.

[3] – كمال حملاوي: خطب الحجاج بن يوسف الثقفي–دراسة لسانية نصية– مذكرة ماجستير، المركز الجامعي سوق أهراس، 2007–2008، ص67.

النصوص مكونات للسياقات التي تظهر فيها، أمّا السياقات فيتم تكوينها وتحويلها وتعديلها بشكل دائم بواسطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون و الكتّاب في مواقف معينة.

ولهذا أصبح لزاما على الكاتب أو القارئ –عندما يتعلق الأمر بالنصوص المدونة التي فقدت عنصر المقام الاجتماعي فخفي علينا من ظروف قولها أشياء كثيرة – أن يعيد تكوين هذا المقام بتصور ما يمكن تصوره من أحداث بغية الوصول إلى أكبر قدر ممكن من المعاني.

غير أنّ البعض يرى أنّ هناك فروقا بين ما كان يقصده البلاغيون العرب بـ(المقام) و ما يقصده التداوليون في البحث اللغوي الحديث بـ(السياق)، و هذا ما يبديه (تمام حسان) إذ يرى "أنّ الفيصل في ذلك الاختلاف بين مفهومي المقام و السياق، هو معرفة ما تنطوي عليه الثقافة، ففيها يرتبط كثير من المواقف بالاستعمال اللغوي، مما يحدّ من إخضاع المقام للمعيارية التي تلتصق بتعريفات البلاغيين العرب"[1].

و يَعُدّ (تمام حسان) فَهمَ البلاغيين للمقام أو مقتضى الحال، يعدُّه فهما سكونيا قالبيا نمطيا مجردا، و أمّا المقامات التي يتحدثون عنها بقولهم "لكل مقام مقال" ما هي إلاّ نماذج مجردة و أطر عامة و أحوال ساكنة، ثم يصوغ تعريفا للمقام بقوله: "فالذي أقصده بالمقام ليس إطارا و لا قالبا، و إنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءا منه، كما يعتبر السامع و الكلام نفسه، و غير ذلك مما له اتصال بالتكلم، و ذلك أمر يتخطى مجرّد التفكير في موقف نموذجي ليشمل كلّ عملية الاتصال..."[2].

أمّا (محمد عبد المطلب) فيرى "أنّ البلاغيين لم يحصروا المقام في الإطار الخارجي المصاحب، بل إنّهم تحركوا به إلى داخل التركيب عن طريق مقولتهم الدقيقة: إنّ (لكل كلمة مع صاحبتها مقام) و هذه المقولة تجعل المقام الداخلي كائنا متحركا، لا يعرف الثبات الذي كان له في الحالة الأولى المصاحبة، ذلك أنّ احتمالات التوالد التركيبي غير نهائية، و كل احتمال يخلق مقامه الذي يربط بين

[1] – عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب. ص41.

[2] – المرجع نفسه. ص41.

الكلمتين عن طريق التجاور، و كلّ تغيير في علاقة المجاورة يصاحبه تغيّر في المقام، فحضور المقام حضور وهمي يتدخّل في خفاءِ حال التركيب ليمارس فاعليته في إنتاج المعنى..."[1].

يدلّ هذا دلالة واضحة على أنّ "مقامات الكلام متفاوتة فمقام التشكر يباين مقام الشكاية ومقام التهنئة يباين مقام التعزية و مقام المدح يباين مقام الذم و مقام الترغيب يباين مقام الترهيب ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يباين مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر"[2]؛وعلى العموم فإنّه يمكننا القول إنّ مصطلح السياق/المقام يطلق على مفهومين: سياق/مقام لغوي و آخر غير لغوي.

6/ أنواع السياق:

1.6 / السياق اللغوي: (Contexte Verbale)

يعرّف "محمد علي الخولي" السياق اللغوي بأنّه "البيئة اللغوية التي تحيط بصوت أو فونيم أو مورفيم أو كلمة أو عبارة أو جملة "[3]. أي أنّ السياق بهذا المفهوم "تجسيد لتلك التتابعات اللغوية في شكل الخطاب، من وحدات صوتية و صرفية و معجمية، و ما بينها من ترتيب و علاقات تركيبية"[4].

بعبارة أخرى، يتحدّد معنى الكلمة في السياق اللغوي من خلال علاقاتها مع الكلمات الأخرى في النّظم.. و كمثال على ذلك نأخذ الفرق من الناحية البيانية في استخدام لفظة (إنّا رسول، إنّا رسولا، إنّي رسول) في قصة موسى وهارون-عليهما السلام- :

[1] – محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى. ص71.

[2] – أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت. ص73.

[3]– لحسن توبي: التعريف المصطلحاتي في بعض المعاجم العربية. www.arabization.org.ma

[4] – عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب. ص40.

مِثْل هذا التعبير ورد في ثلاث مواقع في القرآن الكريم: قال تعالى في سورة طه: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47)﴾ وفي سورة الشعراء ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16)﴾ وفي سورة الزخرف قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46)﴾.

المسألة تتعلق بالسياق ففي سورة طه السياق كلّه مبني على التثنية من قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42)﴾ إلى قوله: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47)﴾ ، وقوله:﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63)﴾، أمّا في سورة الشعراء فالسياق كلّه مبني على الإفراد والوحدة من قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18)﴾، مع العلم أنّ أوائل السورة فيها تثنية من قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (15)﴾ إلى قوله: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16)﴾، ثم يُغيّب هارون وتعود إلى الوحدة ويستمر النقاش مع موسى وحده ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27)﴾ ثم يوجّه فرعون الكلام إلى موسى مهدداً إياه وحده ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29)﴾ ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30)﴾ ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34)﴾"[1].

لقد اختار عزّ و جل الكلمة المناسبة في السياق المناسب، فالسياق في سورة (طه) قائم على التثنية والسياق في سورة (الشعراء) قائم على الجانبين إفراد ثم تثنية ثم إفراد، و(موسى)–عليه السلام– هو الذي بلّغ الرسالة؛ أمّا في سورة (الزخرف) فلم يأت ذكر هارون في سياق السورة كلّها أصلاً فقال تعالى ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ العَالَمِين﴾. وهذه الآيات الثلاثة لا تعارض فيها، وإنّما هي لقصة واحدة، ذهب موسى وأخاه هارون–عليهما السلام– إلى فرعون وفي كل سورة جاء بجزء من القصة بما يقتضيه السياق في السورة؛ وهذه اللقطات إنّما هي مشاهد متعددة يُعبّر عن كل مشهد حسب السياق وليس

[1] – فاضل صالح السمرائي: لمسات بيانية في القرآن الكريم. www.islamiyyat.com

في الآيات الثلاثة ما يخالف العربية؛ كما تجدر الإشارة إلى أنّ كلمة (رسول) في اللغة تُطلق على الواحد المفرد وعلى الجمع.

ومن السياق اللغوي ما يسمّى "المصاحبات اللفظية " أو" التلازم اللفظي " (Collocation) ويعرّفه (فيرث) بأنّه: "الارتباط الاعتيادي بكلمة ما في لغة ما، بكلمات أخرى معينة" أو "استعمال وحدتين معجميتين منفصلتين، يأتي استعمالهما عادة مرتبطتين الواحدة بالأخرى" [1].

ومن أمثلة ذلك كلمة "مجلس": مجلس العلم، مجلس الكلية، مجلس الجامعة، مجلس التأديب، مجلس الشعب، مجلس الأمن،...إلخ؛ و هو ما يدلّ على أهميّة السياق اللغوي ودوره في تحديد المعنى و فهمه.

2.6 / السياق غير اللغوي:

وهو يمثّل الظروف و الملابسات و المواقف التي تمّ فيها الحدث اللغوي و تتّصل به، وهو ما أطلق عليه البعض: "المسرح اللغوي"[2]، ويسمّيه (فيرث): "سياق الحال" ويعرّفه بأنّه "جملة العناصر المكوّنة للموقف الكلامي، ومن هذه العناصر شخصية المتكلّم و السامع، و تكوينهما الثقافي، وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلّم و السامع – إن وجدوا – وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي، و العوامل و الظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة و السلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي، وكحالة الجو إن كان لها دخل، والوضع السياسي، وكمكان الكلام"[3].

من خلال التعريف الذي قدّمه (فيرث) نستطيع تقسيم السياق غير اللغوي إلى سياقات متنوعة تتمثل في:

1.2.6/ السياق العاطفي أو الانفعالي: (Contexte Emotionnable)

يرتبط هذا السياق بدرجة قوّة الانفعال المصاحبة للأداء الفعلي للكلام من حيث ما يقتضيه من تأكيد أو مبالغة أو اعتدال، يقول (ستيفان أولمان): "السياق وحده هو الذي يوضّح لنا ما إذا كانت

[1] – محمد محمد داود: العربية و علم اللغة الحديث. ص 198.

[2] – المرجع نفسه. ص 199.

[3] – المرجع نفسه. ص199.

الكلمة ينبغي أن تؤخذ على أنّها تعبير موضوعي صرف أو أنّها قصد بها أساسا التعبير عن العواطف و الانفعالات و إلى إثارة هذه العواطف والانفعالات؛ و يتّضح هذا بخاصة في مجموعة معينة من الكلمات، نحو: "حريّة و عدل" التي قد تشحن في كثير من الأحيان بمضامين عاطفية، بل إنّ بعض الكلمات المستعملة في الحياة اليومية العادية قد تكسب نغمة عاطفية قويّة وغير متوقّعة في المواقف الانفعالية "[1]؛ كما كلمة (يكره) غير كلمة (يبغض) رغم اشتراكهما في أصل المعنى و هو (الكره).

2.2.6/ سياق الموقف (Contexte Situationnel):

وهو الإطار أو (الموقف) الخارجي الذي يقع فيه الكلام، فالجملة الآتية (تلك الطاولة كثيرة الضحك) إن وردت وحدها معزولة عن أي سياق فلن يكون لها أيّ معنى، و سيرفضها السامع فورا، مع أنّها من الناحية النحوية الخالصة صحيحة جدا، لكن سبب رفضنا لها نابع من كوننا نعرض هذه الجملة على مجموعة من المعطيات المنطقية التي تجعل من هذا التركيب تركيبا مرفوضا من حيث المعنى، أمّا إذا كنا نجلس –مثلا– في مطعم و كان الجالسون حول إحدى الطاولات يضحكون و يصخبون، ثم لفظ أحدنا هذه الجملة مشيرا إلى ما يفعله الجالسون هناك، فإنّ المعنى يكون مفهوما جدا و مقبولا، و بناء عليه فإنّ سياق الموقف يجعل من التركيب غير ذي معنى تركيبا ذا معنى؛ و من ثمّ رأى البعض أنّ "السياق الخارجي بما في ذلك سياق عصر النص و ظروف الكتابة ثمّ أخيرا سياق عصر القراءة له دور أساسي في مسار و كيفية تأويل النصوص"[2].

3.2.6 السياق الثقافي (Contexte culturel):

يقتضي السياق الثقافي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة، فكلّ لغة تضم ألفاظا و عبارات يمتنع ترجمتها إلى غيرها من اللغات لأنّها تمثّل خصوصية لمجتمع معيّن وترتبط به في كلّ نواحي الحياة المادية و المعنوية؛ و كمثال على ذلك نأخذ الأمثال العربية التالية:

[1] – أحمد حساني: مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ت. ص 156.

[2] – حميد لحميداني: القراءة و توليد الدلالة (تغيير عادتنا في قراءة النص الأدبي)، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2003. ص88.

"كلّ الصيد في جوف الفرا"، "عند جهينة الخبر اليقين"، "دقوا بينهم عطر منشم"...[1]، فهذه الأمثال و أشباهها لا يمكن فهمها أو ترجمتها إلاّ بعد الرجوع إلى ثقافة هذا المجتمع.

لقد اتّضح من خلال ما سبق اعتماد النص والسياق أحدهما على الآخر وكيف أنّ للسياق علاقة مباشرة بتفسير الوحدات الكلامية على مستويات مختلفة ومتعددة، "فمعنى الكلام لا يتأتى فصله بأية حال من الأحوال عن السياق الذي يعرض فيه" [2]؛ بل إنّ السياق "هو الرصيد الحضاري للقول و هو مادة تغذيته بوقود حياته و بقائه و لا تكون الرسالة بذات وظيفة إلاّ إذا أسعفها السياق بأسباب ذلك و وسائله...و لكلّ نص أدبي سياق يحتويه، و يشكّل له حالة انتماء و حالة إدراك"[3].

[1] – شرف الدين علي الراجحي: في علم اللغة عند العرب ورأى علم اللغة الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002. ص137.

[2] – محمود السعران: علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، دار الفكر لعربي، القاهرة، د.ت. ص290.

[3] – عبد الله الغذامي: الخطيئة و التكفير(من البنيوية إلى التشريحية). ص10.

الفصل الثالث

المبحث الأول: الإشاريات و الأفعال الكلامية في مقالات فصل الدين عن الحكومة

المبحث الثاني: المعاني الحرفية و المعاني السياقية في مقالات فصل الدين عن الحكومة

المبحث الأول

الإشاريات و الأفعال الكلامية في مقالات

فصل الدين عن الحكومة

أولا: الإشاريات:

الإشاريات في المقالة الأولى:

يقوق الكاتب: "ما زالت هذه الحكومة تمزج الصلف بالتصلّب، و التردّد بالتّقلّب، و تخلط الممانعة بالمدافعة، و تؤيّد التحيّل بالتخيّل، و تكمل الإصرار على الباطل بالعناد فيه، في قضية حقّنا فيها أوضح من الشمس، و باطلها فيها أعرق من الإدبار من أمس.

و ما تزال تهيم في أودية من الضلال، و تتصامّ عن الأصوات المتعالية من أصحاب الحق، بطلب الحق، و تتعامى عن الحقائق التي بيّناها لها، و عن النذر التي جلتها عليها الأيام، و تحن إلى تقاليدها الاستعمارية البالية في التسلّط على ضمائر المستضعفين و معنوياتهم لتفسدها عليهم، فهي تظهر في كلّ يوم بجديد، في مسألة لا قديم لها فيها و لا جديد."[1]

و في موضع آخر من المقالة نفسها يقول الكاتب:"كأنّي بهذه الحكومة اللايكية المسيحية – معا– الديمقراطية الديكتاتورية –معا– ترمي ببصرها إلى ما وراء حدود الجزائر من الأقطار الإسلامية الحرة في ديانتها، المدبرة لشؤونها الدينية بنفسها و بحكومتها، فترى أن حكومات تلك الأقطار هي القائمة على شؤون الدين و المسيّرة لنظمه، فتجعل البابين بابا واحدا، و تقول هذا من باب ذاك...هنّ حكومات، و أنا حكومة، و هنّ يتصرّفن في الدين، فأنا أتصرّف في الدين...فتقيس مع الفارق، و تقف على "ويل للمصلّين"...و يغيب عليها في هذا البُحران أن تلك الحكومات إسلامية، فهي تمارس شؤون الدين، بحكم الدين، و تجري هي تصرفاتها فيها و تسييرها لها على أحكام الدين، و ترجع في ما يشكل عليها إلى رجال الدين، و هم –بالطبع– ليسوا كعلماء دين الكومة الجزائرية...

علمنا هذا مما علمناه من أعمال الحكومة، و بلوناه من سرائرها، و جلوناه من جرائرها، و استنبطناه من تمسّكها الشديد، و تشدّدها الأعمى، و حيرتها و اضطرابها في هذه القضية، ثم مما قرأناه في السطور (و بين السطور) في تقريرها الذي وسمته بالتقرير العاصمي."[2]

[1]– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997. ص100.

[2]– المصدر نفسه. ص100-101.

أ/الإشاريات الاجتماعية:

في قوله: "هذه الحكومة"، فهذه العبارة تشير إلى نوع العلاقة بين المتكلّم و الحكومة ذلك أنّه لم يقل مثلا (حكومتنا) و إنما أشار إليها بقوله (هذه الحكومة) للدلالة على الانفصال الحاصل بينها و بينه، و إن كان اسم الإشارة (هذه) يشير إلى القريب، لكنّه في هذه العبارة أشار إلى قريب من حيث المحل فقط، و لكنّه بعيد عن القلب، و يؤيد ذلك إشارته إلى تلك الحكومة بضمير المؤنث الغائب، فهي ما زالت (تمزج الصلف بالتصلّب، و التردّد بالتّقلّب، و تخلط الممانعة بالمدافعة، و تؤيّد التحيّل بالتخيّل، و تكمل الإصرار على الباطل بالعناد فيه).

ب/ الإشاريات الخطابية:

حيث يتحدث الكاتب عن قضيته و قضية شعبه فيقول:(حقّنا فيها أوضح من الشمس، و باطلها فيها أعرق من الإدبار من أمس)، فأشار إلى نفسه و شعبه بالضمير (نا)، كما أشار إلى القضية التي يطالب بها باسم شعبه بالضمير (الهاء) في قوله: (حقّنا فيها...و باطلها)، و من ثمّ دلّت هذه الإشاريات على موقف خاص بالمتكلّم المتمسّك بالمطالبة بحقوقه.

ج/ الإشاريات الزمنية و المكانية:

في إشارته إلى الزمن قال الكاتب في موضعين من هذه الفقرة (ما زالت هذه الحكومة....و ما تزال تهيم...)، و في ذلك دلالة على استمرار الفعل في الزمن الحاضر أو زمن كتابة الإبراهيمي لهذه المقالات، بالإضافة إلى ذلك نجد إشارة أخرى إلى الزمن في قوله: (فهي تظهر في **كلّ يوم** بجديد...).و في الفقرة الأخرى نجد قوله (ترمي ببصرها إلى ما **وراء** حدود الجزائر)، حيث استعمل ظرف المكان (وراء) للدلالة على مكان الرمي ببصرها.

د/ الإشاريات الشخصية:

أدت الإشاريات الشخصية دورا كبيرا في انسجام الخطاب و اتساقه، و كمثال على ذلك نأخذ قول الكاتب في الفقرة السابقة: (و تتعامى عن الحقائق التي بيّناها لها، و عن النذر التي جلتها عليها الأيام، و تحن إلى تقاليدها الاستعمارية البالية في التسلّط على ضمائر المستضعفين

و معنوياتهم لتفسدها عليهم، فهي تظهر في كلّ يوم بجديد، في مسألة لا قديم لها فيها و لا جديد)، حيث وردت هذه الإشاريات كالآتي:

- بيّناها لها: النون (نا) في (بيّناها) تشير إلى الكاتب و الشعب.

الهاء (ها) في (بيّناها) تشير إلى الحقائق

الهاء (ها) في (لها) تشير إلى الحكومة.

- جلتها عليها: الهاء (ها) في (جلتها) تشير إلى النذر

الهاء (ها) في (عليها) تشير إلى الحكومة

- تقاليدها: الهاء (ها) تشير إلى الحكومة.

- معنوياتهم: الضمير (هم) يشير إلى المستضعفين.

- لتفسدها عليهم: الهاء (ها) في (تفسدها) تشير إلى الحكومة.

الضمير (هم) في (عليهم) يشير إلى المستضعفين.

- فهي تظهر: الضمير (هي) يشير إلى الحكومة.

- لا قديم لها فيها و لا جديد: الهاء (ها) في (لها) تشير إلى الحكومة.

الهاء (ها) في (فيها) تشير إلى المسألة.

أما في الموضع الآخر من المقالة نفسها نجد قول الكاتب (كأنّي): حيث أشارت (النون) إلى المتكلّم (الكاتب)، كذلك في قوله (ببصرها) حيث أشارت الهاء (ها) إلى الحكومة اللائكية؛ في حين أشارت الهاء (ها) في قوله (ديانتها، لشؤونها، بنفسها، و بحكوماتها) إلى الأقطار الإسلامية، و قد أشارت الضمائر في الأمثلة السابقة إلى سوابق، كما نجد إشاريات إلى لواحق في قوله مثلا (تلك الأقطار)، و قوله أيضا (هنّ حكومات، و أنا حكومة)، فالضميران المنفصلان (هنّ، أنا) أشارا إلى لواحق جاءت بعدهما و هي (حكومات، و حكومة)، ثم يشير الضميران إلى سوابق في قوله (هنّ يتصرّفن في الدين، فأنا أتصرّف في الدين)؛ و في موضع آخر يقول الكاتب (و يغيب عليها في هذا البحران أن تلك الحكومات إسلامية) حيث دلّت الضمائر هنا على ما يأتي:

عليها: الهاء (ها) تشير إلى الحكومة اللائكية المسيحية

هذا البحران: اسم الإشارة (هذا) أشار إلى لاحق و هو (البُحران)

تلك الحكومات: اسم الإشارة (تلك) أشار إلى لاحق أيضا و هو (الحكومات).

ثم يقول: (فهي تمارس): ضمير المؤنث الغائب (هي) يشير إلى (الحكومات الإسلامية)، و (تجري هي تصرفاتها): فالضميران (هي) و الهاء (ها) يشيران إلى (الحكومة اللائكية المسيحية)، أما الهاء (ها) في (فيها) و (لها) فتشير إلى (شؤونها الدينية)، كما أشارت الهاء (ها) في (عليها) إلى (الحكومة اللائكية المسيحية)، و أشار الضمير (هم) إلى (رجال الدين التابعين للحكومة اللائكية المسيحية).

كما استعمل الكاتب الإشاريات في الإحالة إلى كلام محذوف دلّ عليه السياق من ذلك قوله (علمنا هذا مما علمناه من أعمال الحكومة)، فقد أشار اسم الإشارة (هذا) إلى (العمل) الذي قامت به الحكومة اللائكية المسيحية، و هو التصرف في شؤون الدين، ثم يستمر الكاتب في الإشارة إلى ذلك العمل و عامله بضمير الغائب (الهاء) في قوله (و بلوناه من سرائرها، و جلوناه من جرائرها، و استنبطناه من تمسّكها الشديد، و تشدّدها الأعمى، و حيرتها و اضطرابها في هذه القضية، ثم مما قرأناه في السطور (و بين السطور) في تقريرها الذي وسمته بالتقرير العاصمي).

الإشاريات في المقالة الثانية:

يقول الكاتب: "الاستعمار كلّه رجس من عمل الشيطان، يلتقي القائمون به على سجايا خبيثة، و غرائز شرهة، و نظرات عميقة إلى وسائل الافتراس، و إخضاع الفرائس، و أهمّ تلك الوسائل قتل المعنويات و تخدير الإحساسات الروحية، و لكن هناك تفاوتا بين استعمار و استعمار، فاستعمار يباشر وسائله بالحقد و يشربها معاني من الانتقام، و آخر يباشرها بنوع من التسامح و اللين؛ و الاستعمار الفرنسي من النوع الأول، و بين النوعين فرق، و إن كانا بغيضين ممقوتين، لأنهما استغلال للأموال، و استعباد للأجساد، و يزيد أحدهما بأن فيه ترويحا على الأرواح، و لولا ما بلوناه من شرّ الاستعمار الفرنسي على ديننا و لغتنا، و ما تجرعناه في سبيل إحيائهما من غصص،

و ما كابدنا في إنقاذهما منه من بلاء، لما ذكرنا الاستعمار بخير، و لما أجريناه على ألسنتنا إلا مقرونا باللعنة مصحوبا بالسخط، و لكن في الشر خيارا لا يقدره إلا المبتلى بالأشد من أنواعه.

ساء مثلا الاستعماران: ما يُقعد منهما الروحانيات المقعد الخشن، و ما يُقعد المقعد الوطيء، و ما يتعمدها بالقتل الوحيّ، و ما يبتليها بالموت البطيء؛ و سيسوآن —و إن طال أمدهما– مصيرا، و سيخذلهما القاهر الذي يُمهل و لا يهمل، و لا يجدان من دونه وليًّا و لا نصيرا"[1].

أ/الإشاريات الشخصية:

كثرت الإشاريات الشخصية في هذه الفقرة حيث وردت كالآتي:

- (كله، به، وسائله، منه من بلاء، أجريناه) : (الهاء) تشير في جميع الكلمات إلى الاستعمار.
- (تلك الوسائل): اسم الإشارة (تلك) يشير إلى لاحق و هي الوسائل.
- (يشربها، يباشرها): تشير (الهاء) في الكلمتين إلى الوسائل.
- (لأنهما، أحدهما): الضمير (هما) يشير إلى الاستعماران.
- (بلوناه، تجرعناه): تشير (الهاء) في الكلمتين إلى شرّ الاستعمار.
- (في سبيل إحيائهما و ما كابدنا في إنقاذهما): الضمير (هما) يشير إلى ديننا و لغتنا.
- (لا يقدره قدره، بالأشد من أنواعه): (الهاء) تشير إلى الشرّ.
- (ما يقعد منهما، و سيسوآن و إن طال أمدهما، و سيخذلهما): الضمير (هما) يشير إلى الاستعماران.
- (و ما يقعدها، و ما يتعمدها، و ما يبتليها): (الهاء) تشير إلى الروحانيات.
- (من دونه): (الهاء) تشير إلى القاهر.

و في فقرة أخرى يقول: "ثم ما بالها خالفت نفسها، و ناقضت مبدأها؟ فهي في فرنسا تدين باللائكية و حرية الأديان، ينصّ على ذلك دستورها، و يجري عليه تعليمها، و تتأثّر به أمّتها، و هي

[1]- المصدر السابق. ص105.

في الجزائر (تتمسّك) بالإسلام هذا التمسّك، و تتشدّد في (القيام) به هذا التشدّد، و تتعنّت في الانفصال عنه هذا التعنّت"[1].

-(ما بالها خالفت نفسها، و ناقضت مبدأها؟ فهي...): (هاء الغائب)، (و تاء التأنيث)، و الضمير المنفصل المؤنث الغائب (هي)، جميع هذه الضمائر تشير إلى فرنسا.

- (ينصّ على ذلك دستورها): فاسم الإشارة (ذلك) يشير إلى حرية الأديان، أما (الهاء) فتشير إلى فرنسا.

- (و يجري عليه تعليمها، و تتأثّر به أمّتها): الضمير المتصل (الهاء) في (عليه، به) يشير إلى الدستور الفرنسي، و (الهاء) في (تعليمها، أمتها) يشير إلى فرنسا.

- (و هي في الجزائر، "تتمسّك" بالإسلام هذا التمسّك، و تتشدّد في "القيام" به هذا التشدّد، و تتعنّت في الانفصال عنه هذا التعنّت): الضمير المنفصل (هي) يشير إلى فرنسا، أما (الهاء) في (عنه) فتشير إلى الإسلام.

ب/الإشاريات الخطابية:

يقول الإبراهيمي في الفقرة الأولى (و لكن هناك تفاوتا..) حيث أشار الكاتب من خلال اسم الإشارة (هناك) إلى التفاوت الحاصل بين الاستعمارين، مبيّنا موقفه من كليهما. كما استعمل بعض الإشاريات الخطابية في الفقرة الثانية مستخدما اسم الإشارة (هذا) في الإحالة إلى موقفه من التمسّك الفرنسي بالإسلام و تشدّدها في القيام به و تعنّتها في الانفصال عنه.

و في فقرة أخرى يعبّر الكاتب عن موقفه تجاه الاستعمار الإنجليزي في الهند، مبيّنا أن هذا الأخير احترم حرية الأديان إلى حد المبالغة، مستخدما في ذلك الإشاريات الخطابية حيث يقول: "قرأنا سير الإنكليز في الهند فوجدناهم بالغوا في إعطاء الحرية للأديان حتى بلغوا حد السخافة، و سوّوا في تلك الحرية بين (قرّاء البقرة) بالحق، و بين (عباد البقرة) بالباطل، و يسّروا سبيل الحج

[1]- المصدر السابق. ص103.

حتّى اتّسع معنى الاستطاعة"[1]. فقد استعمل ضمير المتكلم (نا) في الإشارة إلى نفسه، و اسم الإشارة (تلك) في الإشارة إلى الحرية، متحدثا عن الإنجليز مبينا موقفه منهم، فالضمير (هم) في (وجدناهم)يشير إلى الإنجليز الذين (بالغوا، بلغوا، سوّوا، يسّروا). فموقفه من مسألة (الحرية) قد اتضح اعتمادا على الإشاريات الخطابية دون اللجوء في كلّ مرة إلى ذكر الأسماء، فالاستعمار الإنجليزي (المحترَم) –رغم كونه مستعمرا– أفضل بكثير من الاستعمار الفرنسي الغاشم خاصة فيما تعلّق باحترام حرية الأديان لدى الشعوب المستعمرَة. و لا يقتصر الكاتب على الإشارة إلى الاستعمار الإنجليزي بل يتعداه إلى غيره من الدويلات الاستعمارية فيقول: "و قرأنا عن تلك الدويلات الاستعمارية —و شهدنا– أنّها تحترم الأديان الموجودة في مستعمراتها حتّى الوثني منها، و المضادة لحضارة الإنسان، و الواقف في طريق الرقي العقلي. و لو أنّها خصّت الوثني منها بالاحترام و الحرية لقلنا: إنها مكيدة تجعل بها حرية الدين وسيلة لاستعباد المتدينين به. و لكنها أرخت عنان الحرية للإسلام الذي هو أعظم خصوم الاستعمار، و أقوى عامل للتخلّص منه"[2]؛حيث استخدم اسم الإشارة (تلك) كإحالة إلى لاحق (الدويلات الاستعمارية)، بالإضافة إلى الضمير (الهاء) في الكلمات الآتية: (أنّها، مستعمراتها، و لكنّها)، ليَبرُز موقفه من تلك الدويلات كموقفه من الاستعمار الإنجليزي، بل أكثر احتراما لها، ذلك أنّها احترمت حتى الوثني من الأديان، و التي هي –في نظر الكاتب — مضادة لحضارة الإنسان، و واقفة في طريق الرقي العقلي.

أما فرنسا فقد أشار إلى طبيعة استعمارها باسم الإشارة (ذلك) في قوله: "سلّمنا أن فرنسا دولة مستعمرة و أنّها من ذلك الطراز الاستعماري اللاتيني الأزرق"[3].

ج/الإشاريات الزمانية و المكانية:

لم يستعن بالإشاريات الزمانية كثيرا إلا ما ذكر في بعض المواضع من ذلك قوله مثلا: "و أنّها السابقة إلى نبذ الأديان... و أنّها شيخة مصطفى كامل في الأولين و مصطفى كمال في الآخرين...

[1]– المصدر السابق. ص104.

[2]– المصدر نفسه. ص104.

[3]– المصدر نفسه. ص103.

و هي ترى أنّ إعطاء الحرية للإسلام جلب للهناء و السعادة و حسن العشرة و لو إلى حين... و إن طال أمدها"، فالإشاريات الزمنية في هذه الأسطر المتفرقة من المقالة كانت كالآتي: (السابقة، الأولين، الآخرين، إلى حين، أمدها). كما تنوعت الأفعال التي تشير إلى الأزمنة في هذه المقالة منها مثلا :"ما زال يتخذ من أعماله في الجزائر –على شناعتها– نموذجا يحتذيه..." حيث دلّ الفعل الماضي الناقص (ما زال) على استمرارية الأعمال الاستعمارية الشنعاء لفرنسا في الجزائر حتى زمن كتابة المقالات، و قوله أيضا:" و سيسوآن –و إن طال أمدهما– مصيرا، و سيخذلهما القاهر الذي يمهل و لا يهمل"، حيث اقترنت السين بالفعلين المضارعين (يسوآن، يخذلهما) فدّلت على مصير الاستعماران و ما سيحلّ بهما في المستقبل القريب.

أما الإشاريات المكانية، فقليلة الورود أيضا، إلا ما ظهر منها في مواضع متفرقة من المقالة منها قوله: "و أنّها واضعة نظام اللائكية التي معناها وضع سور بين الحكومات و بين الأديان كيفما كان نوعها... و أنّها الأستاذة الكبرى لكلّ من سلك هذا السبيل و تأسّى بهذه الشرعة... رمت ببصرها إلى ما وراء الحدود الجزائرية... فالإسلام في القطرين حرّ..."؛ حيث استعمل الظرف (بين) للإشارة إلى موضع (سور اللائكية) الذي عادة ما يشيّد بين الحكومات و الأديان، كما استعمل اسمي الإشارة (هذا و هذه) للإشارة إلى الطريق و المذهب اللذان حملت فرنسا لواءهما فأصبحت أستاذة كبرى لكلّ من يسلكهما؛ بل إنّها قد رمت ببصرها إلى (ما وراء) الحدود الجزائرية في إشارة من الكاتب إلى دولتي المغرب و تونس،كما أشار إلى حرية الإسلام في الدولتين مستخدما الحرف (في).

الإشاريات في المقالة الثالثة:

يقول الكاتب :"ألححنا في المطالبة بتحرير المساجد و الأوقاف، و سقنا على ذلك من الحجج ما لا يدحض، و كشفنا عن المستور من مقاصد الحكومة، و قلنا لها (بالقلم و اللسان): إنّ سكوت من قبلنا لا يكون حجة علينا، و إن تخاذل من معنا لا يكون مسوغا لبقاء هذا الوضع الجائر و استمراره؛ بل قلنا لها: إنّها هي السبب الوحيد لهذا التخاذل، و هي التي صيّرت طوائف منا مبطلة تخذل الحق و أهل الحق، و إن بقاء الوظائف الدينية في يدها هو أصل هذا البلاء، و إن هذا البلاء

لا ينقطع حتى ينزع حبل الدين من تلك اليد و يوضع في أيدي أهله. و قلنا لها: إن الواجب المعجل المحتّم، و العمل السديد المنظّم، هو إعلان رئيس الحكومة أمرين متلازمين؛ أولهما تنفيذ قانون الفصل الذي تضمنه الدستور الجزائري الأعرج، و ثانيهما حياد الحكومة التام في تأسيس الجمعيات الدينية التي تنتخب المجلس الإسلامي الأعلى"[1].

و يقول في موضع آخر من هذه المقالة: "و نعتقد أيضا أنّ هذه الحكومة المسيحية مصرّة على باطل أبطلته الأديان و القوانين و المدنيات و العوائد، و أنها عجزت عن دينها المسيحي أن تحرّره من احتكار روما، و عن دين موسى أن تنتزعه من مجامع الأحبار، فجاءت إلى ديننا تتحكّم فيه، و تلصّ أوقافه و تسخر رجاله الضعفاء لمصالحها، و تجعل من معابده ميادين لاحتفالاتها بالنصر و الكسر، و من أئمته ألسنة تجهر بالدعاء لها، و ما دعاء الظالمين إلا في ضلال"[2].

أ/ الإشاريات الشخصية:

كثرت الإشاريات الشخصية في هذه المقالة حيث تجلّت الضمائر التي تشير إلى المتكلّم في النموذجين خاصة منها النون(نا) في قوله :"ألححنا، سقنا، كشفنا، قلنا، قبلنا، علينا، معنا، منّا، نعتقد، ديننا"، أما الهاء (ها) فقد أشارت إلى الحكومة في عدة مواضع منها: (لها، يدها، إنّها، أنّها، دينها، لمصالحها، لاحتفالاتها، لها)، كما أشار إليها بضمير المؤنث الغائب الظاهر بقوله: (هي)بالإضافة إلى اسم الموصول (التي)، أو ضمير المؤنث الغائب المستتر (تحرره، تنتزعه، تتحكّم، تلصّ، تسخّر، تجعل)،و (تاء) التأنيث في قوله: (فجاءت، عجزت)، كما استخدم الكاتب ضمير المذكر الغائب في قوله (هو إعلان رئيس الحكومة أمرين متلازمين)، حيث أشار الضمير (هو) إلى الواجب و العمل. كما نجد أيضا ضمير المثنى الغائب (هما) في (أولهما، ثانيهما) أشار بهما و من خلالهما إلى (الأمرين المتلازمين).

[1]- المصدر السابق. ص107.

[2]- المصدر نفسه. ص106.

ب/ الإشاريات الخطابية:

نلمس في هذين النموذجين العديد من الإشاريات التي تدلّ على مواقف خاصة بالمتكلّم من ذلك استعماله لاسم الإشارة (ذلك) في الإحالة إلى إلحاحه في المطالبة بتحرير المساجد و الأوقاف في قوله (ألححنا في المطالبة بتحرير المساجد و الأوقاف، و سقنا على ذلك من الحجج...)، كما استعمل اسم الإشارة (هذا) في قوله: (لا يكون مسوغا لبقاء هذا الوضع الجائر، و استمراره) حيث أشار إلى الوضع الجائر الذي تعيشه البلاد بسبب سكوت و تخاذل بعض أشباه الرجال. بل إن تكراره لعبارة (قلنا لها) في العديد من المواضع لأدل دليل على تلك المواقف التي عبّر عنها الكاتب. و من العبارات التي تدل على موقفه أيضا قوله: (إنّها هي السبب الوحيد لهذا التخاذل، و هي التي صيّرت طوائف منا مبطلة تخذل الحق و أهل الحق، و إن بقاء الوظائف الدينية في يدها هو أصل هذا البلاء، و إن هذا البلاء لا ينقطع حتى ينزع حبل الدين من تلك اليد و يوضع في أيدي أهله)، حيث استخدم اسم الإشارة (هذا) في التنبيه على التخاذل و البلاء اللذان تسببت فيهما الحكومة. و من الإشاريات الدالة على موقف الكاتب أيضا قوله: (نعتقد أيضا)، حيث أبان على موقفه تجاه الحكومة و إصرارها على الباطل المتمثل في تقييد الحريات الدينية، في حين أنّها عجزت عن تحرير دينها من احتكار الرومان. كما أبان الكاتب عن موقفه تجاه أمته حين تسكت عن المطالبة بحقها بقوله: (و نعتقد أنّ الأمة حين تسكت، أو تقصر، أو تتخاذل في هذه القضية، مجمعة على محرّم، مأخوذة به عند الله)، حيث حرّم سكوتها و تقصيرها و تخاذلها عن المطالبة بحقّها، مبينا حكم من كان الله عزّ و جلّ خصمه يوم القصاص.

ج/ الإشاريات الزمنية و المكانية:

استعمل الكاتب العديد من الإشاريات المكانية في هذين النموذجين خاصة و في المقالة عامة من ذلك قوله: (المساجد، الأوقاف، يدها، أيدي، روما، مجامع الأحبار، معابده). أما الإشاريات الزمنية فتجلت في قوله: (مَن قبلنا) حيث أحالت على الأشخاص الذين سبقوا الكاتب تاريخيا، و قوله أيضا: (من معنا) تشير إلى الأشخاص المعاصرين له؛ و من الإشاريات الزمنية في المقالة عامة

نجد الإشارة إلى شهر رمضان في قوله: (شهر رمضان ظرف زماني للدين)، كما نجد إلى الإشارة إلى يوم القيامة في قوله: (يوم يطالب كلّ ذي حقّ بحقّه..)؛ و من الإشاريات الزمنية نجد أيضا قوله: (و قد رصدت قبل ذلك لكل مطلق في قوانينها قيودا و سلاسل و أغلالا..) حيث أشار إلى ما تقوم به الحكومة المسيحية من وضع للقيود و الأغلال و العراقيل قبل إطلاقها لأي قانون حتى لا يطمع أصحاب الحقوق بالمطالبة بحقهم استنادا لقوانين وضعتها الحكومة بنفسها.

و في حديثه عن المجلس الجزائري أشار الإبراهيمي إلى الزمن الذي مضى على تأسيسه بقوله: (و قد مرّت على هذا المجلس سنتان...)، و من الإشاريات الدالة على الزمن لكنه زمن مبهم قوله: (و نعتقد أن الأمة حين تسكت؛... القرارات التي كانت تحدّد سلطة الحكومة على المساجد حينا، و تمدّدها أحيانا)، حيث لا نستطيع تحديد الزمن الذي تشير إليه الكلمات الآتية (حين، حينا و أحيانا)، و كذلك قوله: (و أن عسى أن يهبط عليه الوحي في لحظة...)، حيث لا نستطيع تحديد الزمن الذي تشير إليه كلمة (لحظة) و إن كان السياق يدل على أنّ هذه (اللحظة) ستكون في المستقبل.

د/ الإشاريات الاجتماعية:

اشتملت هذه المقالة على بعض الإشاريات التي بيّنت نوع العلاقة بين الكاتب و المخاطبين، من ذلك قوله: (و التنديد بأعمال الظالمين لها و الغاصبين لحقوقها من الدين، و انتقاد القائمين فيها من الدين أيضا)، حيث دلت كلمتا (التنديد و الانتقاد) على علاقة الكاتب بهؤلاء الظالمين و الغاصبين للمساجد، بل و حتى القائمين فيها، فالكره و العداوة عنوان لهذه العلاقة، و الرفض و النكران سيمتها، و كفى بها بيانا أن يوصف أصحابها بالظالمين و الغاصبين.

أما عن علاقته بالحكومة المسيحية و رجالها فتبدو واضحة جلية من خلال تعدد صفاتها السلبية فهي (مصرّة على باطل أبطلته الأديان و القوانين و المدنيات و العوائد، و أنها عجزت عن دينها المسيحي أن تحرّره من احتكار روما، و عن دين موسى أن تنتزعه من مجامع الأحبار، فجاءت إلى ديننا تتحكّم فيه، و تلصّ أوقافه و تسخر رجاله الضعفاء لمصالحها، و تجعل من معابده ميادين

لاحتفالاتها بالنصر و الكسر...)؛ كما لا يعترف الإبراهيمي بالأئمة الذين عيّنتهم هذه الحكومة فأصبحوا يجهرون بالدعاء لها، يقول: (حتى تسمية الأئمة و المؤذنين فهي باطلة و طلب هذه الوظائف من هذه الحكومة باطل، لأن شرط نصب الإمام أن يكون من حكومة مسلمة، أو من جماعة المسلمين).

كما لا يطمئن الكاتب إلى نواب المجلس الجزائري، و يرى أنّهم نواب عن الحكومة لا على الأمة -كما هو حالنا اليوم- فلو ظهرت النيابة عن الأمة بمظهرها الحقيقي لكانت جمعية العلماء أول المطمئنين إلى أعمال النوّاب في مطالبها الدينية، كيفما كانت أعمالهم الأخرى.

الإشاريات في المقالة الرابعة:

يقول الكاتب في الفقرة الأولى من هذه المقالة:"...و نظرنا نظر المستقلّ، الذي يبني أحكامه على الواقع المحسوس، فوجدنا هذا الوليد الناقص الذي يسمّونه الدستور الجزائري لم يشرّع جديدا، و لم يزرع مفيدا، و لم يزد على أن نقل هذه القضية من ميدان إلى ميدان، و من يد إلى يد؛ نقلها من فرنسا إلى الجزائر، و من برلمان يسيطر على الأفراد، إلى شبه برلمان يسيطر عليه فرد...ليدفع الغضاضة على فرنسا اللائكية، و يلصقها بفرنسا (المسلمة) التي تتمسّك من الإسلام بمعابده و رجاله، و تعرف كيف تسيّره و تسيّرهم. فكأنه يقول لحكومة الجزائر: لنت قليلا فاشتدي، و رضيت قليلا فاحتدي، و تركت لك ما إن عملت به لن تضلي من بعدي، و لم أضع لك قانونا بل شبكة كلّها خروق، فاخرجي من أيها شئت...و كأنّه يقول لها "بدأت فتممي" و خصصت فعمّمي، و صدعت الحائط فرمّمي، و تساهلت فصمّمي، و أشرت بالترياق و أنت... فسمّمي، و جملت الوجه قليلا فدمّمي، و قالوا إن فرنسا تغضب الإسلام، فأقيمي الدليل على أن المسلمين راضون، و شدّدي اللام من صفتهم فإذا هم "مسلّمون". ففهمت حكومة الجزائر هذه الإشارة، و تلقتها كأنها بشارة؛ و كيف لا تستبشر؟ و الدستور برمّته (لامركزية) من النوع الذي يسيل عليه لعابها، و بنود القضية الدينية منه إطلاق ليدها في التصرّف المطلق؛ لذلك فهي قد فهمت من الدستور أشياء غير ما فهم النّاس، و لذلك قامت بالتنفيذ على حسب مفهومها لا على حسب فهم الناس، فبدأت بالمجلس الجزائري

فصاغته على ما يوافق هواها، و ظفرت منه بمفرد يأتي بجمع؛ و لها من ورائه مدد من (رجال الدين)، و عدد من المرتزقة المجنّدين، و بدد من الظلمة المعتدين، و أوزاع من العوام غير المهتدين، و أشياع من الزملاء (المنتدين)، فإذا اتحد هؤلاء بهؤلاء اتحادا كيمياويا تم المطلوب، و كان حزب الحق هو المغلوب؛ و من هذا و لهذا وضع التقرير العاصمي، و كأنه مقدمة لكتاب، أو طليعة لكتائب؛ و من هذا و لهذا رأى الناس مفتي الجامع الحنفي مترددا دائما على مقر المجلس، متصلا بأعضائه مداخلا لهم، متطارحا عليهم، متملقا إياهم، لا يفارق أحدهم إلا ليتصل بآخر. كأنه العني بقول القائل: لا يرسل الساق إلا ممسكا ساقا، و كأنه آنس منهم صاغية، فهدّد في بعض ما كتب بأن (سعيه سوف يرى)[1]....

أ/ الإشاريات الشخصية:

تنوعت الإشاريات الشخصية في هذه الفقرة بين الإشارة إلى المتكلم و المخاطب و الغائب من ذلك قوله مثلا:" و نظرنا نظر المستقلّ، الذي يبني أحكامه على الواقع المحسوس، فوجدنا هذا الوليد الناقص الذي يسمّونه الدستور الجزائري لم يشرّع جديدا..." حيث أشارت النون (نا) في (نظرنا، فوجدنا) إلى المتكلم و هو الكاتب، كما استخدم اسم الموصول (الذي) و الهاء في (أحكامه) في الإحالة على (المستقلّ) و هو هنا الكاتب نفسه، كونه نظر إلى الأمور بحيادية تامة دون أيّة ضغوطات، فشبّه نظرته بنظرة (المستقل)، كما أشار الكاتب إلى أولئك الذين استقبلوا ذلك الوليد الناقص و هو الدستور الجزائري بواو الجماعة في قوله (يسمّونه)، مشيرا إلى الدستور بالهاء تارة (يسمونه) و بضمير الغائب المستتر (هو) تارة أخرى، فـ(هو) لم يشرّع جديدا، و لم يزرع مفيدا...

كما أبدع الإبراهيمي في خلق حوار بين الدستور الجزائري و الحكومة، فكأنه يقول لها: " لنتُ قليلا فاشتدي، و رضيت قليلا فاحتدي، و تركت لك ما إن عملت به لن تضلي من بعدي، و لم أضع لك قانونا بل شبكة كلّها خروق، فاخرجي من أيها شئت...و كأنّه يقول لها "بدأت فتممي" و خصصت فعمّمي، و صدعت الحائط فرمّمي، و تساهلت فصمّمي، و أشرت بالترياق و أنت ...

[1]- المصدر السابق. ص109-110.

فسمّمي، و جملت الوجه قليلا فدمّمي، و قالوا إن فرنسا تغضب الإسلام، فأقيمي الدليل على أن المسلمين راضون، و شدّدي اللام من صفتهم فإذا هم "مسلّمون". حيث تنوعت الإشاريات بين استخدام ضمائر المتكلم و المخاطب، فضمير المتكلم المستتر (أنا) الذي دلّت عليه تاء الفاعل في الأفعال الآتية (لنتُ، و رضيتُ، و تركتُ، بدأتُ، خصصتُ، صدعتُ، و تساهلتُ، أشرتُ، جمّلتُ) تحيل كلّها إلى المتكلم (الدستور الجزائري)، في حين أشار ضمير المخاطب المستتر (أنتِ) الذي دلّت عليه ياء المخاطب في الأفعال الآتية: (فاشتدي، فاحتدي، تضلي، فاخرجي، تمّمي، فعمّمي، فرمّمي، فصمّمي، فسمّمي، فدمّمي، فأقيمي، و شدّدي)، بالإضافة إلى كاف المخاطب المكسورة في قوله: (لم أضع لكِ) حيث أشار الضميران إلى المخاطَب و هو (الحكومة الجزائرية).

كما استخدم الكاتب ضمير الغائب المستتر (هم) في قوله (و قالوا إن فرنسا تغضب الإسلام) حيث أشارت واو الجماعة المتصلة بالفعل (قال) إلى أولئك الذين علموا حقيقة فرنسا و موقفها من الإسلام. و هو الضمير الغائب نفسه (هم) الذين استعمله في الإشارة إلى (المسلمين) في قوله: (وشدّدي اللام من صفتهم فإذا هم "مسلّمون").

ب/ الإشاريات الزمانية و المكانية:

استخدم الكاتب بعض الإشاريات الزمنية من ذلك قوله: (لن تضلي من بعدي، بأن سعيه سوف يرى، و كيف لا يعذرون إذا جاحشوا عنها إلى آخر رمق، الذي فاوضه في قضية الجامع الكبير منذ أشهر)؛ حيث دلّت الجملة الأولى و الثانية على الزمن المستقبل من خلال القرينتين (من بعدي، سوف يرى)، أما الجملة الثالثة فقد دلّت على الزمن المستقبل أيضا لكنه مرتبط بحياة هؤلاء العمّال أو الولاة الذين تمسكّوا بالكراسي و أبوا النزول عنها إلى أن يتوفاهم الله عز وجلّ.

أما الجملة الرابعة فقد حملت دلالة زمنية قدّرت بـ(الأشهر)، و هي إشارة إلى زمن المفاوضات التي جمعت أعيان مدينة قسنطينة بعاملها حول قضية الجامع الكبير. بالإضافة إلى ذلك نجد عبارة أخرى أشارت إلى مدى عراقة الأسر القسنطينة التي شكّلت الوفد المفاوض حيث عبّر عن ذلك بقوله:(و أطولها امتدادا في التاريخ)، و هي إشارة زمنية غير محددة مثلما نجدها في قوله أيضا:

(و تدّخره من يوم الاستغناء ليوم الحاجة)، فالزمن في هذه العبارة معلوم مجهول، معلوم من حيث كونه ارتبط بكلمات أخرى دالة عليه وهي (الاستغناء، الحاجة)، لكنه زمن مجهول كوننا لا نعرف بالضبط متى سيكونان هاذان اليومان. و على العكس من ذلك نجد إشارة زمنية إلى تاريخ محدد و هو الخامس و العشرون من جويلية سنة تسع و أربعين تسعمائة و ألف (25 جويلية 1949) أي تاريخ نشر المقالة في جريدة البصائر، حيث يقول: (و لعلّ السادة ما زالوا ينتظرون رجوع الخبر إلى الآن)، فقوله (الآن) تشير إلى التاريخ المذكور سابقا.

كما تعددت و تنوعت الإشاريات المكانية في هذه المقالة، سواء منها ما كان صريحا مثل الإشارة إلى بعض البلدان منها قوله: (الجزائر، فرنسا، البرلمان، مكاتب إدارة عامل الجزائر، قسنطينة، معهد عبد الحميد بن باديس، الجامع الأعظم، مساجد الأمة، كلّ بلدة، البيعة الكبرى، الكنيسة العظمى). بالإضافة إلى ذلك نجد إشارات مكانية أخرى منها قول: (و لها من ورائه مدد من رجال الدين)، أي إن لحكومة الجزائر، من وراء المجلس الجزائري، مدد من رجال الدين الذين تستعين بهم لخدمة مصالحها.

و قوله أيضا: (و أقربهما لرضى الحكومة)، إشارة مكانية إلى مكانة رئيسيْ الوفد القسنطيني لدى الحكومة عسى أن يظفر الوفد بمتغاه أمام حضرة العامل...و هيهات. ذلك العامل الذي أخذ يتنصّل من أوائل القضية و أواخرها و (بإحالة على مرجع أعلى منه)، في إشارة مكانية إلى من هو أعلى منه رتبة أو مقاما للفصل في القضية. كما تضممن الوفد أيضا (ثلاثة من رجال الإصلاح الحافّين من حول المعهد) في إشارة مكانية من الكاتب لتحديد مجال انتماء هؤلاء الرجال الذين لم يدّخروا جهدا في مرافقة الوفد.

ج/ الإشاريات الخطابية:

وردت في المقالة بعض الإشاريات الخطابية من ذلك قوله (فوجدنا هذا الوليد الناقص الذين يسمّونه الدستور الجزائري...)، فهذا تعبير صريح عن موقف الكاتب من الدستور الجزائري الذي وسمه

بأنّه (وليد ناقص) ذلك أنّه لم يأت بجديد و لم يقدّم أيّ مفيد، و لم يعبّر عن تطلعات الشعب الجزائري الحقيقية، بل جاء خاليا مفتقرا إلى كلّ ذلك شأنه شأن الوليد الناقص.

و من الإشاريات الخطابية أيضا قوله: (و من هذا و لهذا وضع التقرير العاصمي، و كأنه مقدمة لكتاب، أو طليعة لكتائب؛ و من هذا و لهذا رأى الناس مفتي الجامع الحنفي مترددا دائما على مقر المجلس، متصلا بأعضائه...)، و كأنّي بالإبراهيمي يقدّم تقريرا عن التقرير العاصمي و ذلك المفتي الحنفي مستخدما في ذلك إشاريات خطابية متمثلة في قوله (و من هذا و لهذا...).

و في حديثه عن موقف العامل تجاه قضية فتح الجامع الأعظم أمام طلبة العلم، استعمل الكاتب بعض الإشاريات الخطابية من ذلك قوله: (...فلم يزد أن ردّ عليهم بكلمات جوفاء من الطراز المألوف، و بوعود من الطراز المألوف أيضا...و بتنصّل من أوائل القضية و أواخرها مألوف أيضا... و بإحالة على مرجع أعلى منه، و هذا من المألوف أيضا، ثم ضرب للوفد موعدا بإرجاع الخبر، و هذا من المسكنات المألوفة أيضا)، فتكراره لعبارة (مألوف أيضا) دلّ على موقف الكاتب غير المقتنع بردّ عامل قسنطينة، و اقتناعه بتنصّله من القضية دون تقديم أيّ ردّ حاسم.

د/ الإشاريات الاجتماعية:

توحي الإشاريات الاجتماعية بعلاقة الكاتب بالمخَاطبين، و قد تجلّت هذه الإشاريات في قوله: (ليدفع الغضاضة على فرنسا اللائكية، و يلصقها بفرنسا (المسلمة) التي تتمسّك من الإسلام بمعابده و رجاله، و تعرف كيف تسيّره و تسيّرهم)، فقد وصف فرنسا باللائكية تارة، و بالمسلمة تارة أخرى، لكنّها مسلمة بين قوسين، في إشارة من الكاتب إلى إسناد الاسم لها شكلا لا مضمونا؛ و كأنّه يقول إن فرنسا لن تستطيع أن تكون مسلمة كونها تتمسك من الإسلام بمعابده و رجاله الذين هم رجالها الذين عرفت كيف تسيرهم و تسخرهم لخدمة أغراضها اللائكية.

و من الإشاريات الاجتماعية نجد قوله: (...فإذا هذه القضية قد خرجت من يد الحكومة –بالمعنى الذي نعرفه للحكومة–...)، فقوله: (بالمعنى الذي نعرفه للحكومة)، يوحي بعدم اعترافه بهذه الحكومة، و أنّها ليست حكومة حقيقية تعبّر عن إرادة الشعب، فهي كما يعرفها لا تملك رأيا

و ارتكبت الكثير من المحرّمات، مما جعلها غير جديرة بهذا الوسم؛ و لعلّ ما يؤيّد هذا قوله في موضع آخر: (و لم يخل هذا الاجتماع –على ما بلغنا– من تلك العادة الممقوتة التي تفننت هذه الحكومة فيها...). أما عن علاقته بعامل قسنطينة فيقول الكاتب: (...و لكن حضرة العامل كان قيصري النزعة في الخطاب و الجواب..)، فعلى الرغم من أن لفظة (حضرة) تحمل معنى التبجيل و الاحترام، إلاّ أن الإبراهيمي ألقى عليها رداء السخرية فجعل التبجيل أبعد ما يكون عن هذا العامل، الذي كان قيصري النزعة في الخطاب و الجواب في إشارة إلى اغتراره و تعجرفه و تهربه من إيجاد حلّ للقضية.

الإشاريات في المقالة الخامسة:

أ/ الإشاريات الشخصية:

استخدم الكاتب الإشاريات الشخصية في عدة مواضع من المقالة من ذلك الإشارة إلى المتكلم في قوله: "نحن نريد –جادّين– فصل ديننا بجميع شعائره و علائقه عن حكومة الجزائر اللائكية المسيحية فصلا ناجزا حاسما...؛ إنّ هذه الأسماء و الألقاب التي فرضت علينا كلمة الحق تناولها بالنقد و التجريح...؛ هذه أهدافنا نسدد إليها سهام التجريح...؛ أنا لا أصدق أن ذلك كله انتصار للكرامة الشخصية...؛ و لم ننتقل بالقرّاء من ميدان إلى ميدان...؛ و لما جد جدّ القضية الدينية بيننا و بين الحكومة انتهى بنا الأمر إلى إمعان في الذياد...؛ و ذهبت أنا و الاستاذ الشيخ الطيب العقبي و جماعة كثيرة من العقلاء...؛ صلّى و خطب في بطحاء جامع "بيلكور" كاتب هذه السطور...". فقد أشار الإبراهيمي إلى نفسه بضمير المتكلم المفرد تارة (أنا) و بضمير المتكلم الجمع (نحن) أو الضمير المتصل (نا)، و تارة أخرى أشار إلى نفسه بقوله: "كاتب هذه السطور".

كما استخدم الكاتب بعض الإشاريات الشخصية الدالة على الغائب من ذلك قوله: "و ما ظنّ الناس؟ أيظنون أننا نقصد في ما كتبنا و نكتب من هذه الأسماء و الألقاب أصحابها المعروفين؟ لا و الله، فهم عندنا أقل من أن يجول لنا فيهم خاطر، أو يثور لنا فيهم اهتمام..."، فالضمير الغائب الجمع (هم) الظاهر أو المستتر، أحال إحالة قبلية إلى النّاس. و في حديثه عن لجنة الأهلة، نوّع الكاتب بين الإشاريات الدالة على الغائب المفرد المؤنث و الغائب المفرد المذكر و الغائب الجمع

فقال: "...و هو لجنة الأهلة التي كانت و بانت و استصدرت قانونا يجعل الأعياد الإسلامية رسمية، تعطل فيها الأعمال و المصالح الحكومية، و لتفتن العمّال و الموظفين بذلك، فيكون صغوهم إليها، و هواهم معها، و لها في ذلك مآرب أخرى، و عمدت إلى قاض من قضاتها المخلصين في ابتغاء مرضاتها، فنصّبته رئيسا لتلك اللجنة، و شدّت عضده بعصبة من طرازه، لتحرّك النّار بأيديهم، و تعمل ما شاءت بأسمائهم و ألقابهم، و بدأت التجربة العملية المفضوحة في العام الماضي." فالاسم الموصول (التي) و الهاء (ها) في (إليها، معها، لها، قضاتها، مرضاتها) تحيل كلّها إلى لجنة الأهلة؛ أما الهاء (ه) في (نصّبته، عضده، طرازه) فتشير إلى القاضي الرئيس* . أما الإشارة إلى الغائب الجمع فنجدنها في قوله: (بأيديهم، بأسمائهم، ألقابهم) فالضمير المتصل الظاهر (هم) يشير إلى العصبة المحيطة بالقاضي، أما الضمير المتصل (هم) في قوله (صغوهم، هواهم) فيشير إلى العمّال و الموظفين.

ب/ الإشاريات الزمانية و المكانية:

وردت في هذه المقالة إشاريات **زمانية** كثيرة من ذلك (الأمس، اليوم، رمضان، الأعياد الإسلامية، الجديد، القديم، الآن، هذا العام، أول الليل، ليلة الثلاثين من شعبان، ليلة الثلاثين من رمضان، قبل ذلك بيوم أو بأيام، يوم الأربعاء، شوال، قبيل العيد بأيام، بالساعة العاشرة ليلا، طول الليل، عشية السبت، في النهار، الساعة الثالثة صباحا، نصف الليل، ليلة الثلاثاء، في السحر)؛ كما وردت إشاريات **مكانية** كثيرة أيضا في قوله: (فكانت النتيجة أنّ الهلال رئي بالشهادة العادلة في بلدان متعددة منها "الغزوات، و ندرومه، و فرنده، من عمالة وهران، و منها برج بوعريريج، و بني ورتيلان، و بريكة، و ورقلة، و تمرنة، و بعض نواحي الميلية، و عنابة، من عمالة قسنطينة، و منها فحص الجزائر)؛ كما ذكر أماكن أخرى نذكر منها (العاصمة، بلكور، معظم القطر، و سلام باي، و حي السانتوجين، مركز جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المساجد)، بالإضافة إلى ذلك نجد بعض الإشاريات المكانية الأخرى منها قوله: (فقد كان الصوم و الإفطار و الأهلة و الأعياد كلّها بعيدة عن تدخّل الحكومة)، و قوله: (لتفيد البسطاء أنّها حية كإفادة حياة المتكلّم من وراء جدار..)، و قوله

*- من معاني الرئيس: الذي شجّ رأسه. و هذا ما نقصده.

أيضا: (فلآخذ من هنا، و أضع ههنا، و لأخرج عن طاعة الخارج، فهنا المحُّ و هناك (المارج)...)، و قوله: (و الراءون في الغالب بعيدون عن مراكز الأخبار و مكاتب البريد)، فالإشاريات في هذه المواضع هي: (بعيدة، بعيدون، وراء، هنا، ههنا، هناك) تدلّ بعضها على أماكن غير محددة أو مبهمة.

ج/ الإشاريات الخطابية:

يقول الكاتب في مستهل هذه المقالة: (...و ما ظنّ النّاس؟ أيظنون أننا نقصد في ما كتبنا و نكتب من هذه الأسماء و الألقاب أصحابها المعروفين؟ لا و الله، فهم عندنا أقل من أن يجول لنا فيهم خاطر، أو يثور لنا فيهم اهتمام، و إنما نقصد من هذه الأسماء و الألقاب –التي تجري على أقلامنا في هذه المواضيع– معاني خبيثة، و فكرا شيطانية أصبحت هذه الأسماء دوال عليها، و أعلاما لها، و مرتبطة بها ارتباط اللفظ بمدلوله الوضعي." فهذه الفقرة حملت موقفا واضحا للكاتب تجاه الفكر الشيطانية التي يحاربها و تحاربها جمعية العلماء، و هي أفكار تبنتها الحكومة الجزائرية اللائكية المسيحية بدستورها و مجلسها و رجالها الذين سخّرتهم لخدمتها و خدمة أغراضها الاستعمارية.

و لعلّ أكثر ما يدل على موقف الكاتب و ما يجسّد الإشاريات الخطابية قوله: (نحن نريد –جادّين– فصل ديننا بجميع شعائره و علائقه عن حكومة الجزائر اللائكية المسيحية فصلا ناجزا حاسما، لا تلكؤ فيه و لا هوادة؛ و نريد بتّ حباله من حبالها في المعنويات و الماديات، و نعمل لذلك متساندين في الحق، مستندين على الحق؛ و الحكومة تريد بقاء حبالها بحباله مربوطة، و يدها في التصرّف فيه مبسوطة...)[1]. فهذا موقف واضح الدلالة سيمته فصل الدين بجميع شعائره على حكومة الجزائر اللائكية المسيحية فصلا حاسما، و هو الهدف الذي كانت تنشده جمعية العلماء و رجالها الذين نذروا أقلامهم للدفاع عن مبادئ هذه الأمة و ثوابتها، و من هؤلاء محمد البشير الإبراهيمي الذي جعل هذه المقالات وسيلة للوصول لتلك الغاية؛ و مما يؤكّد سعيه قوله في هذه المقالة: (فذهبت بنفسي إلى النادي، و أعلنت في الملأ كلّ ما تأدّى إليّ من الشهادات، فآمن

[1]– المصدر السابق. ص112– 113.

المؤمنون، و أجمعوا على إقامة سنته في وقتها بمراكز الإصلاح...و أردنا أن نبلغ صوت الحق لهذه اللجنة الهاجعة، و نوقظ أعضاءها النائمين أو المتناومين، فنقيم عليهم الحجة إبلاغا في النصيحة، و مبالغة في جمع الكلمة...)[1].

د/ الإشاريات الاجتماعية:

وردت في هذه المقالة بعض الإشاريات الاجتماعية نذكر منها قوله: (...و قمعا لفتنة الراديو و فتنة المشوّشين الذين رأيناهم يدخلون في صفوف الأمة المتراصة، يوسوسون بالباطل و يغرون بالخلاف...)[2]، و قوله أيضا: (و علم من لم يكن يعلم، حقيقة هذه اللجنة، و أنّها أداة إفساد للدين و تفريق لأهله...)[3]، فهذا تعبير عن علاقة الكاتب بأعضاء لجنة الأهلة و الأعياد الإسلامية الذّين نصّبوا أنفسهم أوصياء على هذا الشعب فأصبحوا يفتون بما لا يعلمون، بل أصبحوا يحكمون بالصوم في شوال و الفطر في رمضان، لذلك نجده قد وصفهم بالمشوّشين تارة و بالمفسدين تارة أخرى.

و في حديثة عن علاقة النّاس بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين يقول الكاتب: (فانصرفوا [الجماهير] يعلوهم جمال الإجماع و جلاله، مبشّرين بالعيد، محذّرين من هذه اللجنة، داعين لجمعية العلماء، هاتفين باسمها، ذاكرين لفضلها على الدين، شاكرين للعلماء الأحرار لطف مداخلهم في إقامة الحجة على أعوان الباطل و أدوات الحكومة). فهذه الفقرة تضمنت بعض الإشاريات التي أبانت عن تبجيل و إجلال الجماهير لجمعية العلماء و رجالها الأحرار، و بغضهم لأعوان الباطل و أدوات الحكومة.

[1]- المصدر السابق. ص116.

[2]- المصدر نفسه. ص116.

[3]- المصدر نفسه. ص117.

ثانيا: الأفعال الكلامية:

بادئ ذي بدء نشير إلى أنّ مقالات فصل الدين عن الحكومة تندرج ضمن مطالب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسية في الجزائر، و من بين تلك المطالب ما يأتي:

- تحرير المساجد برفع يد الحكومة عنها.
- تحرير الأوقاف الإسلامية بإرجاعها إلى المسلمين.
- تحرير رجال الدين الإسلامي من الحكومة المسيحية.
- تحرير القضاء الإسلامي برفع جميع القيود عنه.
- تحرير الحج بعدم تدخل الحكومة في أي شأن من شؤونه.
- تحرير الصوم بحيث تبتعد الحكومة عن كلّ شؤونه.

تشير أغلب الدراسات أنّ الاهتمام بالأفعال الكلامية (الأعمال اللغوية)، "لم يتولد فعليا في الفترة المعاصرة إلاّ مع (أوستين)، و لم تولد التداولية أيضا على الصورة التي نعرفها اليوم إلا انطلاقا من اكتشافه للظاهرة و من الدراسة التي قام بها إثره (سيرل)"[1]؛ و يمكن جمع تصنيفات الأفعال الكلامية حسب ما جاء بها (أوستين) و (سيرل) كالآتي:

– أفعال الأحكام أوالإعلانيات: و هي التي تعبر عن حكم صادر عن حكم (يتهم، يبرئ، يحلل...).

– الأفعال التنفيذية أو التوجيهيات:لها علاقة بممارسة الأحكام و القوانين(يقهر، يتحكم، يأمر يسامح...)أي أنها تشمل أفعال الأمر و الطلب و التوجيه و الاستفهام و الاستعطاف و الإذن...

– أفعال الالتزام و التعهد أو الالتزاميات: لها علاقة بالمتكلم، إذ تعبر عن إلزامه بفعل شيء(أعد، أتعهد...)

– أفعال السلوك أو التعبيريات: تعبر عن رد فعل تجاه الآخرين نحو (سامح، شكر، عزى، هنأ...)

[1]– جاك موشلر، آن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: عز الدين المجدوب و آخرون. ص56.

– **أفعال الإيضاح أو العرض أو الإخباريات:** تستعمل لتوضيح وجهة نظر أو عرض قضية (أثبت، نفي، أكد...).

و لتسهيل تبيان هذه الأفعال في مقالات (فصل الدين عن الحكومة) سنحاول حصرها في جداول حسب ترتيب المقالات؛ ففي **المقالة الأولى** وردت الأفعال الكلامية مصنفة كالآتي:

المقالة الأولى:

رقم الفقرة	أفعال الأحكام أو الإعلانيات	الأفعال التنفيذية أو التوجيهيات	أفعال الالتزام و التعهد أو الالتزاميات	أفعال السلوك أو التعبيريات	أفعال الإيضاح أو العرض أو الإخباريات
01	مازالت هذه الحكومة **تمزج**... و **تخلط**...و**تكمل**...			و**تؤيّد** التخيّل بالتخيّل	**حقّنا** فيها **أوضح** من الشمس، و باطلها فيها **أعرق** من الإدبار من أمس.
02	و ما تزال **تهيم**... و **تتصامّ**... و **تتعامى**... و **تحنّ**...				فهي**تظهر** في كلّ يوم بجديد...
03	**تدين** بالهوى لا بالعقل... و **ترتجل**... و **تتروّى**... **وتدور**...			لا **نستغرب** هذا	و لعمري...إنّ هذه الحالة هي **شرّ** ما تساس به الأمم... و هو **أسوأ** ما تبتلى به

					الشعوب
04	فهي **تمارس**شؤون الدين و **تجري**... و**ترجع**...				-و **يغيب**عليها في هذا البحران أنّ تلك الحكومات إسلامية... -و هم **ليسوا** كعلماء دين الحكومة الجزائرية.
05					**علمنا** هذا مما علمناه من أعمال الحكومة...و **بلوناه**...و **جلوناه**...ثم مما **قرأناه**...
06		**-فاذكر** أنّ العاصمي... -و **اسأل** العرّافين... **أكان يرى** هذا الرأي؟			
07	**-سلّما** ما لا			-و **يشايع**	**-يقولون** أيضا:

	يملكان. -فعملهما **ليس** بحجة علينا... -إنّ استسلامكما **لا يقل** شناعة... ولا **يختلف**... -الأول **مبطل** في العطاء و الأخير **مبطل** حين يأخذ. - أقل ما **يقال** فيه إنه **متهم**.		الأستاذ العقبي... -فعلا تلك الفعلة الشنعاء **استسلاما** للجبن و **احتفاظا** بالوظيف و الرغيف. -**لا نأمن** أن تستلماها.		إن العاصمي لا **ينطق** عن هواه و إنما **ينطق** عن وحي ساداته و مواليه. -فقد **زارني** العاصمي... **فأفضى** إليّ بهذا الرأي...
08	**لايتم تحرير** المساجد إلا على أيدي الأحرار.	**أتظن** أن عملكما في الاستلام..؟ -فكيف **تحرّران** المساجد و الأوقاف؟			
09			كلتاهما **ماتشتد** جمعية العلماء و الأمة في **المطالبة** بتحريره.		

				-لا **نريد** أن تبقى للحكومة ...	
10	لأنّ الدستور الجزائري **الأبترقضى** عليها جميعا، و**حسم** القضية **فصرّح** بالفصل.	**دائبة**على **إبقاء** هذه القضية... **-أوعزت** بالتقرير العاصمي... ثم **عمدت** إلى ألاعيب...		**أبت** إلاّ أن **تعكّر** الصفو... -الأمة**لا ترضى** إلا بالفصل...	**فركّبت** العظائم في تكوين ذلك المجلس.

المقالة الثانية:

رقم الفقرة	أفعال الأحكام أو الإعلانيات	الأفعال التنفيذية أو التوجيهيات	أفعال الالتزام و التعهد أو الالتزاميات	أفعال السلوك أو التعبيريات	أفعال الإيضاح أو العرض أو الإخباريات
01	كلّ هذا مما **تدّعيه** فرنسا و **تغري** به...و **تغرّ**...			**سلّمنا** أنّ فرنسا دولة مستعمرة..	ما **هتف** الأول إلا بشعارها، و **ماتغنّى** في الحرية.. -و ما **استدبر** الثاني...إلا**ليستقبل**. ..و **ما نبذ**....إلا**ليستبدل**. ..

02		فلا مسجد إلاّ ما **فتحته**... ما بالها **خالفت**العالم الاستعماري كلّه...و **خرقت**.. و **شذّت**..؟ -فهي**تضايق** الإسلام... و**تحتكر**... و**تمتهن**..و**تبتلع**..	لا إمام إلا من**نصّبته**...ولا مفتي إلا من **حنفته** أو **ملّكته**...إلاّ من**سلّكته**... **حجّجته** أو **نسّكته**...		فهو**يسالم**... و **يترك**...و **يوليها**..و**يكتفي**..
03		فوجدناهم **بالغوا** في إعطاء الحرية.. - و **سوّوا** في تلك الحرية... - و **يسّروا**...			**قرأنا** سير الإنكليز... -حتى **بلغوا** حدّ السخافة. - حتى**اتّسع**...
04		**أرخت** عنان الحرية... ما بالها **خالفت** نفسها و **ناقضت** مبدأها... وهي			**قرأنا** عن تلك الدويلات... و**شهدنا**... فهي**تدين**...**ينصّ**... و**يجري**...و **تتأثّر**..

		تتمسّك... **و تتشدّد...** و **تتعنّت...**			
05	**تعامل** الإسلام بما يليق به من كرامة... ما **ينقض**... و **يغيّر**... ما زال **يتّخذ**...	**سدّت**عليها أبوابا من الخطر...		**علّمتها** التجارب...	و هي**ترى**... و هي **تعتقد**... قد **جرّبت**...لم **يأتها** الخطر...لأن الاستعمار الفرنسي لا **ينسى** عوائده... **لايخالف** أصوله... **لاينتفع**...ولا **يتطور**...
06	**ساء**مثلا الاستعماران.. و **سيسوآن** و إن طال أمدهما... و سيخذلهما القاهر...			ما **يقعد** منهما...و ما **يقعدها**...و ما **يتعمدها** بالقتل...وما **يبتليها**...	**يلتقي** القائمون به على سجايا خبيثة... و لولا ما **بلوناه**...و ما **تجرعناه**...و ما **كابدناه**...
07	**فلنرجع إلى أنفسنا و إلى**	ماذا **أعدت** لتحرير الدين؟ و		حتى كدنا **نألفه فتأنس** له	**أكثرنا**من ذكر الاستعمار....

	أمّتنا... و لنناقشها الحساب... **لنخرج** من الأقوال إلى الأعمال... **فلنقف** الوقفة الحازمة...	بماذا **استعدت؟**		نفوسنا..	**يعبثون** بديننا و نحن ننظر...

المقالة الثالثة:

رقم الفقرة	أفعال الأحكام أو الإعلانيات	الأفعال التنفيذية أو التوجيهيات	أفعال الالتزام و التعهد أو الالتزاميات	أفعال السلوك أو التعبيريات	أفعال الإيضاح أو العرض أو الإخباريات
01	...صلات **وكّدها** الله الذي **كتب** الصوم و **جعله** له... **شرّع** لهما حرمات..	**شرّف** المساجد **فجعلها** بيوته...	**هجر** اللغو...**التزام** الصدق...و **حبس** الأنفاس على طاعة الله...	فالمسلم **مواجه** لربّه...**واقف** بين يديه... **مكبوت** على شهواته... **مأخوذ** بناصيته...	
02		هو الذي **يحرّك** ألسنتنا.. يوم **يطالب** كل ذي حقّ...		لا **نفلت** منها إلا **لنقع** فيها... و لو **كرّرنا** ذلك ألف مرّة...حين **تسكت** أو **تقصر**	**فالحديث** عن المساجد من الدين... و **التنديد** بأعمال..و **انتقاد**

				أو **تتخاذل**..	القائمين.. و نحن **نعتقد** أنّنا... **ننطق** بحقّ و**نكتب** حقّا و **نرى** حقّا...
03	**أبطلته** الأديان و القوانين...		فجاءت إلى ديننا **تتحكّم** فيه... **تلصّ** أوقافه و **تسخّر** رجاله..	و أنّها **عجزت**... أن **تحرّره**...أن **تنتزعه**...	**نعتقد** أيضا... **تجعل** من معابده ميادين...
04	لا **تبلغ**...و لا **تُرتَقَى**...		و **طلب** هذه الوظائف...		**نعتقد** أنّ كلّ... لا **يختلف** في هذا مسلمان.. ولا **يخالف** فيه..
05	**إعلان** رئيس الحكومة أمرين..		**ألححنا** في المطالبة... و **سقنا** على ذلك... و هي التي **صيّرت**.. **تنفيذ** قانون	**يحمدها** الدين... **كشفنا** عن المستور..	قد **قمنا**... و **أبلينا**...ما **نكص** لنا فيه...و لا **وهنت**...و لا **تغيّر**.. ولا **التبس**... **قلنا**

		الفصل... و ثانيهما **حياد** الحكومة...			لها.. إنّ هذا البلاء لا **ينقطع** حتى **ينزع** حبل الدين..و **يوضع** في أيدي... و الظلم لا **يدوم**... واللصوصية لا **تتأتى** إلا...
06	فقد **قضى** ذلك الدستور..	ما لكم **تبدِئون** في هذه القصة و **تعيدون؟**			و نحن **نقول** لهذا القائل... فقد **بلينا**...**جُمع** فيه كلّ ما **تفرق** في غيرها...**تغطي** الشمس بالغربال.. و **تطاول**... و **ترصد**...
07	و الدستور **حكم** بالفصل...	و لكنّه **وكّل** تنفيذه.. و قد **فعلت**...		فقد **أيّد** حكومة الجزائر... أنّ الدستور **ترك** للحكومة منفذا..	الذي **صنعته** الحكومة بيديها، و **نفخت** فيه من روحها..

08			أن **ينفّذ** قضية... فماذا **يصنع** في الجوانب الأخرى؟... اليدّ التي **توجّهه** و الريح التي **تسيّره**، و الجهة التي **يتجه** إليها...	**يؤثرون** مصلحة الأمة على... و **صدق** كلّ ما **قلناه** فيه...	و قد **مرّت** على هذا المجلس... و **عرفنا** من أعماله...

المقالة الرابعة:

رقم الفقرة	أفعال الأحكام أو الإعلانيات	الأفعال التنفيذية أو التوجيهيات	أفعال الالتزام و التعهد أو الالتزاميات	أفعال السلوك أو التعبيريات	أفعال الإيضاح أو العرض أو الإخباريات
01	**لم يشرّع** جديدا... **فهدّد** في بعض ما كتب..	**لم يزرع** مفيدا... **لم يزد** على أن **نقل**... من برلمان **يسيطر** على الأفراد... و تعرف كيف **تسيّره** و **تسيّرهم**... لنت		**ليدفع** الغضاضة عن فرنسا... و **يلصقها**... **تغضب** الإسلام...**متردّدا** دائما...**متصلا** بأعضائه **مداخلا** لهم، **متطارحا**	**نظرنا** نظر المستقل... **فوجدنا** هذا الوليد... التي **تتمسك** من الإسلام... و **تركت** لك ما إن **عملت** به لن

		قليلا **فاشتدي**... **فاحتدي**... **فاخرجي** من أيّها شئت...بدأت فتمّمي... و خصصت فعمّمي... فدمّمي...فرمّمي... فصمّمي... فسمّمي... **فأقيمي** الدليل... و **شدّدي** اللام... و كيف لا **تستبشر**؟... قامت **بالتنفيذ** على حسب مفهومها... **صاغته** على ما يوافق هواها...		عليهم، **متملقا** إليهم، لا **يفارق** أحدهم إلا **ليتصل** بالآخر...	**تضلي** من بعدي... لم **أضع** لك قانونا... **ففهمت** حكومة الجزائر... و **تلقّتها**... و **ظفرت** منه بمفرد...
02	فهم الذين **يولون** رجال الدين و **يعزلون**...	-**فكيف** عن هذه العروش **ينزلون؟** -و **كيف** لا		-مكاتب أخرى **تزاحم** و **تلقي** دلوها مع الدلاء،	**-**قد **خرجت** من يد الحكومة... -لا **تملك** فيها

		يعذرون إذا **جاحشوا**...؟		و **يلوذ** بها... –	رأيا و **لا تهتدي** سبيلا.. –أن القضية **أصبحت** كرة... –**تطرق** الأبواب خلسة و **تقنع** من البخت السعيد بالجلسة.. – فهم **يخشون** أن **تفلت** منهم.. –هذا هو الذي **يفسّر** لنا موقف عامل قسنطينة...
03	و **قرّروا إيفاد** وفد إلى عامل العمالة...	**–فيرجعوا** خائبين... –**ليفاوضه** في فتح الجامع الأعظم...		**–هالهم** ما رأوا من **إقبال** طلبة... – و رأوا أن في ذلك **مسّا** بكرامتهم، و **خدشا** لسمعة بلدتهم... –فلم **يزد** أن **ردّ** عليهم...	**فعقدوا** اجتماعا في المعهد، و **حضرناه** معهم.. –**التقى** الوفد بالعامل على ميعاد، و **شرح** له القضية... – و **تكلّم** ابن

					باديس ..**فأقنع**، و **تكلّم** النائبان..**فأحسنا**، و **تكلّم** المحاميان... **فأفحما**.
04	-**تقيمه** و **تنصبه**..	-التي **تفننت** هذه الحكومة فيها و **برعت** في استخدامها.. -و **تدّخره** من يوم الاستغناء...أو **ترتجله** ارتجالا.. - نراها **تكوّن** جمعية دينية... -فكلما **طالبت** جمعية العلماء...		-**تعودت** أن **ترصد** لكلّ حقّ معارضا من الباطل... - أو **وقفت** موقفا **يغيظ** الحكومة...	- لم **يخل** هذا الاجتماع... -كم **تجرعنا**... و كم **لقينا**...
05				كلما **زار** قسنطينة...**طيف** به..	-و أنه حريص على **إبقائه** في يده..

					– **ليرجع** الزائر إلى وطنه بصورة رائعة... –و من **عاش** في الجزائر....**رأى**..

المقالة الخامسة:

رقم الفقرة	أفعال الأحكام أو الإعلانيات	الأفعال التنفيذية أو التوجيهيات	أفعال الالتزام و التعهد أو الالتزاميات	أفعال السلوك أو التعبيريات	أفعال الإيضاح أو العرض أو الإخباريات
01		–و ما **ظن** الناس؟ –**أيظنون** أننا نقصد فيما كتبنا...؟		–فهم عندنا **أقل من أن يجول** لنا فيهم خاطر، **أو يثور لنا فيهم** اهتمام...	إنما **نقصد** من هذه الأسماء....معاني خبيثة و فكرا شيطانية...
02	–فإذا **حاربنا** اسما من هذه الأسماء، فإنما **نحارب** الفكرة...	...التي **فرضت** علينا كلمة الحق **تناولها** بالنقد و التجريح.. –و ما ذنبنا إذا **رضي** أصحاب هذه الأسماء...؟			و الفكر إنما **تتمثل** في المظاهر... –و الناس **يحملون** من طبائع الأرض ألوانا شتّى.. –إنما الذنب لمن **جعل** نفسه...

03	نحن **نريد**- جادين-**فصل** ديننا بجميع شعائره... -و **نريد بتّ** حباله من حبالها...	فإذا **أعشاها** الحق بنوره، و **أفحمها** البرهان بظهوره...		و الحكومة **تريد** بقاء حبالها بحباله مربوطة...	-و **نعمل** لذلك متساندين في الحق... -و **تحاور** فلا **تصدق**...و **تشاور** فلا **تخلص**... -**عمدت** إلى شخص من هذه الشخوص **فغطّت** به مقصدا من مقاصدها المفضوحة و **سترت** باسمه...
04	هذه أهدافنا **نسدد** إليها سهام التجريح...	أو رجال **صيّرتهم** قابلية الاستعمال مبادئ...		كلّما **مسّهم** النقد بحرارته **صاحوا و ناحوا، و ثاروا و خاروا، و تظلموا و تألموا**...	و هي مبادئ **ظهرت** بمظهر رجال.. - **ليزداد** شأنهم نباهة...و **ليتخذوا** بذلك وسيلة...و ذريعة **لنيل** الممتنع...

05			لم **يصبها** من **تسلّط** الحكومة ما **أصاب** المساجد...	لا **يتبعون** في ذلك إلا أحكام الدين... – و لا **ينقادون** إلا لعوائد...	لم **ننتقل** بالقراء من ميدان إلى ميدان، و إنما **حدث** في القضية ما **أوجب تغيير** العنوان... – **كان** الصوم... بعيدة عن **تدخّل** الحكومة... –فالأعياد لا **تقام** مسايرة لمقصدها.. – و الأهلة لا **ترى** بعينها...
06	–**استصدرت** قانونا **يجعل** الأعياد الإسلامية رسمية.	–رأت أن **تلحق** الصوم...حتى **يعمّها** الاستعمار، و **يشملها** الاحتكار... –فعمدت إلى قاض من قضاتها...**فنصّبته**		**–انتهى** بنا الأمر إلى **إذعان** في الذياد، و**انتهى** بها إلى **غلو** في الكياد...	–و لما **جدّ** جد القضية الدينية... –**تُعطل** فيها الأعمال...**لتفتن** العمّال و الموظفين بذلك. –**بدأت** التجربة العملية المفضوحة

		رئيسا...و **شدّت** عضده..**لتحرّك** النار بأيديهم، و **تعمل** ما شاءت بأسمائهم.			في العام الماضي.
07		-أنها **تقتل** الشيء، ثم **تحاول استغلال** خصائص الإحياء منه... -فهي التي **مسخت** هذه الألقاب الإسلامية و **امتهنتها، و جردتها** من كلّ احترام...		**-إن** المسلمين **لا يحترمون** هذه الألقاب... **-يفرقون** بها بين ما يريدونه لأنفسهم و بين ما يراد بهم...	**-باحتكارها** التصرّف فيها، و **وضعها** في غير مواضعها، و **إلباسها** لغير مستحقيها... -فجاءت الآن **تريد أن تستغلّ** أثار هذه الألقاب...
08	**فأوعزت** من أول الليل إلى الإذاعة...			و إنما **أرادت** أن **تثبت** وجودها، و **تعلن** عن نفسها.. -أن **تدعو**	**-باتت** جمعية العلماء مرابطة بمركزها...**تتلقى** الأخبار و

				بالشفاء لرئيسها المريض...	**توزعها**، و **باتت** الأمة متصلة بها.. -أما لجنة الأهلة **فباتت** نائمة..لم **تمتثل** من سنن الله... -**ففهمنا** من ذلك الإجراء البسيط...
09	**-أصبح يحكم** بالصوم في شوال... -**أعلنت** اللجنة قبيل العيد بأيام...	-**فتمادى** فيما يخالفه...		-و **سكت** عنه الناس فيما يوافق الحق...	**-**ما كنا **ندري** أنّ الأمر **دبّر** بليل... -**فتوهّم** أنّ (تصويم) المسلمين و (تفطيرهم) أصبح من مشمولات نظره... -و هكذا **أصبح يقدم** على العظائم في الدين.. -لكن اللجنة

					احتاطت في ذلك البلاغ لنومها، **فحددت** الإخبار الرسمي...
10	**–أعلن** فيه الرأي المدبّر... –فكانت النتيجة أن الهلال **رُئي** بالشهادة العادلة...	**–فقذف** الإذاعة ببيان محضّر... –و **قذفت** اللجنة ذلك البلاغ المدبّر إلى الإذاعة... –و **أوصت** أن لا يذاع إلا في الميقات المحدود.. –و إلا فما الذي **منع** اللجنة...؟		–و لكنها **تصامّت** عن سماعها، و **أغلقت** الباب و **استسلمت** للنوم و الهدوء...	–و **جاءت** الليلة الموعودة **فكان** القاضي بين عاملين.. –لأن مرصد(بوزريعة) **قال** إن الهلال لا **يُرى**... –بل **بلغنا** أن اللجنة **تلقّت** أخبارا بالرؤية.. –أما جمعية العلماء فقد **انتظرت**...و أما الأمة فقد **اتصلت** بها مخبرة مستخبرة...
11	**–فشرعنا** في	–أردنا أن **نبلّغ**		–و **أخبرنا** نادي	**–استوفينا**

	الأداء و التبليغ... -و **نشرنا** الخبر و **عمّمناه**... -**أعلنت** في الملأ كلّ ما تأدى إليّ من الشهادات...	صوت الحق لهذه اللجنة...و **نوقظ** أعضاءها النائمين...		الترقي... -**فخشيت** أن تأخذ هذه الفتنة الجديدة... -**فيفرح** المبطلون الذين يعيشون على الافتراق و التفريق... -**فآمن** المؤمنون و **أجمعوا** على إقامة سنته في وقتها.. -**فنقيم** عليهم الحجة إبلاغا في النصيحة... -**يوسوسون** بالباطل و **يغرون** بالخلاف...	الشهادة...**بتلقي** السماع من عدلين... -**فذهبت** بنفسي إلى النادي...
12	**فأعلمنا** الجماهير المحتشدة بالعيد...	-و **حثناهم** على إقامة سنة الصلاة و **استماع** خطبتها...			-**فانصرفوا** يعلوهم جمال الإجماع... -و **أقيمت** صلاة العيد و خطبته في

					أربعة مواضع.. -**صلى و خطب** في بطحاء جامع (بلكور) كاتب هذه السطور..
13	-و **أحق** الله لحق و **أبطل** الباطل.. -بأن المرصد **قرّر** أنّ هلال شوال يولد ليلة الثلاثاء...	-و **أوقف** السائق الإلهي الأمور... -و **سخّر** الله صاحب الجريدة لنصرة الحق...		-**فرح** المؤمنون بنصر الله لدينه... -**لاذ** اللطيم بأمه يشكو... -**رجحت** العاصمة...كفة الحق على كفة الباطل...	-**أصبحت** المساجد محاطة بشراذم من البوليس **تحمي** بيوت الله من عباد الله...

المبحث الثاني

المعاني الحرفية و المعاني السياقية في مقالات

فصل الدين عن الحكومة

المقالة الأولى*:

يقول الكاتب: "علمنا هذا مما علمناه من أعمال الحكومة، و بلوناه من سرائرها، و جلوناه من جرائرها، و استنبطناه من تمسّكها الشديد، و تشدّدها الأعمى، و حيرتها و اضطرابها في هذه القضية، ثم مما قرأناه في السطور (و بين السطور) في تقريرها الذي وسمته بالتقرير العاصمي.

و إذا ذكرت أنّ الشيء الواحد يتفق مصدرا فإذا هو شيء و احد، كما تعقله و تفهمه، و تعرفه و تعلمه، ثم يختلف مظهرا فإذا هو شيئان أو أشياء، كما تشاء الأهواء؛ إذا ذكرت ذلك فاذكر أن العاصمي في تقريره المملوء بالمنطق الأعوج، المبني على التاريخ الأعرج، معناه أن الحكومة استعملت المساجد (و رجالها) يوم استلمتها من المفتيين الحنفي و المالكي. فمن العدل (و من المطابقة) (و من مراعاة النظير) أن ترجعهما إلى المفتيين (يعني الحاليين) أو (يعني مفتيا واحدا من الحاليين)"[1].

نلاحظ في هذه الفقرة قول الكاتب: (وحيرتها و اضطرابها في هذه القضية)، فالمقصود ب(هذه القضية) قضية تصرف الحكومة في الدين، يؤيد ذلك قوله في موضع سابق: (هن حكومات و أنا حكومة، و هنّ يتصرّفن في الدّين، فأنا أتصرّف في الدين...)[2]؛ كما نلاحظ وضعه جملة (بين السطور) بين قوسين، فإن كان المعنى الحرفي لهذه العبارة يحيل إلى وجود كلام مكتوب بين السطور، إلا أن المعنى السياقي يشير إلى غير ذلك، فالمقصود هنا هو الدلالات الخفية التي حملها ذلك التقرير العاصمي و الذي مفاده أنّ أولى النّاس بالتصرّف في المساجد هم الموظّفون الرسميون، و الذي يسمّيهم التقرير ب(رجال الدين)، كما يقبّح الانتخاب (أي انتخاب الجمعيات الدينية في تكوينها، و انتخابها هي للمجلس الإسلامي الأعلى الذي أجمع عليه كلّ المطالبين و أهل الرأي)؛ بالإضافة إلى ذلك فإن هذا التقرير يقدح في الجمعيات و الهيئات المطالبة بحقوق الأمة في دينها بأنّ وراء كلّ واحدة منها حزبا سياسيا يؤيدها. و لعلّ المقصود ب (ما بين السطور) هو إشارة الإبراهيمي إلى أنّ تسليم المساجد

*- سنكتفي في هذا المبحث بإيراد نماذج عن كلّ مقالة لتبيان المعاني الحرفية و السياقية تفاديا للتكرار.

1- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ص101.

2- المصدر نفسه. ص101.

إلى من تسمّهم الحكومة بـ(رجال الدين) هم أشخاص تمّ وزنهم بميزان تلك الحكومة و تمّ طبخهم في مطبخها، و محال أن تقوم بإطعام ثمرها من يعصي أمرها، و بالتالي فتسليم المساجد إلى هؤلاء فهو تسليم من الحكومة إلى الحكومة. من أجل ذلك نجد الكاتب يقول في موضع لاحق من هذه الفقرة: (و إذا ذكرت أنّ الشيء الواحد يتفق مصدرا فإذا هو شيء و احد، كما تعقله و تفهمه، و تعرفه و تعلمه، ثم يختلف مظهرا فإذا هو شيئان أو أشياء، كما تشاء الأهواء...)، أي أنّ الحكومة المسيحية اللائكية واحدة، لكنّها باختيارها للأشخاص الذين لا يعصون أمرها و إسنادها الوظائف لهم تصنع وجوها أو مظاهر أخرى لها يتكلمون بلسانها، و يبطشون بيدها و هو المقصود.

أما معنى قوله عن التقرير العاصمي بأنّه مبنيّ "على التاريخ الأعرج..."، فراجع إلى كون التقرير العاصمي يستشهد بإسناد المساجد إلى الموظفين الرسميين في العهد التركي، و الحال كذلك –حسبه– في الأقطار الإسلامية، لكن حقيقة التاريخ غير ذلك فشتّان ما بين الموظفين في عهد الاستعمار الفرنسي و الموظفين في العهد العثماني، فقد حظي الجامع الأعظم مثلا في العهد العثماني بعطف و رعاية و اهتمام لدى كلّ الولاة العثمانيين، كما عرف نشاطا تعليميا و قضائيا و دينيا و اجتماعيا و سياسيا غطى على كلّ الجوامع التي بناها الولاة العثمانيون أنفسهم و تجدر الإشارة أنّ المسجد كان تحت إشراف المفتي المالكي و أعوانه و ليس تحت إشراف الولاة العثمانيين.

و أما قوله: "فمن العدل (ومن المطابقة) (و من مراعاة النظير) أن ترجعهما إلى المفتيين (يعني الحاليين) أو (يعني مفتيا واحدا من الحاليين)"، إنّ الباحث في البلاغة العربية يجد أنّ مراعاة النظير: "هو الائتلاف و التلفيق و التناسب و التوفيق و المؤاخاة، و لكن معظم البلاغيين يسمونه (مراعاة النظير) و أدخله الرازي في أقسام النظم، و قال: (مراعاة النظير و هو عبارة عن جمع الأمور المتناسبة)، و أدخله السكاكي و القزويني و شراح التلخيص في المحسنات المعنوية."[1] كقول ابن رشيق:

أصح و أقوى ما سمعناه في الندى من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا عن البحر عن كف الأمير تميم

1- أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية و تطورها، ج3، المجمع العلمي العراقي، 1987. ص243-244.

فإنه ناسب فيه بين الصحة و القوة و السماع و الخبر المأثور و الأحاديث و الرواية، ثم بين السيل و الحيا و البحر و كف تميم، مع ما في البيت الثاني من صحة الترتيب في العنعنة إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر كما يقع في سند الأحاديث، فإن السيول أصلها المطر، و المطر أصله البحر، و لهذا جعل كف الممدوح أصلا للبحر مبالغة[1]. أما المطابقة: "...يقال طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد..."[2]؛ يتضح من خلال هذين التعريفين أنّ المقصود من إيراد هاذين المحسنين البلاغيين هو الجمع بين الشيء و ما يناسبه، أي أنّه من الواجب على هذه الحكومة أن ترجع التصرّف في المساجد إلى المفتيين الحنفي و المالكي أو إلى واحد منهما على الأقل مثلما كان معمولا به في سابق العهد، بعيدا عن أي تدخل من هذه الحكومة المسيحية اللائكية.

المقالة الثانية:

يقول الإبراهيمي: "سلّمنا أنّ فرنسا دولة مستعمرة من ذلك الطراز الاستعماري اللاتيني الأزرق، و أنّها تمتاز بادّعاء أنّها ممدّنة العالم و معلّمته و ناشرة لواء الحرية فيه، و أنّها السابقة إلى نبذ الأديان، و قطع الصلة بين الله و عباده، و أنّها واضعة نظام اللائكية التي معناها وضع سور بين الحكومات و بين الأديان كيفما كان نوعها، و معناها أيضا تقوية السلطة المادية، و توهين السلطة الروحية، و لأنّها الأستاذة الكبرى لكلّ من سلك هذا السبيل، و تأسّى بهذه الشرعة، و أنّها مرجع كلّ إباحي، و قدوة كلّ ملحد، و أنّها شيخة مصطفى كامل في الأولين و مصطفى كمال في الآخرين، ما هتف الأول في الوطنية إلاّ بشعارها، و ما تغنّى في الحرية إلاّ على مزمارها؛ و ما استدبر الثاني مشرق الشمس إلاّ ليستقبل مغرب أنوارها، و ما نبذ حروف العرب إلاّ ليستبدل راءه بغينها و طورانه بنارها"[3].

يلفت انتباهنا في هذه الفقرة ذكر الكاتب لعلمين هما (مصطفى كامل) و (مصطفى كمال)، و المتأمّل للسياق في هذا الموضع يكتشف المعنى و الغرض من ذكرهما، فالأول درس في فرنسا و تخرّج

1- أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية و تطورها، ج2. ص15.

2- المرجع نفسه. ص252.

3- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، ج3. ص103.

في كليتها محاميا ليعود إلى وطنه و يحمل على عاتقه خدمة وطنه و الدفاع عن حقوق أمّته، ثم عاد مرة أخرى إلى فرنسا و أخذ يعرّف بالقضية المصرية التي كانت تحت الاحتلال الإنجليزي، لكنّه –و هذا بيت القصيد– قد استغاث بفرنسا التي هي في نظره دولة عظيمة أعلنت حقوق الإنسان و سارت به في سبيل التقدّم و المدنية، و لعلّ هذا ما جعل الإبراهيمي يقول عنه (ما هتف الأول في الوطنية إلاّ بشعارها)، أما قوله (و ما تغنّى في الحرية إلاّ على مزمارها)، فلعلّ هذا إشارة إلى دور الصحف الفرنسية التي استعان بها (مصطفى كامل) هي الأخرى من أجل نشر مقالاته السياسية حول القضية المصرية[1].

أما الثاني (مصطفى كمال أتاتورك) فقد استدبر الشرق و احتضن الغرب، و هو يعدّ مؤسس تركيا الحديثة وبطلها القومي في أعين مريديه، وعدو الإسلام ومحطم الخلافة في أعين خصومه، لقد بدأ (مصطفى كمال) إجراءاته بتغيير أشكال الناس، حيث منع اعتمار الطربوش والعمامة وروج للباس الغربي، منع المدارس الدينية وألغى المحاكم الشرعية، أزال التكايا والأضرحة وألغى الألقاب المذهبية والدينية، وتبنى التقويم الدولي، كتب قوانين مستوحاة من الدستور السويسري، وفي عام 1928 ألغى استخدام الحرف العربي في الكتابة وأمر باستخدام الحرف اللاتيني في محاولة لقطع ارتباط تركيا بالشرق والعالم الإسلامي.

تحولت تركيا خلال خمسة عشر عاما من حكم (مصطفى كمال) بشكل جوهري، ويذكر له الأتراك أنه أسس دولة قوية حديثة، لكن خصومه يشددون على أنه لم يكتف بإزالة آخر دول الخلافة الإسلامية لكنّه حارب الدين والتديّن من خلال النظام العلماني الذي شرعه في تركيا، بل إنه ربط تقدم البلاد وتطورها بالتخلي عن الهوية الإسلامية تاريخا وممارسة؛ و قد عبّر الإبراهيمي بإيجاز عن كلّ ذلك بقوله: (و ما استدبر الثاني مشرق الشمس إلاّ ليستقبل مغرب أنوارها، و ما نبذ حروف العرب إلاّ ليستبدل راءه بغينها)، أما قوله: (...و [استبدل] طورانه بنارها)، فلعلّ المقصود هنا (قوميته التركية)، ذلك فالعلمانية (الكمالية) لم تكتف بفصل الدين عن الدولة لكنها سيطرت على الممارسة

[1]– عبد الرحمان الرافعي: مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1984. ص59-66.

الدينية ومنعت كل مظاهر التدين بإجراءات قانونية تحميها مؤسسات الدولة وأبرزها الجيش[1]، و هي نار اللائكية الفرنسية التي قصدها الكاتب.

و يقول أيضا في المقالة نفسها في موضع آخر:"قرأنا سير الإنكليز في الهند فوجدناهم بالغوا في إعطاء الحرية للأديان حتى بلغوا حدّ السخافة، و سوّوا في تلك الحرية بين (قرّاء البقرة) بالحق، و بين (عباد البقرة) بالباطل، و يسّروا سبيل الحق حتى اتّسع معنى الاستطاعة"[2].

نلاحظ في هذا النموذج أنّ الإبراهيمي قد وضع بين قوسين عبارتيْ (قرّاء البقرة) و(عباد البقرة)، ذلك أنّ المقصود بالأولى (المسلمون)، و المقصود بالأخرى (الهندوس)، و هما الشعبان اللذان ساوى بينهما الاستعمار الإنجليزي أثناء احتلاله للهند.

المقالة الثالثة:

يقول الكاتب: "نعتقد أنّ كلّ ما قرّرته هذه الحكومة المسيحية، و كلّ ما تقرّره في شؤون ديننا باطل منقوض دينا و عقلا و قانونا، حتى تسمية الأئمة و المؤذّنين فهي باطلة و طلب هذه الوظائف من هذه الحكومة باطل، و الرضى بها باطل، لأن شرط نصب الإمام أن يكون من حكومة مسلمة، أو من جماعة المسلمين، لا يختلف في هذا مسلمان، و لا يخالف فيه إلا "العاصمي" في قياسه لحكومة الجزائر على حكومة ابن سعود، و هو قياس لا يشبهه في الفساد إلاّ قياس مسيلمة على محمد في شهاد الإخلاص !!

و إنّ هذا القياس لدرجة في العلم لا تبلغ إلا بخذلان من الله، و درجة في العمل لا تُرتقى إلا بتوفيق من الحكومة"[3].

نلاحظ في هذا النموذج من المقالة الثالثة إشارة الكاتب إلى أنّ شرط الإمامة أن يكون الإمام من جماعة المسلمين أو من حكومة مسلمة، و لا يختلف في ذلك مسلمان، ثم يستثني (الشيخ محمد العاصمي المفتي الحنفي)، فبالنسبة لهذا الشخص كلّ شيء ممكن، حيث تستوي لديه هذه الحكومة

[1]- http://www.aljazeera.net

[2]- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ص104.

[3]- المصدر نفسه. ص107.

المسيحية اللائكية مع الحكومة المسلمة للمملكة العربية السعودية، و هو قياس فاسد شبّهه الكاتب بقياس مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة، على الرسول –صلى الله عليه و سلّم– الصادق الأمين، فشتّان ما بين الثرى و الثريا.

المقالة الرابعة:

يقول الكاتب: "...و من هذا و لهذا وضع التقرير العاصمي، و كأنه مقدمة لكتاب، أو طليعة لكتائب؛ و من هذا و لهذا رأى الناس مفتي الجامع الحنفي متردّدا دائما على مقر المجلس، متّصلا بأعضائه، مداخلا لهم، متطارحا عليهم، متملّقا إيّاهم، لا يفارق أحدهم إلاّ ليتصل بآخر. كأنّه المعني بقول القائل: لا يرسل الساق إلاّ ممسكا ساقا، و كأنّه آنس منهم صاغية، فهدّد في بعض ما كتب بأنّ (سعيه سوف يرى)..."[1].

يشدّ انتباهنا في هذا النموذج المثال الذي استشهد به الإبراهيمي و هو قول العرب: (لا يرسل الساق إلاّ ممسكا ساقا)، و هو مثال يضرب في "الرجل الملحّ في الحوائج، الذي لا تنقضي له حاجة إلا سأل أخرى، و أصل المثل في الحرباء، إذا اشتدّ عليه حرّ الشمس لجأ إلى شجرة ثم توقّى في أغصانها، فلا يرسل غصنا حتى يقبض على آخر"[2]، و هو ما ينطبق على هذا (العاصمي) الذي لا يفارق عضوا من أعضاء المجلس الجزائري إلا و قد اتّصل بآخر من أجل تلبية حاجياته، ذلك أنّه قد رضي أن يكون بوقا للجهة التي تحركه، و أصبحت فرنسا هي وجهته التي هو مولّيها، فترك بذلك غصن المسلمين و تلقّف غصن المسلّمين فكان عرضة لوطء الأقدام و وخز الأقلام.

و يقول الكاتب أيضا في موضع آخر من هذه المقالة:" و يلوح لنا أن لعامل قسنطينة على الخصوص هوى غالبا مبرحا في الجامع الأعظم، و أنّه حريص على إبقائه في يده، و لو حكم المجلس الجزائري، و لو تصافت المكاتب، و رجع إلى الحق (المعتوب) و العاتب؛ و كأن له فيها غرضا بديعا، و ذوقا لطيفا و هو أن يجعل منه مزارا للزوّار من العظماء، و متحفا عامرا بالتحف الآدمية المتحركة،

[1]– المصدر السابق. ص110.

[2]– عبد الله بن مسلم بن قتيبة: عيون الأخبار، م3، دار الكتاب العربي، لبنان د.ت، ص191–192.

و الدمى البشرية الحية، فكلما زار قسنطينة عظيم من فرنسا ذو حيثية، طيف به على الجامع الكبير و البيعة الكبرى، و الكنيسة العظمى، ليرجع الزائر إلى وطنه بصورة رائعة من امتزاج الأديان و إيمان جديد بقدرة الرجال على المزج و العجن، و بشهادة صادقة للعامل بأنه لا يفرق (بين أحد من رسله)... و من عاش في الجزائر رجبا، رأى عجائب لا عجبا"[1].

نلاحظ في هذا النموذج أنّ الكاتب قد وضع كلمة (المعتوب) بين قوسين، و له في ذلك مآرب أخرى، فقد رود في لسان العرب "عاتبه معاتبة و عتابا، كلّ ذلك لامه، ...و العُتبى اسم على فعلى، يوضع موضع الإعتاب، و هو الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضي العاتب... و إنما يعاتب من تُرجى عنده العُتبى، أي الرجوع عن الذنب و الإساءة، و في المثل: ما مسيء من أَعْتَبَ"[2]. و هو ما لم يفعله (عامل قسنطينة) بعد زيارة الوفد له من أجل مفاوضته في فتح المسجد الأعظم أمام جمهور المتعلمين الذين ضاق بهم معهد عبد الحميد بن باديس، و هي مفاوضات كانت بطعم اللوم والعتاب، لكنّ (المعتوب) و هو (عامل قسنطينة) كان عتوبا*، "فلم يزد على أن ردّ عليهم بكلمات جوفاء من الطراز المألوف، و بوعود من الطراز المألوف أيضا..."[3].

أما قوله: (و هو أن يجعل منه مزارا للزوّار من العظماء، و متحفا عامرا بالتحف الآدمية المتحركة، و الدمى البشرية الحية)، فالمقصود بالعظماء هم مسؤولو فرنسا في عين عامل قسنطينة، و أما التحف الآدمية و الدمى البشرية فهم غاشية من رجال الدين الذي يرجون فضل فرنسا و معروفها.

و خُتم هذا المقال بقول الكاتب: (و من عاش في الجزائر رجبا، رأى عجائب لا عجبا)، و هو مثال تقوله العرب كناية عن السنة، "قال أبو الحسن الطوسي: يريد عش رجبا بعد رجب، فحذف، و قيل: رجب كناية عن السنة لأنه يحدث بحدوثها، و من نظر في سنة واحدة و رأى تغيّر فصولها

[1]- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ص111.

[2]- ابن منظور: لسان العرب، ج1. ص577-578.

*- العتوب: الذي لا يعمل فيه العتاب، المرجع نفسه. ص578.

[3]- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ص111.

قاس الدهر كله عليها، فكأنه قال: عش دهرا ترى عجائب..."[1]. فهذا المثال ينطبق تماما على ما يريد الكاتب قوله، فمن عاش في الجزائر في تلك الفترة سنة كاملة رأى عجائب و ليس عجبا بسبب كثرة التناقضات و الأهواء المتعاكسات.

المقالة الخامسة:

يقول الكاتب: "فالأعياد لا تقام مسايرة لمقصدها، و الأهلة لا ترى بعينها، و لا بمرصدها، و لم يكن ذلك استعفافا منها، و إنما كان استخفافا بها، لعدم وجود المال فيها،...فرمضان ليس له أوقاف تنفق عليه، و لا سفينة تحمل إليه، و الأعياد، عاطلة الأجياد، آمنة من طروق زياد، و طارق بن زياد..."[2]. في حديثه على ما كانت عليه الشعائر الدينية من صوم و إفطار و أهلة و أعياد، يذكر الإبراهيمي أنّ تلك الشعائر كانت بعيدة عن تدخّل الحكومة عكس ما كانت عليه الأوقاف و المساجد و الحجّ، و لم يكن ذلك استعفافا من الحكومة و إنما كان استخفافا منها بتلك الشعائر، فهي لا تدرّ شيئا من المال؛ يبدو كلّ شيء مفهوما لغاية هذا السطر، لكن بعد ذلك قد يلتبس على القارئ المراد من قوله: (فرمضان ليس له أوقاف تنفق عليه، و لا سفينة تحمل إليه، و الأعياد، عاطلة الأجياد، آمنة من طروق زياد، و طارق بن زياد..)، و لعلّ السبب في ذلك وجود حذف مقصود أضفى على الكلام رونقا و بهاء استفزّ به و من خلاله الإبراهيمي قرّاءه، فأصل الكلام أنّ رمضان ليس له أوقاف تنفق عليه كالمساجد، و لا سفينة تحمل إليه كالحج، و هو ما سيجعل منهما مدخولا لخزينة الحكومة يدرّ عليها كثيرا من الأموال في حال كانت هي المتصرفة فيهما؛ أما قوله عن الأعياد: (عاطلة الأجياد...)، ورد في معجم لسان العرب: "العَطَل: فقدان الحلي،...و جيد معطال: لا حلي عليه، و قيل العاطل من النساء: التي ليس في عنقها حلي و إن كان في يديها و رجليها..."[3]، أما الأجياد: فهي جمع (جيد) و هي العنق، فيصبح المعنى بذلك أنّ أعناق النساء لا حليّ فيها، لكن ليس هذا المقصود، بل إنّ الإبراهيمي جعل (الأعياد) في خلوّها من أيّ مطمع مالي كالنّساء اللواتي

[1]- أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني: مجمع الأمثال، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج2، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1955. ص16.

[2]- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ص113.

[3]- ابن منظور: لسان العرب، م11. ص454

خلت أعناقهنّ من الحلي. أمّا قوله عن الأعياد أيضا إنّها: (آمنة من طروق زياد، و طارق بن زياد..)، فقد يتساءل القارئ عن سبب إيرادهما في هذا السياق بالذات، و لماذا هذين الاسمين بالتحديد؟ ثمّ إذا كان (طارق بن زياد) معروف لدينا جميعا، فمن هو (زياد) هذا بالضبط حتى يستشهد به الإبراهيمي؟ يذكر ابن منظور في معجمه (لسان العرب) أنّ "الطّرق: ضرب من أصوات العود. الليث: كلّ صوت من العود و نحوه طرق على حدة، تقول: تضرب هذه الجارية كذا و كذا طرقا. و عنده طروق من الكلام واحده طرق؛ عن كراع و لم يفسره، و أراه يعني ضروبا من الكلام..."[1].

بالنظر في سياق الكلام، و نظرا لما تعنيه كلمة (طروق)، ندرك أنّ المقصود بـ(زياد) هو (زياد بن أبيه)، ذلك أنّه بالإضافة إلى (طارق بن زياد) قد عُرفا بقيادتهما و فصاحة لسانهما حتّى إنّهما اشتهرا بخطبتهما، فالأول قال خطبته الشهيرة لمّا قدم البصرة و قد اضطرب فيها الأمن و ظهر فيها الفسق، و هي الخطبة التي سميّت بالبتراء، و التي على إثرها "أمن الناس بعضهم بعضاً حتى كان الشيء يسقط من الرجل والمرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تغلق بابها"[2].

و أما الآخر فاشتهر بخطبته قبل معركة شذونة (وادي لكة)، و على إثرها استطاع (طارق بن زياد) رغم تواضع عدد جنوده من فتح عديد الدول الأندلسية[3].

لكن ما علاقة كلّ ذلك بما قاله الإبراهيمي؟ و كيف تكون الأعياد آمنة من طروق زياد بن أبيه و طارق بن زياد؟ لعلّ الكاتب أراد أن يقول أنّ الأعياد كانت بعيدة عن اهتمام الحكومة آمنة من كلامها في مختلف المحافل، فلا تعرض لها بحديث و لا تخوض في مواقيتها، ذلك أن لا فائدة ترجى من ورائها بالنسبة لها؛ و لعلّ ما يؤيد هذا الرأي أنّ (الإبراهيمي) ذكر في موضع آخر من هذه المقالة أنّ الحكومة رأت أن تتصرف أيضا في الصوم و الأعياد الدينية فأنشأت لجنة الأهلة و الأعياد الإسلامية التي أصبحت تقذف بخطبها و إعلاناتها عبر الإذاعة لتضلّ النّاس بغير علم.

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، م10. ص223-224.

[2]- الموسوعة العربية. www.arab-ency.com

[3]- عبد الحليم عويس: طارق بن زياد فاتح الأندلس. www.islamstory.com

و في موضع آخر يقول الكاتب: "و جاءت الليلة الموعودة، فكان القاضي بين عاملين، أهونهما الوفاء بوعده، و أجلّهما ما قالت حذام... فقذف الإذاعة ببلاغ محضّر، أعلن فيه الرأي المدبّر، و هو أنّ العيد يوم الأربعاء، لأن مرصد "بوزريعة" قال إن الهلال لا يرى، و لأن الشيخ بخيت الفقيه قال كذا، و لأن الفلكي التونسي قال كذا، و كلّ هذا تجديد في عالم البلاغات من اللجنة المجددة، و كلّ هذا تغطية لقول حذام، و إلاّ فالقول ما قالت حذام..."[1].

ورد في (شرح شواهد المغني) للسيوطي قوله:" قائل هذا البيت نجيم بن مصعب بن علي بن بكر بن وائل، والد حنيفة وعجل ابني سحيم، وحَذامِ امرأته، سميت حَذام لأن ضرتها حذمت يدها بشفرة، فصبت عليها حذام جمرا فبرشت، فسميت البرشاء وهي حذام بنت الريان بن خسر بن تميم... و سبب قول هذا البيت: أن عاطس بن الجلاح الحميري صار إلى قومها في جموع فاقتتلوا، ثم رجع الحميري إلى معسكره وهرب قومُها، فساروا ليلتهم ويومهم إلى الغد، ونزلوا الليلة الثانية، فلما أصبح الحميري ورأى جلاءهم اتبعهم، فانتبه القطا من وقع دوابهم، فمرت على قوم حذامِ قِطَعا قِطعا، فخرجت حذامِ إلى قومها فقالت:

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا ليلا لناما

فقال زوجها: إذا قالت حذام فصدّقوها

فارتحلوا حتى اعتصموا بالجبل، و يئس منهم أصحاب عاطس فرجعوا.

و تمام البيت: فإنّ القول ما قالت حذام"[2].

يمكننا أن نفهم من خلال هذا الشرح المقصود بذكر (حذام) في هذا الموضع، فقد أصبح هذا البيت مضرب المثل في صدق القول؛ و بالتالي فقد كان قاضي لجنة الأهلة و الأعياد الإسلامي بين عاملين، أهونهما الوفاء بوعده، و أجلّهما أن يصدق في قوله، فصرّح للإذاعة بأن العيد يوم الأربعاء مستشهدا بمرصد (بوزريعة) و الشيخ بخيت الفقيه، و الفكي التونسي، و كلّ ذلك تلفيق و كذب،

[1]- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ص114-115.

[2]- جلال الدين السيوطي: شرح شواهد المغني، لجنة التراث العربي، دمشق، 1966. ص596-597.

و تغطية لقول الصدق–حذام– و إلا فالقول ما قالت حذام، و حذام هنا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي انتظرت إلى الساعة الثالثة صباحا و اتصلت بها الأمة مخبرة مستخبرة، فكانت النتيجة أن الهلال رُئي بالشهادة العادلة في ولايات متعددة.

الفصل الرابع

المبحث الأول: الإشاريات و الأفعال الكلامية في مقالات سجع الكهّان

المبحث الثاني: المعاني الحرفية و المعاني السياقية في مقالات سجع الكهّان

المبحث الأول

الإشاريات و الأفعال الكلامية في مقالات سجع الكهّان

أولا: الإشاريات

-الإشاريات في المقالة الأولى

أ- الإشاريات الشخصية

تنوعت الإشاريات في هذه المقالة بين الشخصية و الخطابية و الاجتماعية، تمثّلت الأولى في قوله: "نحن الكهّان، أفراس رهان. منّا السابق المصلي، ومنّا الآبق المولّي. كنّا إرهاصًا للنبوّة، ودليلًا للضعف إلى القوة، فلما جاء الحق، وحيص الشق، اندحرنا و انجحرنا، فلما عادت الكسرويّة إلى شرائعها، والقيصرّية إلى ذرائعها، آن أن نعود إلى الإنذار، ونصرخ في وجوههم: حذار حذار، إن بطش الله لشديد، وإن الحرير قد يفلّ الحديد"[1]. فقد استعمل الكاتب ضمير المتكلم الجمع (نحن) الظاهر أحيانا و المستتر أحيانا أخرى في قوله: (نحن الكهّان، أن نعود، و نصرخ) للإشارة إلى (الكهّان) الذين تحدّث بأسلوبهم و أسجاعهم، كما استعمل الضمير المتصل (نا) للإشارة إليهم أيضا في قوله (منّا، كنّا، اندحرنا، و انجحرنا). و في موضع آخر يشير الكاتب إلى الكهّان بصيغة المفرد الغائب فيقول:" الكاهن، لا يُداري ولا يداهن؛ كلامه رمز، ليس فيه لمز. عاذ غيره بالتصريح فعاد بالتجريح، ولاذ هو بالكهانة، فأمِن المهانة. كان ... فكان الزاجر الرادع، للفاجر الخادع، وكان... فكان نذير السارق والمارق، والخاتل والقاتل، والمحتال والمغتال، والقاذف والحاذف، والمبتهر والمبتئر. تجف قلوبهم إذا نوفروا إليه، وتجفّ لهواتهم إذا وقفوا بين يديه، لاستتارهم بالعيب، واستهتارهم بالغيب، فلما جاء "محمد" بالحق فاء الناس إلى ضمائرهم، وحكموا هديَه في سرائرهم، وردُّوا الغيب إلى عالمه فاستراحوا، ولكنهم اليوم عادوا إلى الجاهليَّة، وتقلّبوا في أرحام حنظليّة وأصلاب باهليَّة، فماذا نصنع؟ أنتقدّم منذرين، أم نتأخّر معتذرين؟ بل نُحيي الاسم، ونُميت- كما أمات الإسلام- الرسم"[2].

في هذا الموضع يشير الكاتب إلى الكاهن من خلال (هاء) ضمير المفرد الغائب المتصل في قوله (كلامه، غيره، إليه، يديه)، بالإضافة إلى ضمير المنفصل الغائب الظاهر (هو) في قوله (ولاذ هو بالكهانة، فأمِن المهانة)، و المستتر في قوله (كان ... فكان الزاجر الرادع، للفاجر الخادع، وكان...

[1]- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ص518.

[2]- المصدر نفسه. ص518-519.

فكان نذير السارق والمارق، والخاتل والقاتل، و المحتال و المغتال، و القاذف و الحاذف، و المبتهر و المبتئر). و نجد في هذا المثال أيضا إشاريات شخصية إلى تلك الأصناف التي حاربها الكاهن مستخدما ضمير الغائب الجمع (هم) في قوله: (تجف **قلوبهم** إذا نوفروا إليه، وتجفّ **لهواتهم** إذا وقفوا بين يديه، **لاستتارهم** بالعيب، **واستهتارهم** بالغيب..). و في حديثه عن النّاس الذين اتبعوا الحق الذي جاء به الرسول –صلى الله عليه و سلّم– استخدم الكاتب إشاريات شخصية ممثلة في ضمير الغائب الجمع (هم) الظاهر تارة و المستتر تارة أخرى في قوله (فلما جاء "محمد" بالحق فاء الناس إلى **ضمائرهم**، و**حكموا** هديَه في **سرائرهم**، و**ردُّوا** الغيب إلى عالمه **فاستراحوا**، و**لكنهم** اليوم **عادوا** إلى الجاهليَّة، و**تقلّبوا** في أرحام حنظليّة وأصلاب باهليَّة..)؛ ثم يعود الكاتب ليتحدث بضمير المتكلم الجمع المستتر (نحن) في قوله: (فماذا نصنع؟ أنتقدّم منذرين، أم نتأخّر معتذرين؟ بل نُحيي الاسم، ونُميت– كما أمات الإسلام– الرسم).

ب– الإشاريات الخطابية:

احتوت هذه المقالة على إشاريات خطابية أبان من خلالها الكاتب على موقف خاصة به من ذلك تعريفه لهذه المقالات بقوله: "هذه فصول، إن لا تكنْ فيها روح الكاهن ففيها من الكاهن سجْعُه، وإن لا يَجُلْ في جوانبها صَدَى الكهانة ففيها من ذلك الصدى رَجْعه؛ فيها الزمزمة المفصحة، والتعمية المبصرة، وفيها التقريع والتبكيت، وفيها السخرية والتنكيت، وفيها الإشارة اللّامحة، وفيها اللفظة الجامحة، وفيها العسل للأبرار، وما أقلَّهم، وفيها اللسع للفجار، وما أكثرهم، فلعلّها تهزُّ من أبناء العروبة جامدًا، أو تؤزّ منهم خامدًا، فنجني شيئًا من ثمرة النية، ونغيِّر أواخر هذه الأسماء المبنيّة"[1].

نلاحظ من خلال هذه الفقرة تعدد الإشاريات الخطابية، حيث يرى صانعها أنّها ممزوجة بالعسل للأبرار الذين حافظوا على مبادئهم و صانوا أمتهم و أوطانهم، و هم في نظره قلة قليلة، و فيها أيضا اللّسع للفجّار و ما أكثرهم في نظره و زمانه؛ فاستخدام الكاتب لعبارتي (ما أقلّهم، و ما

[1]- المصدر السابق. ص518.

أكثرهم)، إشاريات خطابية دلّت على موقفه تجاه هؤلاء و أولئك، بل و الذين هم بيننا ممن يريد بيع القدس بثمن بخس.

و في حديثه عن كلام الكاهن، استخدم الكاتب بعض الإشاريات الخطابية تمثّلت في الضمير الغائب المفرد المذكر المستتر (هو) أحيانا، و الظاهر أحيانا أخرى و لذلك في قوله: "كلام الكاهن ليس بالواهي ولا الواهن، كأنما وخزه الماء، أو لمستْه السماء، ففيه من الماء إيراق، وفيه من السماء إشراق. شارف مكامن الغيوب ولَمَّا ... وورد معين العربية فورد جمًّا. عمر صحائف من ديوان العرب، وكان من شعرهم كالكرب من القَرَب، بل كان هو الشعر في أول أدواره، وكان قارعَ باب البيان وفارعَ أسواره"[1].

كما أشار الإبراهيمي إلى الفرق بين أسجاع الكهّان و أسجاعه فرأى أنّها-أسجاعه- "غصص تتبعها أوجاع"[2]، مستخدما ضمير المفرد المؤنث الغائب (هي).

د- الإشاريات الاجتماعية:

تعددت الإشاريات الاجتماعية في هذه المقالة، حيث أظهرت في كثير من المواضع العلاقة الاجتماعية بين المخاطِب و المخاطَب، من ذلك قوله في مقارنته بين الأسد الذي ورد نهر الأردن و فتك بأهله و بين ملك الأردن في ذلك الزمن: "قالوا أراد أسدًا قانصًا، وقلنا أراد رجلًا ناقصًا. قالوا: أراد كلبًا، روع قلبًا، ومزّق خلبًا، وأوسع المهج سلبًا، وقدم ضراغمة غُلبًا، أوطنها غابات غلبًا وذاد عنها أشاوس غلبا، قلنا: إنما أراد رجلًا ركب صعبًا، وباع شعبًا، وعقّ لؤيًّا وكعبًا، وسلك بنو أبيه شِعبًا، وسلك وحده شعبًا، وخذلهم في الجلى فملأ القلوب رعبًا، واشتفّ صُبابة المال، فلم يدَعْ لبائس حلسًا ولا لبائسة قَعْبًا ... لم يُرد أسدًا خادرًا، وإنما أراد رجلًا سادرًا، يظهر في زمن نحس، ويبيع ضفَّتي الأردن بثمن بخس...؛ إنهما لا يستويان؛ ذاك أسد غاب، رزقه في الناب، وهذا حلف وِجار، رزقه على الجار؛ ذاك يعيش على فرائسه، وهذا يعيش على فضلات سائسه، ذاك رمزُ إقدام، وهذا

[1]- المصدر السابق. ص519.

[2]- المصدر نفسه. ص519.

موطئ أقدام؛ ذاك ورد الفرات زئيرُه، وهذا جاوز الفرات تزويره؛ ذاك مشغول البال بتربية الأشبال، وهذا مشغول ... بعُرْس الغول."[1]. فقوله (وقلنا أراد رجلًا ناقصًا،... ركب صعبًا، وباع شعبًا، وعقَّ لؤيًّا وكعبًا، وسلك بنو أبيه شِعبًا، وسلك وحده شعبًا، وخذلهم في الجلى فملأ القلوب رعبًا، واشتفّ صُبابة المال، فلم يدَعْ لبائس حلسًا ولا لبائسة قَعْبًا...و غيرها) كلّها عبارات تدلّ على شدة انتقاد الكاتب لمواقف ذلك الحاكم الذي لم يكتف بخذلان شعبه بل خذل أسلافه و أجداده من بني هاشم أيضا، لذلك كانت العلاقة بين المتخاطبين توحي بعدم الاحترام و الاستنكار لكل أفعال المخاطَب و مواقفه التي أزعجت الميت و الحي، الأمر الذي جعل الإبراهيمي يقول عنه في موضع آخر من هذه المقالة: " أيها الخاذل للغزَّى، ما أنت لهاشم ... إنما أنت لعبد العزَّى، أغضبت سراة الحيّ، وأزعجت الميت منهم والحيّ، من لؤيّ إلى أبي نُمَيّ. فويحك، أما تخاف أن تهلك، يوم يقال: يا محمد إنه ليس من أهلك"؛ فكان النداء بـ(أيها الخاذل) و توجيه الخطاب إلى المخاطَب بصيغة الضمير المذكر المخاطب الظاهر (أنت) بالإضافة إلى (كاف) المخاطب في (فويحك)، و عدم استخدام صيغ التبجيل كمخاطبته بصيغة الجمع مثلا، كلّها إشاريات دالة على تخصيص ذلك الملك بالذمّ دون غيره من أسلافه، و لعلّ تحذيره بقوله (فويحك)، أكبر دليل على الانتقاص و الحطّ من منزلة المخاطَب الذي لم يرق في نظر الإبراهيمي إلى منزلة الملوك و الزعماء الذين شرّفوا أمّتهم و شعوبهم بمواقفهم و الثبات على مبادئهم، و دليل آخر في المقابل على شجاعة الكاتب و عدم خشيته في قول الحق لوم لائم.

و في موضع آخر من المقالة نفسها يصف الإبراهيمي الشاعر ابن العفيف التلمساني ب(العاهر) نظرا لما كان في بعض شعره من مجون و انخلاع حيث وصفه الصفدي بقوله:" شاعر مجيد ابن شاعر مجيد،[...] وكان فيه لعب وعشرة وانخلاع و مجون..."[2]، و في ذلك إشارة إلى رفض الكاتب لهذا النوع من الأشعار التي يغلب عليها الاستهزاء و التشبيب بالنساء.

[1]- المصدر السابق. ص520.

2- صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى، ج3، ط1، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 2000. ص109.

هـ- الإشاريات الزمنية:

وردت في إشاريات زمنية متنوعة بين الإشارة إلى الماضي و الحاضر و المستقبل، فمن النماذج الدالة على الإشارة للزمن الماضي نجد قول الكاتب: (**كنّا** إرهاصًا للنبوّة، ودليلًا للضعف إلى القوة- **كان** ... فكان الزاجر الرادع، للفاجر الخادع، وكان ... فكان نذير السارق والمارق، والخاتل والقاتل، والمحتال والمغتال...- وبالآخذين **أمس** من تلّ أبيب بالتلابيب، وبالبحر والسفينة...- وورد معين العربية فورد جمًّا. عمر صحائف من ديوان العرب، و**كان** من شعرهم كالكرب من القَرَب، بل **كان** هو الشعر في أول أدواره، و**كان** قارعَ باب البيان وفارعَ أسواره)، فالإشاريات (كنّا، كان، أمس) تدلّ على حدث وقع في زمن مضى؛ و من الإشاريات الدالة على الزمن الحاضر (زمن كتابة المقالات)، نجد قوله (فلما عادت الكسرويّة إلى شرائعها، والقيصرّية إلى ذرائعها، **آن** أن نعود إلى الإنذار، ونصرخ في وجوههم: حذار حذار، إن بطش الله لشديد، وإن الحرير قد يفلّ الحديد- فماذا نصنع؟ أنتقدّم منذرين، أم نتأخّر معتذرين؟ بل نُحيي الاسم، ونُميت- كما أمات الإسلام- الرسم- ولكنهم اليوم عادوا إلى الجاهليَّة)، فاستخدام الكاتب للفظ (آن)، و الفعل المضارع بصيغة المتكلّم الجمع، و لفظة (اليوم) دلّت على انتقال الزمن من الماضي إلى الحاضر، أما الإشاريات الدالة على الزمن المستقبل فنجدها في قوله (و**ستظهر** أخباؤها، وتُعلم أنباؤها- فويحك، أما تخاف أن تهلك، **يوم** يقال: يا محمد إنه ليس من أهلك)، حيث استخدم الإبراهيمي (السين) المقترنة بالفعل المضارع و لفظة (يوم) التي أشار بها إلى زمن مستقبل تمثّل في يوم القيامة.

و-الإشاريات المكانية:

أشار الكاتب إلى بعض المواضع في هذه المقالة منها (بحيرة طبرية) في قوله (أيّتها البُحيرة، مالك في حيرة؟)، و كذلك ذكره لـ(البحر الميّت) في قوله (لا يكن صوتك الصيت، و لو أحييت البحر الميت)، بالإضافة إلى مكانين معا و هما الضفة الشرقية و الضفة الغربية لنهر الأردن، في إشارة إلى الأردن و فلسطين، يقول (و إنما أراد رجلا سادرا، يظهر في زمن نحس، و يبيع ضفتي الأردن بثمن بخس..)، كما يشير أيضا إلى نهر الفرات في قوله (ذاك ورد الفرات زئيره، و هذا جاوز الفرات تزويره).

و لم تقتصر الإشاريات المكانية على الإحالة إلى تلك الأماكن الحقيقية، و إنّما نجد أيضا إشاريات مكانية معنوية أو مجازية إن صحّ التعبير، من خلال استخدام اسمي الإشارة (هذا، ذاك) في مقارنته بين الأسد و الملك، يقول(وحدّثني الولي يا (ولية)، أيّهما كان عليك بلية؛ **ذاك** الذي وردك زائرًا، أم **هذا** الذي وردك خائرًا؟ إنهما لا يستويان؛ **ذاك** أسد غاب، رزقه في الناب، و**هذا** حلف وِجار، رزقه على الجار؛ **ذاك** يعيش على فرائسه، **وهذا** يعيش على فضلات سائسه، **ذاك** رمزُ إقدام، و**هذا** موطئ أقدام؛ **ذاك** ورد الفرات زئيرُه، و**هذا** جاوز الفرات تزويره؛ **ذاك** مشغول البال بتربية الأشبال، و**هذا** مشغول ... بعُرْس الغول). و كأنّي بالإبراهيمي يشير إلى أعلى و أدنى مبينا منزلة كلّا منهما، أو كأني به يقول لنا ذاك بعيد عن كلّ ما يسوؤه و يقدح في شجاعته، و هذا قريب إلى كلّ الصفات الدنيئة التي تسيء إلى إنسان عادي فما بالك بملك من الملوك. و لعلّ الكاتب قد أصاب في استخدام اسم الإشارة (هذا) الدال على القريب ليقرّب لنا صورة الملك فيفضح كلّ أفعاله مما لا يدع مجالا للشكّ في صحّة أقوال الإبراهيمي؛ و مما يؤيّد هذا الرأي نضرب مثلا باثنين تخاصما سرق أحدهما كتابا للآخر فاحتكما إلى ثالث، فإذا استخرج هذا الأخير الكتاب من محفظة المتّهم فإنّ الشخص المسروق سيقول: **هذا** كتابي الذي سُرِق.

الإشاريات في المقالة الثانية:

أ- الإشاريات الشخصية:

لم تظهر الإشاريات الشخصية في هذه المقالة إلا في مواضع قليلة من ذلك قوله:" أحاجيكم، ولا أناجيكم...، فإن عرفتموه... "[1]، حيث وجّه الكاتب خطابه إلى جمع المخاطب المذكر (أنتم) و يعني به العرب جميعا، و قد دلّت عليه كاف الخطاب و ميم و واو الجماعة، كما تبدو الإشاريات الشخصية في قوله أيضا: " أيها العربي: الحق سافر، والعدو كافر، والقوي ظافر، فعلام تنافر خصمك إلى خُنافر؟ ويلك إن المنافرة لا تكون إلا في المشكوك، وإن الحق تحميه السيوف لا الصكوك، وويحك إنّ منافرة الكهنة إلى الكهنة، بالخيبة مرتهنة، مجلس الأمن مخيف، والراضي بحكمه ووضعه ذو عقل

[1]- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ص522-523.

سخيف، إنهم ليسوا من شكلِك، وإنهم متفقون على أكلك"[1]. تعددت الإشاريات الشخصية في هذا الموضع منها ما يشير إلى المخاطب المذكر (أنت) أي العربي، في قوله (أيّها العربي، كاف المخاطب في "خصمك، ويلك، ويحك، شكلك، أكلك")؛ و منها ما يشير إلى جمع الغائب المذكر (هم) في قوله: (**إنّهم** ليسوا من شكلك، و إنّهم متفقون على أكلك)، مشيرا إلى الدول الغربية. بالإضافة إلى ذلك نجد قوله: (إنّ عبد الله هذا لم يعرف أحد من هو...)، مستعملا اسم الإشارة (هذا) و الضمير المذكر الغائب (هو) في الإشارة إلى (عبد الله) الذي ذكره ابن خلكان في بيته و الذي استشهد به الكاتب في هذه المقالة.

و من الإشاريات الشخصية حديثه عن الملك المذموم بضمير المفرد المذكر الغائب (هو) و (الهاء) المتصلة في قوله: "وملك يأتمر ولا يحجُّ ولا يعتمر، يَحسُن فيه التمثيل بملك (التمثيل). بكت الجلالة منه كما بكى الخز من روح، وضاق صدرها بسرّه وشرّه ومَن لها بالبوح؟ عشقها يافعًا، والتمس لوصلها شافعًا، فكان الشافعُ عدوّ وطنه وقومه، وظالم أمسه ويومه؛ فأين يقع هذا من أرض الله؟ فإن عرفتموه فسلوه من ملكه، بعد ما لاكه وعلكه، وفي خرت الإبرة سلكه؟ ومن صيَّره غراب بين، وجالب حَيْن؟ ومن أعجم تعريبَه، وأحكم على الشر تدريبَه؟"[2].

ب- الإشاريات الخطابية:

وردت في هذه المقالة بعض العبارات الدالة على الإشاريات الخطابية من ذلك قوله: (ويلٌ للعرب، من حبل قد اضطرب... فويل للعرب من ملوكهم، وويل للعجم من سلوكهم، وويل للروم من صعلوكهم... ما أكثر الملوك وأهون العنا، وما أكثر السيوف وأقلّ الغنا، سيوف، كالدراهم الزيوف، هذه لا تُقني، وتلك لا تغني،... الحق سافر، و العدو كافر، و القوي ظافر...)، فقد أبان الإبراهيمي على مواقف متعددة محذرا تارة و متعجبا تارة أخرى، مستعملا كلمة (ويل) في الأولى، و صيغ (ما أكثر، و أهون، وأقلّ) في الأخرى، فقد حذّر الشعوب العربية و الغربية من قوّادهم، في زمن سادت

[1]- المصدر السابق. ص523.

[2]- المصدر نفسه. ص 522-523.

فيه العقارب، و غاب المسدّد في الرأي و المقارب؛ ثم تعجّب الكاتب من كثرة الملوك مختصا العرب بحديثه و كثرة سيوفهم، لكنّها سيوف يشبّهها بالدراهم الزيوف في عدم جدواها، ثم يناديهم معلنا موقفه تجاه تخاذلهم بقوله إنّ الحق سافر، و العدو كافر، و القوي ظافر، فلينظر كلّ واحد منهم ماذا يرى؟!

كما يشير الكاتب إلى موقفه من الدول الغربية و مجلس الأمن، محذرا العربي منهم فيقول: " وويحك إنّ منافرة الكهنة إلى الكهنة، بالخيبة مرتهنة، مجلس الأمن مخيف، والراضي بحكمه ووضعه ذو عقل سخيف، إنهم ليسوا من شكلِك، وإنهم متفقون على أكلك"[1]، و هو ما يؤكّده الاحتلال الصهيوني للقدس و شكوى الدول العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية و الأمم المتحدة على الباطل، حيث لم تحرّك ساكنا تجاه ما يجري من مجازر و جرائم، في غزة و غيرها من المدن الفلسطينية، بل إنّ بعض الدول العربية الآن –جويلية 2017– تسعى إلى حماية الصهاينة و ضمان أمنهم و استقرارهم من خلال التضييق على المقاومة في غزة و تصنيفها ضمن قوائم الإرهاب، فليت شعري ماذا سيقول الإبراهيمي لو سمع و رأى ما يحصل في هذا العصر؟

جـ–الإشاريات الاجتماعية:

استخدم الكاتب بعض الإشاريات الاجتماعية التي تدل على عدم احترامه لهذا الملك و جيشه و بطانته، فهو لم يخاطبه بصيغ التبجيل أو ما يليق بمقام الملوك و إنما قال عنه :" ونعيذ العروبة بالله من ملك لا يدفع، وسيف لا يقطع،... قد لصَّه قعيده في هيعه ... وناله بالبيع لا بالبيعه،... وجيش درّبه الغير، وجرّبه إلا في الخير، وبطانة مدّ بها الشيطان أشْطانَه، وحاشية كالماشية،... وملك يأتمر ولا يحجُّ ولا يعتمر، يَحسُن فيه التمثيل بملك (التمثيل)،... ومن صيَّره غراب بين، وجالب حَيْن؟ ومن أعجم تعريبَه، وأحكم على الشر تدريبَه؟"[2]. فكلّ هذه العبارات إشاريات دالة على مدى إدانته

[1]- المصدر السابق. ص523.

[2]- المصدر نفسه. ص522-523.

لذلك الملك موضوع الخطاب، و جيشة و حاشيته، و مما يؤكّد هذه الجفوة بين المتكلّم و المخاطب استعماله للضمير المفرد المذكر الغائب في الإشارة إليه كما وضّحنا سابقا في الإشاريات الشخصية.

كما وصف الكاتب من يقف وراء هذا الملك و يدعمه بالعدو قائلا: "والتمس لوصلها شافعًا، فكان الشافعُ عدوّ وطنه وقومه، وظالم أمسه و يومه"[1]. و نلمس في هذا الموضع إشاريات زمنية تمثلت في قوله (أمسه و يومه) و هي من الإشاريات القليلة المستعملة في هذه المقالة بالإضافة إلى قوله أثناء استشهاده ببيت (ابن خلكان): (أنشد ابن خلكان في القرن السادس...).

الإشاريات في المقالة الثالثة:

أ- الإشاريات الشخصية:

يكاد يكون الخطاب في هذه المقالة في مجمله موجها إلى العرب بصفة عامة، حيث وردت كثير من الإشاريات التي تحيل إلى هؤلاء سواء ما كان باستعمال ضمير المخاطب الجمع (أنتم) أم في استعمال (كاف الخطاب بالإضافة إلى ميم الجماعة (كم) من ذلك قوله: " أيها الأعارب، هل فيكم بقايا من حرب أو من محارب؟ دبّت بينكم العقارب، وأنتم أقارب... قرأوكم سطورًا لا رجالًا، وعرفوكم بطاءً عن الجُلَّى لا عِجالًا، وحفظوكم شعرًا بلا رويّ، وفكرًا بلا رويَّة فأخذوكم ارتجالًا، وخالوكم على البعد أعمالًا، فوجدوكم على القرب أقوالًا، وحسبوكم عُمَدًا في التركيب الأمميّ فألفوكم مفاعيلَ وأحوالا، فأعربوكم إعراب الفَضَلات، وعاملوكم معاملة المهملات، وراضوكم على المهانة حتى ذل جانبكم، ووطِّئت مناكبكم. فأصبحوا لا يُبالون برضاكم لأنه لا ينفع، ولا يأبهون لسخطكم لأنه لا يضرّ... إن للغرب فيكم مطايا ذللًا، ولرائده منكم أدلَّة أذلة... قادكم بسلوك من الأمراء والملوك، فقادوكم إلى الهاوية، فانزعوا المقادة من هؤلاء القادة تُفلحوا، ولن تُفلحوا ولن تصلحوا ما دام يلقاكم بوسيط واحد، فتلقَوْنه بسبعة سفراء، ويلقاكم برأي جميع، فتلقونه بسبعة آراء، ويلقاكم بكتيبة ملمومة، فتلقونه بشراذم شتّى... لن تفلحوا ولن تصلحوا إلا إذا رجع أمركم إلى الشعب..."[2].

[1]- المصدر السابق. ص523.

[2]- المصدر نفسه. ص524-525.

نلاحظ في هذه المقالة أنّ الكاتب ابتدأها بمخاطبة العرب جميعا مستعملا في ذلك صيغة منتهى الجموع (أعارب) على وزن (أفاعل) ليشمل خطابه بذلك كلّ العرب دون استثناء؛ كما أشار الكاتب إلى الدول الغربية بضمير الغائب الجمع (هم) تارة و بضمير الغائب المفرد (هو) تارة أرى، مشيرا بالأول إلى (دهاة المغارب) و مشيرا بالآخر إلى (الغرب)، و هو ما لاحظناه في المثال السابق، و يمكن ملاحظته في أمثلة أخرى من المقالة نفسها. بالإضافة إلى ذلك، أشار الإبراهيمي إلى (الأسلاف) مبيّنا بعد عرب اليوم عن حكمتهم و تدبيرهم مستعملا ضمير الجمع الغائب المستتر (هم) فيقول: " لقد أبقوا لكم من وحي السماء وحكمة الحكماء، ما لا يُبليه التراب، ولا تُنسيه الأحقاب، وما لو عملتم به لسدتم الكون أئمة، وقُدْتُم الكائنات بالأزِمَّة،..."[1].

ب–الإشاريات الخطابية:

تعددت الإشاريات الخطابية في هذه المقالة ما بين إبراز لموقف الكاتب من الغرب و إبراز لموقفه من العرب، فمن العبارات الدالة على موقفه الأول قوله:" إن لدُهاة المغارب يدًا خفيّة المسارب... إن للغرب فيكم مطايا ذللًا، ولرائده منكم أدلَّة أذلة. هم أصل البلاء و العلّة... ألا إن الغرب جاهد في أن يلحق بلفظ السبع منكم حرفين فإذا هو (سبعون)، وأن يزيد في عدد السبع من ملوككم فإذا هو سبعون"[2]. فكلّ هذه العبارات و مثلها حملت في طياتها إعلانا واضحا لموقف الإبراهيمي تجاه الدول الغربية التي سعت و تسعى دائما إلى تشتيت الصفوف العربية و إضعافهم بطرق ظاهرة و خفية، فهم بالنسبة له أصل كلّ بلاء و أساس كلّ هزيمة، و لعلّ ما يحدث للعرب خلال هذه السنوات العجاف من دمار و فتن و تقتيل و تهجير تحت ما يسمى بمصطلح الربيع العربي الذي وُلد في مخابر أجنبية، خير دليل على ذلك.

و من العبارات الدالة على موقفه الآخر قوله: " إن الغضبة لا تعقبها وثبة، هي غضبة الذليل العاجز، ولو افترَّت كلُّ بارقة منكم عن صاعقة، لما حمد شائموها القطر، إن غضبة العاجز لا تُبكي

[1]- المصدر السابق. ص525.

[2]- المصدر نفسه. ص524-525.

ولا تُنكي. تشتعل في الحنايا ولا تهدم الحنايا، تحرق صاحبها ولا تحرق الناس، وتلك هي غضبتكم حين تغضبون... لن تفلحوا ولن تصلحوا إلا إذا رجع أمركم إلى الشعب... فإن قلتم: إن هذا عسير، فعيشوا عيشة الأسير أو موتوا ميتة الحسير، شبر في الحياة وقبر في الممات... فتغافلتم أوّلًا، وتخاذلتم أخيرًا، وضاعت العروبة بين التغافل و التخاذل..."[1].

أبانت عبارات الكاتب هذه عن موقف مرّ تجاه القادة العرب لما لمسه فيهم من تخاذل و تغافل و صراع على الكراسي حتى ذلّ جانبهم و أصبحوا عاجزين عن مواجهة عدوّهم، بل إنّهم أصبحوا يستجدون بالأعداء من أجل المحافظة على عروشهم، فكيف لمن كان هذا حالهم أن يحرّروا و لو شبرا من أراضيهم المغتصبة، لذلك نجد الكاتب يدعو صراحة إلى نزع المقادة من هؤلاء لأنّهم كانوا قادة إلى الهاوية، حتى غضبتهم هي غضبة الذليل العاجز لأنها لا تضرّ و لا تنفع، و يرى أنّ صلاح هؤلاء لا يكون إلا برجوع أمرهم إلى الشعب.

جـ- الإشاريات الاجتماعية:

وردت في المقالة بعض الألفاظ و التراكيب الدالة على الإشاريات الاجتماعية من ذلك وصفه للدول الغربية التي زرعت الفتن بيد الدول العربية بالعقارب، في قوله: "دبّت بينكم العقارب و أننتم أقارب..."[2]، كما يصفهم في موضع آخر بـ(رقاب المزاود) في إشارة منه إلى طمع هؤلاء و جشعهم و تطلّعهم إلى ما عند العرب من خيرات فيقول: " وحتى ألقيتم بالمقاود، لمن سمّاهم أجدادُكم رقاب المزاود..."[3].

كما يصف الكاتب نظرة تلك الدول إلى العرب و حكامهم، و كأنّي به يعيش بيننا و يصف مرارة واقعنا، يقول: "وحسبوكم عُمَدًا في التركيب الأمميّ فألفوكم مفاعيلَ وأحوالا، فأعربوكم إعراب

[1]- المصدر السابق. ص524-525.

[2]- المصدر نفسه. ص524.

[3]- المصدر نفسه. ص525.

الفَضَلات، وعاملوكم معاملة المهملات، وراضوكم على المهانة حتى ذل جانبكم، ووطِّئت مناكبكم. فأصبحوا لا يُبالون برضاكم لأنه لا ينفع، ولا يأبهون لسخطكم لأنه لا يضر"[1].

لقد أصبحنا في لعبة الأرقام (الدولية) مجرّد صفر على الشّمال، وجودنا كعدمه، نأكل أرزاقنا و ننتظر آجالنا، بأسننا بيننا، نحارب الناجح حتى يفشل و لا نشجّع الفاشل حتى ينجح، فأنّى لنا أن نكون عمدا في التركيب الأممي ما دام هذا حالنا و حال حكّامنا.

د- الإشاريات الزمانية و المكانية:

لم ترد الإشاريات الزمنية كثيرا في هذه المقالة إلاّ ما ذكر في قول الكاتب: " وقامت عليكم الحجّة من ثلاثين حجة،..."[2]، أي ثلاثين سنة، و قوله:" ما لا يُبليه التراب، ولا تُنسيه الأحقاب..."[3]، أي الأزمان و الدهور.

كما لم تذكر الإشاريات المكانية كثيرا إلا ما ورد في قوله: " أيها الأعارب، هل فيكم بقايا من حرب أو من محارب؟... فقادوكم إلى الهاوية،...، ثم طلب الوقوف بالأعتاب فوطّأتم له أكناف البيت...، و إلاّ خرّب (أبرهة) الغرب بيت الله و بيتك...، وضع الأجداد العقال للرجل فنقلته الأحفاد إلى الرأس"[4]. حيث أشار إلى قبيلتي حرب و محارب، ثم أشار المكان الذي سيهوي به هؤلاء الحكّام بشعوبهم، مشيرا بعد ذلك إلى المكانة التي حظي بها الأعداء بفضل و مباركة هؤلاء الحكام، حيث هيّؤوا لهم الأوطان و يسّروا لهم السبل إلى استغلال ثروات البلاد و العباد. كما تضمنت هذه العبارات الإشارة إلى مكة المكرّمة، بالإضافة إلى موضع العقال الذي كان يضعه الأجداد في أرجل البعير فوضعه الأحفاد في رؤوس النّاس.

[1]- المصدر السابق. ص524.

[2]- المصدر نفسه. ص525.

[3]- المصدر نفسه. ص525.

[4]- المصدر نفسه. ص524-525-526.

الإشاريات في المقالة الخامسة*:

أ- الإشاريات الشخصية:

كثرت الإشاريات الشخصية و تعددت ما بين مخاطبة الأسلاف و الأخلاف، فظهرت من خلال ضمير المخاطب الجمع (أنتم) تارة، و ضمير الغائب الجمع (هم) تارة أخرى، مثال ذلك قوله: " يا أخلاف لم يسبق مخلاف، بنيتم السد وأحكمتم للثغور السد، وأحسنتم لأواخي الأخوّة الشدّ، وجددتم للأبناء ما بناه الجدّ؛... أعرض أسلافكم عن هدى الله فباعد بين أسفارهم، وجعلهم أحاديث، ومزقهم كل ممزق. وأعرضتم عن سنن الله فباعد بين قلوبكم، وكنتم أهون عليه من أن يُسَيَّر فيكم حديث، أو يسطّر في شأنكم قصص، **أولئك** أخذوا على قوّة، فالأحاديث عنها تملأ المسامع، وتهزّ المجامع؛ وأنتم أخذتم على ضعف وانحلال، فالحديث عنكم لا يُثير عزّة، ولا ينير السبيل إلى قدوة"[1].

فبالإضافة إلى استعمال الضمائر المذكورة سابقا، فقد استعمل الكاتب اسم الإشارة (أولئك) أيضا في حديثه عن الأسلاف، و (كاف) الخطاب و (ميم) الجماعة في الإشارة إلى الأخلاف.

كما أشار الإبراهيمي في هذه المقالة إلى الكهّان مبيّنا عجزهم على أن يأتوا و لو بآية من القرآن الكريم فقال: " لو بذل الكُهّان، ما عزَّ وما هان، في أن يأتوا بمثل قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لما حصّلوا، ولو رقوا إلى سماء البلاغة بسلّم وكان فيهم العض والملهم والمكلم، لما وصلوا؛ جلّ كلام الله، وقلّ كلام الكاهن"[2].

و أثناء مخاطبته للأخلاف يشير الكاتب إلى بني العباس و العلويين و العبيديين بأسمائهم و الضمير الغائب الجمع (هم) فيقول: " إن الألوان، على الدلالة أعوان، سوّد بنو العباس لسؤددهم، وبيَّض العلويون لطهارتهم، وخضَّر العبيديون لدعواهم ودعايتهم، وزرّقتم... لماذا؟ ..."[3].

*- انتقلنا إلى المقالة الخامسة دون الرابعة لارتباطهما بموضوع واحد و هو اليمن، و لوجود الإشاريات في المقالة الخامسة أكثر من الرابعة.

[1]- المصدر السابق. ص530-531.

[2]- المصدر نفسه. ص531.

[3]- المصدر نفسه. ص531.

ب–الإشاريات الخطابية:

أعرب الكاتب عن موقفه تجاه الأسلاف و الأخلاف مبينا أسباب هلاكهم، فاستعمل بعض العبارات الدالة على الإشاريات الخطابية من ذلك قوله: " أعرض أسلافكم عن هدى الله **فباعد بين أسفارهم، وجعلهم أحاديث، ومزقهم كل ممزق**. وأعرضتم عن سنن الله **فباعد بين قلوبكم، وكنتم أهون عليه من أن يُسَيَّر فيكم حديث، أو يسطّر في شأنكم قصص، أولئك أخذوا على قوّة،** فالأحاديث عنها تملأ المسامع، وتهزّ المجامع؛ **وأنتم أخذتم على ضعف وانحلال،** فالحديث عنكم لا يُثير عزّة، ولا ينير السبيل إلى قدوة"[1].

فكلاهما عوقب لبعده عن هدى الله عز وجلّ و سننه، لكن الفرق بين العقابين أنّ الأسلاف أخذوا على قوة و جبروت و تكبّرهم على الله تعالى، أما الأخلاف أخذوا بسبب ضعفهم و هوانهم على الله عز وجلّ، فقد اتخذوا الأعداء أولياء من دون الله فكانت عاقبتهم الهلاك و الزوال.

جـ– الإشاريات الاجتماعية:

أبدى الإبراهيمي احترامه و تقديره للأسلاف و ما قدّموه و ورّثوه من آثار و حكمة، و تساءل في المقابل عمّا قدّمه الأخلاف و ما صنعوه في شكل استفهام إنكاري ليدلّ على أنّهم لم يقدّموا شيئا يذكره لهم التاريخ، فحملت عباراته في طياتها مدحا للأسلاف و ذمّا للأخلاف، يقول: " يا أسلاف، ورّثتم الحكمة وسيّرتم الأمثال والفِقَر، وعمرتم من التاريخ صحائف بالمحامد، وشغلتم القرون بالحديث عنكم، وشدتم الباقيات للحضارة، وزيّنتم الحياة بالقوة والبأس الشديد، وسبقتم العالم إلى موارد العزة في الدنيا، ووقفتم في نصف هذه الكرة تحكمون وتتحكّمون، وتصلون شرقها بغربها وتقسمون، فبدتم وما بادت آثاركم ولا أخباركم.

ويا أخلاف، ماذا صنعتم؟ وبماذا اقتنعتم؟ هذه آثار سلفكم، عرف الغريب مواقعها، وجهلتم مواضعها، فهل النسب مدخول؟ أو الانتساب غير منخول؟ ويلكم!..."[2].

[1]- المصدر السابق. ص531.

[2]- المصدر نفسه. ص531.

و في إشارته إلى أعداء اليمن يقول الكاتب: " إن للظماء مآرب في ماء مارب..."[1]، حيث وصفهم بالظماء بسبب جشعهم و رغبتهم في السيطرة على اليمن و ثرواته.

د- الإشاريات الزمنية و المكانية:

نجد في هذه المقالة بعض العبارات الدالة على الإشاريات الزمنية خاصة و أنّه بصدد المقارنة بين ما فعله الأسلاف و الأخلاف في اليمن قديما و حديثا، من ذلك تكراره لكلمة (اليوم) أثناء مخاطبته الأخلاف، يقول: (فماذا أغنى أخلافك اليوم؟.. إنّها اليوم رمال...إنّها اليوم قفار... إنّها اليوم مجاهل...)؛ أما في مخاطبته للأسلاف فقد استعمل الإبراهيمي صيغة الماضي للإشارة إلى ما فعلوه، من ذلك قوله: (ورّثتم الحكمة وسيّرتم الأمثال والفِقَر، وعمرتم من التاريخ صحائف بالمحامد، وشغلتم القرون بالحديث عنكم، ... وسبقتم العالم إلى موارد العزة في الدنيا...)، فإلى جانب صيغة الماضي التي وردت بها الأفعال المذكورة فقد استعمل الكاتب أيضا بعض الألفاظ الدالة على الزمن منها: (التاريخ، القرون، سبقتم...).

أما الإشاريات المكانية فقد وردت في المقالة من خلال ذكر بعض الأماكن و المدن من ذلك قوله: "ومن دخل ظفار فحمَّر... إن للظماء مآرب في ماء مارب... ، و يا سبأ، هل كنت من سيل العرِم على ميعاد... و اتخذت غسّان منه إلى جنان الشام سبيلًا... فخرب اليمن ومحافده.... وأين البلدة الطيبة؟..."[2]، فالأماكن المذكورة هي: ظفار، مأرب، اليمن، البلدة الطيبة، الشام، سبأ. بالإضافة إلى ذكره لأماكن أخرى منها قوله:" ووقفتم في نصف هذه الكرة تحكمون وتتحكّمون، وتصلون شرقها بغربها وتقسمون..."[3]، في إشارة إلى الموقع الجغرافي لليمن.

[1]- المصدر السابق. ص530.

[2]- المصدر نفسه. ص530.

[3]- المصدر نفسه. ص531.

الإشاريات في المقالة السادسة:

أ- الإشاريات الشخصية:

عالج الإبراهيمي في هذه المقالة القضية الفلسطينية، فكان خطابه موجّها إلى العرب جميعا، و متحدثا عن ما فعله الغرب و اليهود بهم، فاستعمل من الإشاريات الشخصية ما دلّ على جمع المخاطب المذكر (أنتم) و ضمير الجمع الغائب المذكر (هم) في قوله: "أنَسيتم يوم تنادوا مُصْبِحين، وتعادوا مسلّحين... أنسيتم ما فعله صلاح الدين بالمعتدين؟ إن نسيتم أمسكم فهم له ذاكرون، وإن كفرتم بيومكم فهم له شاكرون. أين كنتم يوم أعطوا العهود لليهود؟ أم أين كنتم يوم جاءوكم بالفهود في المهود؟ أم أين كنتم يوم آمنوا بإسحاق وكفروا بهود؟ كلّ ذلك وقع وأنتم شهود، ولكنهم كانوا أيقاظًا وأنتم رقود، أمعنوا في الاستعداد وأمعنتم في الرُّقاد، اعتمدوا على العلم و (الريال) واعتمدتم على الجهل والخيال، جاءُوكُم بصف واحد كملمومة الصخر، وجئتموهم بصفوف متخاذلة، جاءُوكُم على قلب رجل واحد، وجئتموهم بقلوب متنافرة، قادهم إلى الظفر قائد واحد ورأيٌ جميع، وقادكم إلى العار قوّاد متشاكسون ورأيٌ شتيت، ما أضاع السيادة إلا توزيع القيادة، اجتمعوا وافترقتم، فسَلِموا واحترقتم... أيها العرب: بعضكم أبرار، وجلكم أشرار، وكلكم أغرار "[1].

كما كان لـ(كاف) المخاطب و (ميم) الجماعة المقترنان بالأفعال في كثير من الأحيان بالإضافة إلى (بعض، كلّ، جلّ) دور في الإشارة إلى العرب في هذا المثال، و هو الدور نفسه الذي أدته (هاء) الغائب مع (ميم) الجماعة في الإشارة إلى الغرب و اليهود.

ب- الإشاريات الاجتماعية:

وردت في هذه المقالة بعض العبارات الدالة على بغض الإبراهيمي للعرب أجمعين بسبب تخاذلهم و تخلّفهم عن نصرة القضية الفلسطينية و سماحهم قبل ذلك للغرب بتسليم بعض فلسطين للصهاينة الغاصبين، فمن تلك العبارات نجد قوله عن العرب:" أيها الهائمون في البيد، النائمون على الذل المبيد، الراضون بعيشة العبيد... فإن شرًّا منه عقلكم الذي جرّ العار للعرب أجمعين، وكرّ بالخزي على

[1]- المصدر السابق. ص533.

جميع المسلمين"[1]. و من الإشاريات الاجتماعية أيضا وصفه لليهود بالذؤبان و الغربان في قوله: "ذؤبان تقدمها رهبان، وغربان تظلّلها صلبان، بنفوس من الحقد ثائرة، وقلوب بالبغضاء فائرة"[2]؛ كذلك وصفه للعربي بالزّنيم* إذا بقي في مجلس الأمم المتحدة (على الباطل)، فيقول:" وإن العربيّ لزنيم إذا بقي في المجلس"[3]. فكأنّي به يدعوه إلى عدم البقاء في هذا المجلس المشؤوم لأنّ أعضاءه لا يعدّونه منهم أصلا و لا يحتاجون إليه، فلِم البقاء معهم؟

فإن أصرّ على البقاء معهم فقد صار شريرا مثلهم. و مما يدلّ على ذلك وصفه لهؤلاء الدول في موضع آخر بالشياطين في قوله: " وشياطين تنزو للإغراء إثر شياطين..."[4]، فهو يعدّهم شياطين تسبّبت في تشرذم العرب و إغرائهم بكلّ الوسائل من أجل التفريط في القضية الفلسطينية مثلما هو حالنا اليوم الذي أصبحت فيه المقاومة الفلسطينية توصف بالمنظمات الإرهابية من طرف بعض الدول شبه العربية...

جـ- الإشاريات الزمانية و المكانية:

لم ترد الإشاريات الزمنية في هذه المقالة إلاّ قليلا، من ذلك تكراره لكلمة (يوم) في مواضع مختلفة منها قوله: " ويوم في أعناقكم بيوم حطّين... أنَسيتم يوم تنادوا مُصْبِحين.... أين كنتم يوم أعطوا العهود لليهود؟ أم أين كنتم يوم جاءوكم بالفهود في المهود؟ أم أين كنتم يوم آمنوا بإسحاق وكفروا بهود؟... تالله ما ضاعت فلسطين اليوم، ولكنها ضاعت يوم وُعدوا بها..."[5]. لكن الملاحظ أنّ الدلالة الزمنية لكلمة (يوم) في هذه المواضع تختلف باختلاف الكلمات المصاحبة لها في السياق، فـ(يوم حطين) مثلا ليس هو نفسه الفترة الزمنية التي أشار إليها الكاتب في قوله (يوم آمنوا بإسحاق

---

[1]- المصدر السابق. ص532-533.

[2]- المصدر نفسه. ص533.

*- قال الفرّاء: الزّنيم : الدّعيّ الملصق بالقوم و ليس منهم، و قيل: الزّنيم: الذي يعرف بالشّرّ و اللّؤم... ابن منظور الإفريقي: لسان العرب، م12. ص277.

[3]- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ص532.

[4]- المصدر نفسه. ص532.

[5]- المصدر نفسه. ص532-533.

وكفروا بهود)، و هكذا، كانت الإشاريات الزمنية واحدة من حيث الشكل، و متعددة من حيث المضمون بحسب السياق و ما صاحبها من ألفاظ و تراكيب.

و من الإشاريات الزمنية أيضا نجد قوله: " إن نسيتم أمسكم فهم له ذاكرون..."[1]، حيث أشارت كلمة (أمس) إلى أيام عزّ المسلمين أيّام صلاح الدين الأيوبي و افتتاحه لبيت المقدس.

كما نجد في هذه المقالة إشارة زمنية أخرى أثناء حديثه عن ضياع فلسطين تجلّت في قوله: " بل ضاعت قبل ذلك بقرون، منذ نبت قرن صهيون"[2]. حيث استعمل الكاتب كلمتي (قبل) و (منذ) للإشارة إلى زمن ضياع فلسطين، ضياع كان (قبل) وعد بلفور، و (منذ) أن نشأت الحركات الصهيونية.

أما الإشاريات المكانية فقد كانت قليلة أيضا، تمثّلت في ذكر أسماء بعض الدول و المدن منها قوله: "جاء النصر من مصر، فلماذا تخلّفت البصرة عن النصرة؟ قلب وجف بالنجَف، بعد ما رقأ الدمُ وجفّ"[3]. فبالإضافة إلى دولتي (مصر) و (فلسطين) ذكر الكاتب مدنا عراقية تمثّلت في مدينتي (البصرة) و (النجف)؛ كما أشار الإبراهيمي إلى أماكن غير محددة حين تحدّث عن الدعوات التي أدّت إلى توطين اليهود في فلسطين من قبل دول غربية كثيرة لم يذكر اسمها و لا موقعها و لكنّه قال عنها: " وتعاووا من كل حدب، وتهاووا من كل صبب..."[4]، أي تعاووا من كلّ مرتفع من الأرض و من كلّ منحدر فيها.

[1]- المصدر السابق. ص533.

[2]- المصدر نفسه. ص533.

[3]- المصدر نفسه. ص533.

[4]- المصدر نفسه. ص533.

الإشاريات في المقالة السابعة:

أ- الإشاريات الشخصية:

يخاطب الإبراهيمي في هذه المقالة شعب الدولة الليبية محذّرا إيّاهم من مغبة التفرقة و الاغترار بالوعود الخالبة من الدول الغالبة، يقول:" أي جيران الشمال، ومعاقد الآمال، أعيذكم بالعروبة وهي الأمّ،... وبما أرقتم من دموع ودماء... وبالإسلام -وهو الذِّمام- أن تختلفوا في الحق، فترضوا بالشقّ، أو توسعوا الشقّ، فتقعوا جميعًا في الرقّ، وأعيذكم أن تغتروا بالوعود الخالبة من الدول الغالبة، فإنما ذلك إبساس من الأيدي الحالبة، وأعيذكم أن تُنْكروا التقسيم وأنتم منقسمون، وأعيذكم أن يكون غرب النيل كشرق الأردن ... وأعيذكم أن ترضوا بالخفض، ولا تقبلوا (الضم)، إن الضم علامة (البناء)، وآية (استقرار) البناء، فاجهدوا في إثبات الضم وخلاكم ذم"[1]. فقد خاطبهم الإبراهيمي من خلال ضمير المخاطب الجمع المذكر (أنتم) تارة، و من خلال (كاف) المخاطب و (ميم) الجماعة المتصلين تارة أخرى.

كما تحدّث الكاتب عن تلك الدول الغربية مشيرا إليهم بضمير الغائب الجمع (هم)، و اسم الإشارة (هؤلاء) بالإضافة إلى ضمير المفرد الغائب (هو) الذي دلّت عليه (الهاء) المتصلة بالفعل في قوله: "إنّ هؤلاء الأقوياء كلما عجزوا عن قيادة الجمع قادوهم بواحد ... فاحذروا ذلك الواحد، وإن الجانب الغربي لكم عدوٌّ، فاتّخذوه عدوًّا، واحذروه رواحًا وغُدوًّا، واحذروه قلقًا وهدوًّا"[2]. و الملاحظ في هذا المثال أنّ الكاتب قد نبّه الشعوب العربية إلى أنّ الدول الغربية إذا عجزت عن التحكّم في شعب ما قادته بواحد منهم، يكون عونا لهم على إخوانه و أبناء وطنه، فحذّرهم من ذلك الواحد مستخدما اسم الإشارة (ذلك).

[1]- المصدر السابق. ص534.

[2]- المصدر نفسه. ص534.

ب- الإشاريات الاجتماعية:

وردت في هذه المقالة بعض الإشاريات الاجتماعية إلاّ أنّها كانت قليلة، منها تلك التي بدت أثناء الحديث عن الدول الغربية، فبعد أن وصفهم الكاتب بأنّهم دول غالبة و أقوياء أردف بوصفهم بالأيادي الحالبة و الأعداء يجب الحذر منهم و من كيدهم، يقول: " وأعيذكم أن تغتروا بالوعود الخالبة من الدول الغالبة، فإنما ذلك إبساس من الأيدي الحالبة... وإن الجانب الغربي لكم عدوٌّ، فاتّخذوه عدوًّا، واحذروه رواحًا وغُدوًّا..."[1]؛ بل وصفهم في موضع آخر بالدخيل الطارق و اللص السارق، كما وصف ذلك الواحد الذي حذّر منه الشعوب العربية بالأصيل المارق، يقول: "وويح برقة البوارق، من الدخيل الطارق، ومن الأصيل المارق، ومن اللص السارق"[2].

و من الإشاريات الدالة على تقديره للشعب الليبي وصفه بالجار في قوله: "أي جيران الشمال، ومعاقد الآمال..."[3]، و لعلّ الإبراهيمي لا يقصد بالجار المجاورة بالحدود الجغرافية بل يحيل إلى ما للجار المسلم من حقوق على جاره من حيث النصح له و الدفاع عنه.

جـ- الإشاريات الزمانية و المكانية:

استعمل الكاتب الإشاريات الزمنية في هذه المقالة في ثلاثة مواضع، يقول: " وإذا صفحة من تاريخ ملوك الطوائف تُعاد...، عمر الشهيد و ما عهده بالعهيد...، وباذلو الماعون في ساعة العُسْر، جُزُوا في العاقبة بالخسر..."[4]، حيث أشار في الأولى إلى تلك الفترة التاريخية التي أعلن فيها الوزير (أبو الحزم بن جهور) سقوط الدولة الأموية في الأندلس، مما حدا بكل أمير من أمراء الأندلس ببناء دويلة منفصلة، وتأسيس أسرة حاكمة من أهله وذويه. و أشار في الثانية إلى تلك الفترة التي حارب فيها (عمر المختار) الغزو الإيطالي منذ دخوله إلى ليبيا، أما الثالثة فقد أشار من خلالها إلى تلك الفترة التي سعت فيها السلطات الإيطالية إلى بثّ الخلاف بين المجاهدين الليبيين من أجل إضعاف الثورة.

---

[1]- المصدر السابق. ص534.

[2]- المصدر نفسه. ص535.

[3]- المصدر نفسه. ص534.

[4]- المصدر نفسه. ص534-535.

و من الإشاريات المكانية التي وردت في هذه المقالة نجد الإشارة إلى بعض الأماكن و المدن الليبية منها قوله: " ويحَ فزّان، هل أتاها نبا وزّان؟...، بارقٌ في برقة، شمنا من بعيد برقه..."[1]، حيث تعد كلّ من (برقة، فزّان، وزّان أو وازن) مدنا ليبية أشار إليها الكاتب مثلما أشار إلى أماكن أخرى منها قوله: "وأعيذكم أن يكون غرب النيل كشرق الأردن..."، في إشارة إلى الدولة الليبية و المملكة الأردنية اللتان تقعان غرب و شرق نهري النيل و الأردن على التوالي؛ فهو لا يريد أن تكون أخبار ليبيا و سمعتها مثلما هو الحال في الأردن، و لا يقبل للشعب الليبي إلاّ الضمّ و الوحدة لأنّ الضمّ كما قال:" علامة (البناء)، وآية (استقرار) البناء، فاجهدوا في إثبات الضم وخلاكم ذم"[2].

أما إشارته إلى ليبيا فكانت بقوله: " وإذا القيصرية- المحروبة في كل وطن- تبدو في هذا الوطن المحروب قرونها...، أي جيران الشمال..."[3]، فقوله: (هذا الوطن) إشارة مكانية إلى ليبيا حسب ما دلّ عليه سياق الخطاب الذي يذكر فيه الإبراهيمي بعض المدن الليبية بالإضافة إلى إشارته إلى كفاح (عمر المختار)؛ أما قوله (جيران الشمال) فهو إشارة إلى مكانها الجغرافي في شمال إفريقيا بجوار الجزائر من ناحية جنوبها الشرقي.

[1]- المصدر السابق. ص534 – 535.

[2]- المصدر نفسه. ص534.

[3]- المصدر نفسه. ص534.

ثانيا: الأفعال الكلامية

1- الأفعال الكلامية في المقالة الأولى:

رقم الفقرة	أفعال الأحكام أو الإعلانيات	الأفعال التنفيذية أو التوجيهيات	أفعال الالتزام و التعهد أو الالتزاميات	أفعال السلوك أو التعبيريات	أفعال الإيضاح أو العرض أو الإخباريات
01				فلعلّها **تهزّ** من أبناء العروبة جامدا، او **تؤزّ** منهم خامدا.	**فنجني** شيئا من ثمرة النيّة و **نغيّر** أواخر هذه الأسماء المبنية...
02		ولو **حفِظوه** و**وَعَوْا** معانيه و**أقروه** في مواضعه... و**أحسَنوا إجراءه** ...		**فعفّروا** في وجوه الحسان...	**لأحيَوْه فحيوا** به... ولكن **أعياهم** الإحسان... و**عجزوا** في جني الثمرة عن الهصر، **فرضوا** من اللغة..
03		آن أن نعود إلى **الإنذار**...		و**نصرخ** في وجوههم: **حذار حذار**..	فلما جاء الحق، وحيص الشق، **اندحرنا** و **انجحرنا**...
04	الكاهن، **لا يُداري** و**لا يداهن**...	**وحكّموا** هديَه في سرائرهم... فماذا **نصنع؟ أنتقدّم** منذرين، أم **نتأخّر**		**تجف** قلوبهم إذا نوفروا إليه، و**تجفّ** لهواتهم إذا وقفوا بين يديه... بل **نُحيي** الاسم،	**عاذ** غيره بالتصريح **فعاد** بالتجريح، و**لاذ** هو بالكهانة، **فأمِن** المهانة... **لاستتارهم** بالعيب، **واستهتارهم** بالغيب...

		معتذرين؟		و**نُميت**- كما أمات الإسلام- الرسم.	فلما جاء "محمد" بالحق **فاء** الناس إلى ضمائرهم... **وردُّوا** الغيب إلى عالمه **فاستراحوا**.. ولكنهم اليوم **عادوا** إلى الجاهليَّة، و**تقلّبوا** في أرحام حنظليّة.
05		و**ليسهل** على الناس **فيحفظوه وَيعُوه**...		اصطنع الكهّان السجع **ليروقوا** السامع و**يروعُوه**...	**شارف** مكامن الغيوب... **وورد** معين العربية... **عمّر** صحائف... **سبقوا** في السجع فما سبقتهم إلا الحمائم، و**أخذوه** طبعًا...
06		و**يبيع** ضفَّتي الأردن بثمن بخس... وأيْن ليث **عفَّره** بدر بسوط، من شخص **كفَّره** صدْرٌ بنوط...	و**ستظهر** أخباؤها، و**تُعلم** أنباؤها... **فويحك، أما تخاف** أن **تهلك**..	**روع** قلبًا، و**مزّق** خلبًا، و**أوسع** المهج سلبًا، و**قدم** ضراغمة غُلبًا، **أوطنها** غابات غلبًا و**ذاد** عنها أشاوس غلبا...	إنما أراد رجلًا **ركب** صعبا...

				وباع شعبًا، **وعقَّ** لؤيًّا وكعبًا، **وسلك** بنو أبيه شِعبًا، **وسلك** وحده شعبًا، **وخذلهم** في الجلى **فملأ** القلوب رعبًا، **واشتفّ** صُبابة المال، فلم **يدَعْ** لبائس حلسًا ولا لبائسة قَعْبًا... **أغضبت** سراة الحيّ، **وأزعجت** الميت منهم والحيّ..	

المقالة الثانية:

رقم الفقرة	أفعال الأحكام أو الإعلانيات	الأفعال التنفيذية أو التوجيهيات	أفعال الالتزام و التعهد أو الالتزاميات	أفعال السلوك أو التعبيريات	أفعال الإيضاح أو العرض أو الإخباريات
01	ويلٌ للعرب، من حبل قد **اضطرب**، وشرٍّ قد **حلّ** ولا أقول قد **اقترب**...				**قُسم** الويل، على العميم و الخُويل... **جنت** على الأصفر ناره..

02		وجيش **درّبه** الغير، و**جرّبه** إلا في الخير... فسلوه من **ملكه،** بعد ما **لاكه وعلكه،** وفي خرت الإبرة **سلكه؟** ومن **صيَّره** غراب بين، وجالب حَيْن؟ ومن **أعجم** تعريبَه، و**أحكم** على الشر تدريبَه؟		**أحاجيكم، ولا أناجيكم..** وبطانة **مدّ** بها الشيطان أشْطانَه... **بكت** الجلالة منه... و**ضاق** صدرها بسرّه..	هذه لا **تُقني،** وتلك لا **تغني...** و**نعيذ** العروبة بالله من ملك **لا يدفع،** وسيف **لا يقطع...** وملك **يأتمر** ولا **يحجُّ** ولا **يعتمر...** **عشقها** يافعًا، و**التمس** لوصلها شافعًا...
03	وإن الحق **تحميه** السيوف لا الصكوك...	**فعلام تنافر** خصمك إلى خُنافر؟			

المقالة الثالثة:

رقم الفقرة	أفعال الأحكام أو الإعلانيات	الأفعال التنفيذية أو التوجيهيات	أفعال الالتزام و التعهد أو الالتزاميات	أفعال السلوك أو التعبيريات	أفعال الإيضاح أو العرض أو الإخباريات
01	إن غضبة العاجز **لا تُبكي ولا**	ولو **افترَّت** كلُّ بارقة منكم عن صاعقة، لما **حمد**		فأعربوكم... وعاملوكم... وراضوكم...،	**دبّت** بينكم العقارب... **فتكدَّرت** المشارب، و**تقوَّضت**

	تُنكي. **تشتعل** في الحنايا **ولا تهدم** الحنايا، **تحرق** صاحبها **ولا تحرق** الناس..	شائموها القطر.		و**وطِّئت** مناكبكم. فأصبحوا **لا يُبالون** برضاكم لأنه **لا ينفع**، و**لا يأبهون** لسخطكم لأنه **لا يضرّ**.	المضارب. و**كهُمت** المضارب، و**غاب** المسدِّد في الرأي والمقارب... **قرأوكم** سطورًا...، و**عرفوكم** بطاءً ...، و**حفظوكم** شعرًا... **فأخذوكم** ارتجالًا، و**خالوكم**....، **فوجدوكم** على القرب أقوالًا، و**حسبوكم** عُمَدًا...، **فألفوكم**...
02	**فعيشوا** عيشة الأسير أو **موتوا** ميتة الحسير...	**قادكم** بسلوك من الأمراء... **فقادوكم** إلى الهاوية... **فانزعوا** المقادة... و**أجمع** الشعب على رأي واحد، و**اتفق** الرأي	...من هؤلاء القادة **تُفلحوا**. و**لن تُفلحوا** و**لن تصلحوا** ما دام...		**جاءتكم** النذُرُ تترى، ...و**قامت** عليكم الحجّة من ثلاثين حجة، **فتغافلتم** أوّلًا، و**تخاذلتم** أخيرًا، و**ضاعت** العروبة بين التغافل والتخاذل.

		على نظام واحد، و**تمخّض** النظام بدستور واحد...			
03	إن الزيت إدام، **ازدحمت** عليه الأقدام...	فيا أرض **ابلعي** زيتَك، وَأَحْيِ ميتك..		**وقف** الغرب بالباب **فلم تتحرّكوا**... ثم **أنشب** الظفر والناب **فلم تستدركوا**، ثم **دسّ** أنفه في التراب... ثم **طلب** الوقوف بالأعتاب **فوطّأتم** له أكناف البيت. وإلا **خرّب** (أبرهةُ) الغرب بيت الله وبيتك.	**فحرمه** الجبان و **حازه** المقدام... ألا إن الغرب **جاهد** في أن **يلحق** بلفظ السبع منكم حرفين فإذا هو (سبعون)، وأن **يزيد** في عدد السبع من ملوككم فإذا هو سبعون.
04		ما **أضيَعَ** حكمة الأسلاف عندكم...	وما لو **عملتم** به **لسدتم** الكون أئمة، و**قُدْتُم**		لقد **أبقوا** لكم من وحي السماء... ما **لا يُبليه** التراب، **ولا تُنسيه** الأحقاب..

			الكائنات بالأزِمَّة، و **لفللتم** السيوف بالآراء، و**دحضتم** الآراء بالسيوف...		ولكنكم **أضعتم** التراث بتشاكس الورّاث...
05		فهل **يأسوها** "ديكتاتور"؟ **وضع** الأجداد العقال للرجل **فنقلته** الأحفاد إلى الرأس و **عدلوا** به...		**أطعتم** الكبراء **فأضلُّوكم،** و**خضعتم** للأمراء **فأذلّوكم،** حتى **لِنتم** للعاجم، و**دِنْتم** للأعاجم، وحتى **ألقيتم** بالمقاود...	**لم يأسُ** جراحَكم ألف "دكتور" وما بين النقل والنقل، **ضاع** العقل..

المقالة الرابعة:

رقم الفقرة	أفعال الأحكام أو الإعلانيات	الأفعال التنفيذية أو التوجيهيات	أفعال الالتزام و التعهد أو الالتزاميات	أفعال السلوك أو التعبيريات	أفعال الإيضاح أو العرض أو الإخباريات
01				لا أقول: **وُقيت** الأسواء، ولا أقول: **سُقيت** الأنواء،	**سموك** السعيدة **فشقيت** بمن **ولدت،** وما **سعدوا** ولا **سعدت**...

				ولكن أقول: **ثكلت** الأبناء...	
02				وَ**حاورها** النجيُّ فما **سمع** لها صوت... وأما صنعا، فما **أحسن** بنوها صنعًا...	أما ظفار، فقد **حالف** عهدها الإخفار، و**خالف** ظلامها الإسفار... وأما حضرموت، فقد **ساورها** الموت، و**جاورها** الخسران والفوت... و**طار** الناس فما **حبتْ** ولا **مشت**. **انعكست** الخصائص و**غلبت** النقائص...
03			هلّا **وقفت** بالأطلال... و**هبطت** التلاع...		قد **دُخلت** الدار من جميع الأقطار...
04			وَ**دع** عنك نهبًا صيحَ في حجراته... **سل** سبأ... وَ**قل** صدق..	**كذب** الرعد، وَ**أخلف** الوعد...	وَ**أورد** الإبلَ سعد، **فضاع** (قبل) و**لم يُحفظ** (بعد)... لقد **سار** أعقابكم... **فبادوا** في الجيل الحديث...

05			**نادِ**– مسمِعًا– في الجمع الراشد... **فقل**: دهمكم السيل... **طمست** السوافي، ما **خلَّدت** القوافي... و**هفت** الهوافي... و**فرست** العوافي...		فإن **أصاخوا** إصاخة الناشد...	**ماتت** الأذواء و**عاشت** الأذواد، و**ذهبت** الأقيال و**بقيت** الأقياد.
06					إن الزمان الذي **جرَّ** إلى جُرْهُم، و**خثا** على خثعم...	فهم كثمود، حين **لاح** لهم من البرهان عمود، **فضلّوا**؛ أو كقوم هود، حين **أخذت** عليهم العهود، **فزلّوا**.

المقالة الخامسة:

رقم الفقرة	أفعال الأحكام أو الإعلانيات	الأفعال التنفيذية أو التوجيهيات	أفعال الالتزام و التعهد أو الالتزاميات	أفعال السلوك أو التعبيريات	أفعال الإيضاح أو العرض أو الإخباريات
01		فماذا **أغنى** أخلافك اليوم؟		**حطّمهم** رعاة البر...	يا عاد، **أودى** درم ، فما **عاد**... **أغنى** أسلافك عن ماء مأرب، ماءُ يثرب، و**برَّد** أحشاءهم ماءُ بردى، و**اتخذ** أبناء قَيْلَة في ظلال النخل مقيلًا، و**اتخذت** غسّان منه إلى جنان الشام سبيلًا. **حفَّ** مارب وروافده، **فخرّب** اليمن ومحافده.
02	يا أخلاف **لم يسبق** مخلاف...	**بنيتم** السد و**أحكمتم** للثغور السد.. هلّا **وجهتم** العناية إلى هذه الآية...		و**أحسنتم** لأواخي الأخوّة الشدّ، و**جددتم** للأبناء ما بناه الجدّ...	**أجدبت** الخمط والأثل، فضلًا عن الكرم والنخل.

03	**فباعد** بين أسفارهم، و**جعلهم** أحاديث، و**مزّقهم** كل ممزق. **فباعد** بين قلوبكم...	أولئك **أخذوا** على قوّة... وأنتم **أخذتم** على ضعف وانحلال...		**أعرض** أسلافكم عن هدى الله... و**أعرضتم** عن سنن الله... فالأحاديث عنها **تملأ** المسامع، و**تهزّ** المجامع... فالحديث عنكم **لا يُثير** عزّة، و**لا ينير** السبيل إلى قدوة...	لو **بذل** الكُهّان، ما عزَّ وما هان،.... لما **حصّلوا**، ولو **رقوا** إلى سماء البلاغة بسلّم وكان فيهم العض والملهم والمكلم، لما **وصلوا**...
04		ويا أخلاف، ماذا **صنعتم؟** وبماذا **اقتنعتم؟**		يا أسلاف، **ورّثتم** الحكمة و**سيّرتم** الأمثال والفِقَر، و**عمرتم** من التاريخ صحائف بالمحامد، و**شغلتم** القرون بالحديث عنكم، و**شدتم** الباقيات للحضارة، و**زيّنتم** الحياة بالقوة والبأس الشديد، و**سبقتم** العالم إلى موارد العزة	**فبدتم** وما **بادت** آثاركم ولا أخباركم. هذه آثار سلفكم، **عرف** الغريب مواقعها، و**جهلتم** مواضعها... **سوّد** بنو العباس لسؤددهم، و**بيَّض** العلويون لطهارتهم، و**خضَّر** العبيديون لدعواهم ودعايتهم...

				في الدنيا، و**وقفتم** في نصف هذه الكرة **تحكمون** و**تتحكّمون**، و**تصلون** شرقها بغربها وتقسمون،	

المقالة السادسة:

رقم الفقرة	أفعال الأحكام أو الإعلانيات	الأفعال التنفيذية أو التوجيهيات	أفعال الالتزام و التعهد أو الالتزاميات	أفعال السلوك أو التعبيريات	أفعال الإيضاح أو العرض أو الإخباريات
01			لن **تزالوا** كذلك أبد الأبيد...	وأن من **لم تبسُط** يدك **لتقتله بسط** يده **لقَتْلك**... وأن من **قصرت** في **ختله جدّ** في **ختلك**.	**ذهب** العز الأقعس، و**حلّ** الجد الأتعس، و**نزل** من غِيَر الزمان .... **كتب** الله أن الصداقة مطوّية على العداوة...
02	تالله ما **ضاعت** فلسطين اليوم، ولكنها **ضاعت** يوم وُعدوا بها...	**أنَسيتم** يوم تنادوا مُصْبِحين... **تنازعكم** إرث الإسلام... **أنسيتم** ما فعله	**أعطوا** العهود لليهود...	وشياطين **تنزو** للإغراء إثر شياطين... **تنسيه** غريزة الماء والطين، **فتذكره** نُعرة الجنس...	ثارٌ للغرب في فلسطين، **لم تنبُت** عليه شجرةٌ من يقطين... و**تعادوا** مسلّحين، و**تداعوا** مصطلحين، و**تعاووا** من كل حدب،

		صلاح الدين بالمعتدين؟ أين **كنتم** يوم...؟ لا **تقولوا** إن شرّ دين، ما جرّ التشريد للمتشرّدين..		إن **نسيتم** أمسكم فهم له ذاكرون، وإن **كفرتم** بيومكم فهم له شاكرون. **آمنوا** بإسحاق و**كفروا** بهود... **جاءُوكُم** بصف واحد كملمومة الصخر، و**جئتموهم** بصفوف متخاذلة. **قادهم** إلى الظفر قائد واحد ورأيٌ جميع، و**قادكم** إلى العار قوّاد متشاكسون ... **اجتمعوا** و**افترقتم**... عقلكم الذي **جرّ** العار للعرب أجمعين، و**كرّ** بالخزي على جميع المسلمين.	و**تهاووا** من كل صبب، ذؤبان **تقدمها** رهبان، وغربان **تظلّلها** صلبان... **أمعنوا** في الاستعداد و**أمعنتم** في الرُّقاد، **اعتمدوا** على العلم و (الريال) و**اعتمدتم** على الجهل والخيال...، ما **أضاع** السيادة إلا توزيع القيادة...، **فسَلِموا واحترقتم**. **فركنوا** إلى العمل، و**ركنتم** إلى الكلام... **فتماريتم** بالنذر، و**لم تأخذُوا** الحذر...
03	**جاء** النصر من مصر...	فلماذا **تخلَّفت** البصرة عن النصرة؟			قلب **وجف** بالنجَف..، وآخر **خفق** بالمنتفق...

المقالة السابعة:

رقم الفقرة	أفعال الأحكام أو الإعلانيات	الأفعال التنفيذية أو التوجيهيات	أفعال الالتزام و التعهد أو الالتزاميات	أفعال السلوك أو التعبيريات	أفعال الإيضاح أو العرض أو الإخباريات
01				وإذا فرق من رفاق الجهاد **تُعادي** فرقة فرقة... و**يأبى** إلا التقحم في المهاوي حرونها.. **فتلقى** ممن **يعيشون** على التفريق الإسعاد...	وقابلةٌ **تجهد** في الأهباط و**تقول**: ارقهْ. وإذا الغرب من ذلك الهيكل الملموم **يُزايل** شرقَه... وإذا صفحة من تاريخ ملوك الطوائف **تُعاد**...
02		وبما **أرقتم** من دموع ودماء.. **فاجهدوا** في إثبات الضم..		**أعيذكم** بالعروبة وهي الأمّ... أن **تختلفوا** في الحق، **فترضوا** بالشقّ، أو **توسعوا** الشقّ... أن **تغتروا** بالوعود... أن **تُنْكروا** التقسيم... أن **ترضوا** بالخفض، ولا **تقبلوا** (الضم)...	**فتقعوا** جميعًا في الرقّ...

03			**فاحذروا** ذلك الواحد... **فاتّخذوه** عدوًّا، و**احذروه** رواحًا وغُدوًّا.. هل **أتاها** نبأ وزَّان؟	إن هؤلاء الأقوياء كلما **عجزوا** عن قيادة الجمع **قادوهم** بواحد... وباذلو الماعون في ساعة العُسْر، **جُزُوا** في العاقبة بالخسر...	**شال** بها الميزان، فهي رهينة أحزان. عتبات الفتح **بنيت** على الكسر، وآسرة الصيد **مُنيت** بالأسر، وصائدة المناسر **صادها** النسر، وجسر العروبة إلى المغارب، **عصفت** به الأعاصير ... **فتداعى** الجسر...

المبحث الثاني

المعاني الحرفية و المعاني السياقية في

مقالات سجع الكهّان

المقالة الأولى:

يقول الكاتب في مقدمة مقالته الأولى: "لا أقسم بذات الحفيف، و الجناح الخفيف، المشارفة في جوّها للكفيف، و بالسر المودع في التجاويف و التلافيف، و بالمغيرات صبحا عليها التجافيف، و المغيرين على الحق كالعاهر ابن العفيف. و بالسابغات و السوابغ من الدروع و الجلابيب، و بالآخذين أمس من تل أبيب بالتلابيب، و بالبحر و السفينة، و الحبر و (الدفينة)، إن أبا الطيب لمن موالينا، و ممن تلقى الكهانة عن أوالينا؛ و إنه ما دعي بالمتنبي إلا لأنه كان شاعرا كاهنا، ليناقض النبي الذي لم يكن كاهنا و لا شاعرا، و قد نفيا عن النبي مجتمعين، فثبتا في المتنبي مجتمعين.....، و إن قوله: وقعت على الأردن منه بليّة، هو من الكهانة الكاهنة (بالحالة الراهنة)، قالوا أراد أسدا قانصا، و قلنا أراد رجلا ناقصا، قالوا أراد كلبا، روّع قلبا، ومزّق خلبا، و أوسع المهج سلبا، وقدّم ضراغمة غلبا، أوطنها غابات غلبا و ذاد عنها أشاوس غلبا، قلنا: إنما أراد رجلا ركب صعبا، و باع شعبا، و عقّ لؤيا و كعبا، و سلك بنو أبيه شِعَبًا، و سلك وحده شَعْبا، و خذلهم في الجلى فملأ القلوب رعبا، و اشتف صبابة المال، فلم يدع لبائس حلسا و لا لبائسة قعبا...لم يرد أسدا خادرا، و إنما أراد رجلا سادرا، يظهر في زمن نحس، و يبيع ضفتي الأردن بثمن بخس، و أين ليث عفّره بدر بسوط، من شخص كفّره صدر بنوط.

أيتها البحيرة، مالك في حيرة؟ لقد شهدت لبدر بن عمّار بالفتوة، فهل تشهدين لأبي الطيب بالنبوة؟...و حدّثي الولي يا (ولية)، أيّهما كان عليك بلية، ذاك الذي وردك زائرا، أم هذا الذي وردك خائرا؟ إنهما لا يستويان؛ ذاك أسد غاب، رزقه في الناب، و هذا حلف وِجار، رزقه على الجار؛ ذاك يعيش على فرائسه، و هذا يعيش على فضلات سائسه؛ ذاك رمز إقدام، و هذا موطئ أقدام؛ ذاك ورد الفرات زئيره، و هذا جاوز الفرات تزويره؛ ذاك مشغول البال بتربية الأشبال، و هذا مشغول...بعرس الغول.

أيها الصاعد في العقبة، المجاحش عن خيط الرقبة، البائع لجار السوء صقبه، لا يكن صوتك الصيت، و لو أحييت البحر الميت.

أيها الخاذل للغزّى، ما أنت لهاشم...إنما أنت لعبد العزّى، أغضبت سراة الحي، و أزعجت الميت منهم و الحي، من لؤي إلى أبي نميّ، فويحك، أما تخاف أن تهلك، يوم يقال: يا محمد إنه ليس من أهلك "[1] .

إنّ القارئ لهذه المقالة سيلاحظ تحكّم السياق في دلالة بعض المفردات و التراكيب، من ذلك اقتباسه لصدر بيت المتنبي الذي أشرنا إليه آنفا، فقد أبدع الكاتب في استخراجه من السياق الذي قيل فيه و وضعه في سياق آخر يتماشى مع الهدف الذي أُنشئت من أجله هذه المقالة، فاكتسب بذلك دلالة جديدة توحي بشخصية ذلك الملك الذي ظهر في زمن نحس، و باع ضفّتي الأردن بثمن بخس، كما أنّه ركب صعبا، و باع شعبا، و عقّ لؤيّا و كعبا، و إن كان الكاتب قد أشار إلى نسب هذا الملك الذي ينتمي لهاشم بن عبد مناف، فقد أفصح في موضع آخر من المقالة الثانية عن اسمه من خلال اقتباسه لبيت ابن خلكان الذي قال فيه:

كسنّور عبد الله بيع بدرهم صغيرا فلمّا شبّ بيع بقيراط

و قد علّق الإبراهيمي على ذلك بقوله: "و قال: إن عبد الله هذا لم يعرف أحد من هو. فمن لقي ابن خلّكان فليخبره أن كاهن الحي عرف عبد الله صاحب السنور..."[2]

و من الأمثلة الدالة على تحكّم السياق في دلالة بعض المفردات، قول الإبراهيمي:"و حدّثني الولي يا (ولية)..."، إذ قد يلتبس على القارئ معنى كلمة "ولية" خاصّة و أنّها لم تضبط بالحركات التي تساعده على فهمها، لذلك تكون العودة إلى السياق أمرا واجبا لبيان المراد منها، و الراجح في نظرنا أنّها تصغير لكلمة: "ولاية"، أي "وُلَيَّة" على وزن "فُعَيْلَة"، و الحُجَّة في ذلك أنّنا لم نجد في معجم "لسان العرب" و غيره من المعاجم ما يدلُّنا على معنى يتلاءم مع هذا السياق، فقد ورد أنّ "الوَلِيَّة ما تَخْبَؤُه المرأة من زاد لِضَيْف يحُلُّ"[3]، و قيل:"الوَلِيَّة: البرذعة و الجمع ولايا...و قيل: الوَلِيَّة: التي

1 - أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ص520-521.

2- المصدر السابق. ص523.

3- ابن منظور: لسان العرب، م15. ص415.

تحت البرذعة، و قيل: كلّ ما وَلِيَ الظهر من كساء أو غيره فهو وَلِيَّة"[1]، فالملاحَظ أنّ جميع هذه المعاني لا تتفق مع ما يرمي إليه الكاتب، و الأمر الآخر أنّ القارئ قد يتوهّم أنّ كلمة "وَلِيَّة" تأنيث لكلمة "وَلِيٌّ" و هذا مُستبعَد أيضا لأنّ "الوَلِيّ: المتَولّي لأمور العالم و الخلائق القائم بها...و الوَلِيّ: الصديق و النصير،... و الوليّ: ضد العدو"[2]، فليس في هذا المقام ما يدل على ذلك.

بالإضافة إلى ذلك نجد تكرارا لكلمة (غلبا) في قوله:"...وقدم ضراغمة غُلبًا، أوطنها غابات غلبًا و ذاد عنها أشاوس غلبا،..."، فقد يظن القارئ أنّها تكررت بنفس المعنى، لكن السياق يوحي بغير ذلك، فكلمة (غُلْبًا) الأولى وصف لشكل الضراغم (الأُسُود) التي تقدّمها هذا الأسد، إذ يُقال:"أسد أغْلب إذا كان غليظ الرقبة"[3]، و هذا دليل على كِبر حجم تلك الأُسُود فما بالك بقائدها؟!

أمّا (غُلْبًا) الثانية فهي تِبْيان لحِال تلك الغابات، فقد ورد في (لسان العرب):"حديقة غَلْباء أي عظيمة متكاثفة ملتفّة"[4]، و أمّا (غلبا) الثالثة فيمكن ضبطها بالحركات على النحو الآتي: (غُلُّبًا)، و ذلك لأنّ معنى (الأَشْوَس): "الجريء على القتال، الشديد"[5]، فكان هذا المعنى مناسبا لكلمة (غُلُّبًا) التي تدلّ على كثرة الغَلَبَة[6].

من خلال ما سبق تتأكّد أهميّة السياق في معرفة المعنى المناسب للّفظ، إذ كان اعتمدنا في الوصول إلى معنى كلمة (غلبا)، مستندا إلى ما جاورها من كلمات داخل التركيب الجملي.

و لما كانت المقالة الثانية امتدادا للمقالة الأولى من حيث الموضوع أي (المملكة الأردنية)، اشتملت بداية هذه المقالة على سلسلة من التعبيرات استعمل فيها الكاتب بعض الألوان كرموز للدلالة على أشياء لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى ما يحيط بها من كلمات و تراكيب، فيقول: "جنت على الأصفر ناره، و على الأبيض ديناره، و على الأسود فدامته و اغتراره، و على العربي ركبه

1- المرجع السابق، م15. ص411.
2- المرجع نفسه، م15. ص 406 -411.
3- المرجع نفسه، م1. ص467.
4- المرجع نفسه، م1. ص652.
5- المرجع نفسه، م6. ص116.
6- المرجع نفسه، م1. ص251.

البطيّ و لسانه النبطي"؛ ونرى أنّه ربّما قصد الإبراهيمي بـ(الأصفر) الروم، و (الأبيض) الفرس، و (الأسود) الحبشة و غيرهم من ذوي البشرة السوداء، و يعضد هذا التأويل ما ورد في معجم (لسان العرب) حيث يشير (الأبيض) إلى "ملك فارس، و إنّما يقال لفارس الأبيض لبياض ألوانهم"[1]، أمّا (الأصفر) فيشير إلى "الروم، و قيل ملوك الروم"[2]؛ فضلا عن ذلك نجد قبل هذه العبارة ما يرجح المعنى الذي ذهبنا إليه، إذ يقول الكاتب:"قُسم الويل على العميم و الخُويل. فويل للعرب من ملوكهم، و ويل للعجم من سلوكهم، و ويل للروم من صعلوكهم"، حيث يمثّل هذا القول إجمالا لتفصيل يأتي بعده و هو قوله: "جنت على الأصفر ناره، و على الأبيض دیناره، و على الأسود فدامته و اغتراره، و على العربي ركبه البطيّ و لسانه النبطي"، فقد بيّن الإبراهيمي أسباب هذا الويل الذي وقع على الروم و المتمثّل في (النار)، و هي ترمز في هذا المقام إلى قوة السلاح التي نشر بها الروم أو(الدول الغاصبة) نفوذهم في بعض المناطق العربية و غير العربية مما جعل الشعوب تثور ضدّهم و تطالب بحرياتها و استقلالها خاصة بعد الحرب العالمية الثانية؛ أمّا الأبيض (الفرس أو مُلْك فارس) و المتمثّلة اليوم في (دولة إيران)، فقد جنى عليه (دیناره) و الذي نراه يرمز هنا إلى البترول أو الثروة النفطية التي تساهم بأكثر من 90% من القيمة الكلية لصادرات إيران، الأمر الذي جعلها محل أطماع العديد من الدول في مقدمتها بريطانيا و الاتحاد السوفياتي (سابقا) اللّتان قامتا بغزو إيران عام 1941م و من ثم سيطرت بريطانيا على صناعة النفط في المنطقة؛ و أمّا الأسود (الحبشة أو ما يعرف بإثيوبيا حاليا) فقد جنت عليه "فدامته و اغتراره"، و ربّما كان الموصوف هنا هو الإمبراطور "تافاري" الذي اعتلى العرش ولقب نفسه "هيلا سيلاسي الأول" على إثر وفاة الإمبراطورة "زوديتو" في عام 1930م، وسار "هيلا سيلاسي" على النهج السياسي للإمبراطور "مينليك الثاني"[3]، و وضع

1- المرجع السابق،، م7. ص125.

2- المرجع نفسه، م3. ص386.

3- مينليك الثاني: اعتلى العرش عام 1889م وعاد لتوحيد الإمبراطورية الإثيوبية، وذلك بالسيطرة على الممالك الصغيرة.
وفي عام 1896م حقَّق الإمبراطور مينليك الثاني انتصارًا ساحقًا على الجيش الإيطالي وذلك في المعركة التي دارت بين الطرفين في "أدوا" حيث كان الجيش الإيطالي يسيطر على جزء من الأراضي الإثيوبية. و كان من نتائج هذه المعركة أنها أكسبت الإمبراطور المنتصر الكثير من الاحترام من قبل شعب بلاده. كما أنها ساعدت على توسيع سيطرته على باقي البلاد.

سنة1931م أول دستور مكتوب؛ لكن اغترار "هيلا سيلاسي" بما فعله الإمبراطور "مينليك الثاني" جعله يستهين بالجيوش الإيطالية التي شرعت بتوسيع مستعمراتها في القارة الإفريقية، إلى أن قامت بغزو إثيوبيا عام 1935م، فدخلت أديس أبابا سنة 1936م، فهرب الإمبراطور "هيلاسيلاسي" ناجيًا بنفسه إلى السودان ثم بريطانيا.

ثم يختتم الكاتب عبارته ببيان أسباب الويل الذي وقع على العرب، إذ جنى عليه "ركبه البطي و لسانه النبطي"، وربّما كان المقصود هو تخلفهم عن مسايرة التطور الذي شهدته الدول الغربية في جميع المجالات، مما جعل هذه الأخيرة تقوم باحتلال العديد من الدول العربية بدعوى نشر الوعي و التقدم و تحسين مستوى المعيشة؛ أمّا المراد من قوله "لسانه النبطي"، فيحتمل أن تكون هذه إشارة من الإبراهيمي إلى عاصمة النبطيين في القديم و هي (البتراء) أو ما يُعرف حاليا بالمملكة الأردنية الهاشمية، فقد كان مَلِك هذه الأخيرة عبدا للغرب لا عبدا لله كما يدل على ذلك اسمه، و ليس ذلك افتراء عليه و إنّما هي حقائق نبّأنا بها التاريخ، وخير شاهد على ما نقول موقفه من القضية الفلسطينية و موقفه من الصراع العربي ضد العدو الإسرائيلي؛ أفلا يكون مثلُ هذا المِلك "غُراب بَيْن و جالبَ حَيْن" كما قال الكاتب؟

و قد يزيد من صحة هذا التأويل أيضا، أنّ كلاّ من الأصفر(الروم)، و الأبيض(الفرس)، و الأسود (الحبشة)، كانوا يشكّلون إمبراطوريات بسطت نفوذها على أرجاء واسعة من العالم؛ أي أنّ الكاتب جمع بين ألوان ثلاثة تشترك في كونها تعبّر عن شيء واحد وهو (الإمبراطورية) مشيرا بعد ذلك إلى كيفية سقوطها.

و بالانتقال إلى المقالة الثالثة نجد قوله:" إنّ غضبة العاجز لا تُبكي و لا تُنكي، تشتعل في الحنايا و لا تهدم الحنايا، تحرق صاحبها و لا تحرق الناس، و تلك هي غضبتكم حين تغضبون" فقارئ هذه العبارة يلاحظ تكرار كلمة "الحنايا" مرتين، مما يسمح لنا بالقول إنّ لكل واحدة منهما معنًا مختلفا

ومن الجدير بالذكر أنه في عهد الإمبراطور مينليك الثاني، استطاعت إثيوبيا التوسع بضم الممالك الصغيرة، ونتج عن ذلك أن زادت رقعة البلاد من ناحية الجنوب والشرق. واستطاع مينليك الثاني أن يجعل من أديس أبابا عاصمةً للبلاد، وبدأ العمل في بناء خط للسكة الحديدية ربط بين أديس أبابا وجيبوتي و فضلاً على ذلك، أسَّس الإمبراطور أول المدارس الحديثة والمستشفيات في دولة إثيوبيا./ الموسوعة العربية العالمية، نسخة إلكترونية. 2004.

عن الآخر، فلو أراد الكاتب التعبير عن معناً واحدا لقال مثلا: " تشتعل في الحنايا و لا تهدمها" أي بإضافة الضمير "ها"الذي يعود على "الحنايا"، لذلك نرى أنّ الإبراهيمي قصد بـ"الحنايا" الأولى "القوس"[1] الذي تُرمى به السّهام، و هو هنا في هذا المقام يرمز إلى السّلاح بصفة عامة، أمّا "الحنايا" الثانية فاستعملها الكاتب للدلالة على "الحانوت"[2]، و تجدر الإشارة هنا أن العرب كانت تسمّي بيوت الخمّارين "الحوانيت"، لنخلص بذلك إلى أنّ معنى هذه العبارة أنّ غضبة العرب لا تأمر بمعروف و لا تنهى عن منكر، بل إنّها قد تؤذي صاحبها و لا تصيب أهدافها لأنّه لم يحسن استخدامها.

ويرى الكاتب أنّه لو تسنّى للعرب تجسيد غضبهم فإنّه لا يُنتظر منهم الخير الكثير، فمَثَلُ هذه الغضبة كمَثَلِ سحابة كثيرة البرق عديمة القطر؛ و هذا معنى قوله:"و لو افترّت كلّ بارقة منكم عن صاعقة لما حمد شائموها*القطر".

كما أنّ إحاطة الإبراهيمي بكثير من الأحداث التاريخية خوّلته الإشارة إلى بعض منها بحسب ما يقتضيه المقام من ذلك قوله:"فيا أرض ابلعي زيتك، و أَحْيِ ميتك، و إلاّ خرّب (أبرهة) الغرب بيت الله و بيتك"؛ فقد أجاد الكاتب في توظيف حادثة محاولة تحطيم "أبرهة الأشرم" للكعبة المشرفة، إذ أَلبَسَ أبرهةَ ثوبَ الغرب، و أخذ يحذّر العرب حُكّاما و شعوبا من أفعاله؛ فمقام التحذير في هذه الفقرة دفع الكاتب إلى استدعاء هذه الحادثة مبيّنا أنّ "أبرهة الغرب" لن يكتفي هذه المرّة بتخريب بيت الله و إنّما سيخرّب كلّ بيت اشتمّ فيه رائحة الزيت (البترول)، و هو ما عليه حال العراق اليوم؛ فهل من مجيب لنداء الإبراهيمي؟ أم سيكتفي العرب بالقول: "للكعبة ربّ يحميها"؟!

أمّا في المقالة الرابعة و المقالة التي تليها، فقد نقلنا الإبراهيمي بأسلوبه الجزل في رحلة إلى تاريخ اليمن و حضارتها القديمة، معرّفا بِمُدُنِها و أمرائها، مادحا للأسلاف، و منتقدا للأخلاف.

1- ابن منظور: لسان العرب، م14. ص203.

2- المرجع نفسه، م14. ص204.

* شائموها: شام السحاب و البرق شَيْما: نظر إليه أنّى يقصد و أين يمطر/ المرجع نفسه، م12. ص330.

ونظرا لغياب الحركات التي تزيل العُجْمة عن معاني بعض الكلمات، فقد كان لزاما العودة إلى السياق لضبط هذه الكلمات تارة و استنباط معناها الدقيق تارة أخرى، و كمثال على ذلك قوله في المقالة الرابعة:"... و أَمَّا صَنْعا، فما أَحْسَن بَنُوها صُنعًا، قد أصبحت خَرْقَاء، و عَطَلَتْ مِنْ طَوْقٍ الوَرْقَاءُ، و عَقَمَتْ أَنْ تَتَمَخَّضَ عَنْ أَلْمَعِيَّةٍ (زَرْقَاءُ)، ما حَاكَتْ في عَبْقَرِيَّ الأَزْمِنَةِ و لا وَشَتْ، و طَارَ النَّاسُ فَمَا حَبَتْ و لا مَشَتْ"... و قد فرض تصورنا لمعنى هذه العبارة ضبطَها بالحركات السابقة، حيث نرى أن الكاتب يصف الحال التي آلت إليها "صنعا"، إذ ساد فيها الجهل و عمّ الحمق، و مثّل لذلك بفقد الحمامة لطوقها و فَقْد زرقاء اليمامة لألمعيتها بعد أن كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام كما تقول الأسطورة.

و يؤيد هذا التأويل ما ورد في معجم (لسان العرب) حيث وجدنا أن "الأَوْرَقَ من كلّ شيء: ما كان لونه لون الرماد"[1]، و قيل "للحمامة و الذئبة ورقاء"[2]، لكنّنا رجّحنا "الحمامة" في هذا السياق لورود كلمة "طَوْق"، ليكون المراد بذلك "الحمامة المطوّقة"؛ أمّا قوله :"عطلت" فقد جاء في لسان العرب:"العَطْلُ: فقدان الحُلِيّ"[3]. و ربّما سأل سائل عن علاقة "زرقاء اليمامة" بـ"الحمامة المطوقة"، و الجواب أنّ لتسميتها بهذا الاسم– زرقاء اليمامة– قصة معروفة هي أنّه مر بها سرب حمام سريع فأتبعته نظرها وعدّته واحدة واحدة فأحصته تسعًا وتسعين حمامة، ولما جاؤوا الثمد ـ وهو موضع الماء الذي ورده الحمام ـ عَدُّوه فوجدوه كما زعمت. و تجدر الإشارة إلى أنّ هذا النوع من الحمام يكثر في المناطق الحارة و المدارية، و هو المناخ الذي تتميز به اليمن[4].

و بذلك يتّضح لنا أنّ السجع الإبراهيمي ليس مجرّد سجع يعتمد على رصف كلمات و تراكيب منتهية بحرف واحد، و إنما هو تعبير فنيّ مقصود.

1- المرجع السابق، م10. ص377.

2- المرجع نفسه، م10. ص386.

3- المرجع نفسه، م11. ص454.

4- يقع اليمن بين خط الاستواء ومدار السرطان، يتميز هذا الموقع بارتفاع الحرارة صيفاً وانخفاضها شتاءً.

كما ذكر الكاتب في هذه المقالة أسماء بعض القبائل التي كانت سائدة في اليمن منذ القديم كـ"يافع، و ظفار، و غامد،...إلخ" مشيرا أيضا إلى أمرائها و ملوكها في ذلك الوقت، مستشهدا في الآن نفسه بما حدث لقوم عاد و ثمود فيقول:"أما اليمانون فلهم من الإسلام محجّة، و عليهم من زمانهم ألف حجّة، فهم كثمود، حين لاح لهم من البرهان عمود، فضلّوا؛ أو كقوم هود، حين أخذت عليهم العهود فزلّوا".

لكن لماذا لم يستشهد الإبراهيمي بغير هؤلاء من الذين وردت قصّتهم في القرآن الكريم كقوم لوط، أو أهل مدين، و غيرهم؟

تذكر كتب التاريخ الأدبي أنّ قوم (عاد) كانوا يسكنون اليمن، و أنّ ديار (ثمود) كانت غير بعيدة عن ديار (عاد)، بل إنّه قد "عُثر على نقوش ثمودية في اليمن، و يدلّ وجود هذه الكتابات هناك على وجود صلات بين اليمن و ثمود، و لعلّهم كانوا يقيمون في اليمن كذلك"[1]؛ و بما أنّ الكاتب بصدد الحديث عن تاريخ اليمن و ما آلت إليه، فقد استدعى المقام ذكر هؤلاء القوم دون غيرهم.

كما يخاطب الإبراهيمي قوم (عاد) في المقالة الخامسة قائلا:"يا عاد أودى درم فما عاد،..."، و معنى قوله:"أودى درم" مثل يُضرب لكلّ من فُقِدَ، و "(درم) رجل في عاد غاب و لم يرجع، و (أودى): هلك"[2]؛ و نلاحظ هنا أنّ الكاتب قد أحسن اختيار المثل في هذا المقام، فهو يذكّر شعب اليمن بِقَوم (عاد)-بما أنّهم من سكان اليمن القدامى- و ما حدث لهم تارة، ويشير إلى الخيرات التي كان ينعم بها الأسلاف واختفت في زمن الأخلاف تارة أخرى، فكان هذا المثال خير ما يُعبَّر به عن المقال في هذا المقام.

ثم يتحدث الكاتب في مقالته السادسة عن قضية فلسطين، مبيّنا أنّها ضاعت بتخاذل العرب و افتراقهم، كان للسياق في هذه المقالة أثر في الإشارة إلى بعض الأبيات و الأحداث دون غيرها، إذ

1- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1. ط2، جامعة بغداد، 1971. ص329.

2- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ص530.

أنّ المقام هنا مقام حديث عن تخاذل العرب و تخلفهم عن نصرة فلسطين، لذلك رأى الكاتب ضرورة لفت انتباههم إلى ما يوقظهم من سباتهم، و ينزع عنهم قيود الذلّ من أعناقهم، فكانت أبيات زهير بن أبي سُلمى في آخر معلقته، و هي أبيات قيل عنها أنّها تشبه كلام الأنبياء، كما أنّها من أعمق شعره وأشدّه تأثيرًا في النفس يقول[1]:

وَمَن لم يُصانِع في أُمورٍ كَثيرَةٍ يُضَرَّس بِأَنيابٍ وَيوطَأ بِمَنسِمِ

وَ مَن يَجعَلِ المِعروفَ مِن دونِ عِرضِهِ يَفِرهُ وَمَن لا يَتَّقِ الشَتمَ يُشتَمِ

وَمَن يَكُ ذا فَضلٍ فَيَبخَل بِفَضلِهِ عَلى قَومِهِ يُستَغنَ عَنهُ وَيُذمَمِ

وَمَن يوفِ لا يُذمَم وَمَن يُفضِ قَلبُهُ إِلى مُطمَئِنّ البِرِّ لا يَتَجَمجَمِ

وَمَن هابَ أَسبابَ المَنِيَّةِ يَلقَها وَلَو رامَ أَسبابَ السَماءِ بِسُلَّمِ

و من يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذمّا عليه و يندم

وَ مَن لا يَذُد عَن حَوضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّم وَمَن لا يَظلِمِ الناسَ يُظلَمِ

وَ مَن يَغتَرِب يَحسِب عَدُوّاً صَديقَهُ وَمَن لا يُكَرِّمِ نَفسَهُ لا يُكَرَّمِ

وَ مَهما تَكُن عِندَ اِمرِئٍ مِن خَليقَةٍ وَإِن خالَها تَخفى عَلى الناسِ تُعلَمِ

يكاد يجزم القارئ أنّ المقصود من هذه الأبيات، في هذا المقام، هو البيت السابع بالتحديد في قوله:

وَ مَن لا يَذُد عَن حَوضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّم وَمَن لا يَظلِمِ الناسَ يُظلَمِ

ذلك أنّ ضياع فلسطين وقع عندما أمعن العرب في الرُّقاد، و أمعن اليهود في الاستعداد، فقادهم –اليهود– إلى الظفر قائد واحد ورأي جميع، و قاد العرب إلى العار قوّاد متشاكسون و رأي شتيت، بل إنّ الإبراهيمي يُقسم أنّها ضاعت قبل ذلك بقرون فيقول:" تالله ما ضاعت فلسطين

1– مفيد قميحة: شرح المعلقات السبع، دار و مكتبة الهلال، بيروت، 2000. ص141– 150.

اليوم، و لكنها ضاعت يوم وُعدوا بها، فركنوا إلى العمل، و ركنتم إلى الكلام، بل ضاعت قبل ذلك بقرون، منذ نبت قرن صهيون، فتماريتم بالنذر، و لم تأخذوا الحذر" [1].

و من الأحداث التي رأى الكاتب ضرورة الإشارة إليها في هذا المقام، موقعة (حطّين) – قرية بفلسطين المحتلة حاليًا، تقع إلى الغرب من بحيرة طبرية- سنة 1187م، بين المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي والصليبيين؛ و اختار الكاتب هذه المعركة كونها أهمّ المعارك الحاسمة في الحروب الصليبية كلّها، لأنّها مهّدت الطريق لاسترداد بيت المقدس وسقوط المملكة اللاتينية الصليبية بالشام، والقضاء على مطامع الفرنج الاستعمارية في المشرق؛ كما أنّه أراد أن ينبّه العرب إلى أنّ الغرب لم و لن ينسوا ذلك اليوم، و أنّهم عازمون على الأخذ بثأرهم، فاجتمعوا فظفروا، وافترق العرب وخسروا، و ما احتلال فلسطين أمس، ثم العراق اليوم، و إثارة الفتن في السودان إلا أكبر دليل على ما يطمحون إليه.

أما آخر هذه المقالات فقد جعلها الإبراهيمي عن الشعب الليبي و قادته في ذلك الوقت، داعيا إيّاهم إلى الاتحاد و نبذ الخلاف، وعدم الاغترار بالوعود الخالبة من الدول الغالبة، فيقول:" أي جيران الشمال، و معاقد الآمال، أعيذكم بالعروبة و هي الأمّ، و بالوطن و هو الهمّ و الأمّ، و بعمر، حادي الزمر، عمر الشهيد، و ما عهده بالعهيد، و بما أرقتم من دموع و دماء، لم يبق منها إلا الذماء، و بالإسلام – و هو الذّمام- أن تختلفوا في الحق، فترضوا بالشقّ، أو توسعوا الشقّ، فتقعوا جميعا في الرقّ؛ و أعيذكم أن تغتروا بالوعود الخالبة من الدول الغالبة، فإنما ذلك إبساس من الأيدي الحالبة، و أعيذكم أن تُنكروا التقسيم و أنتم منقسمون، و أعيذكم أن يكون غرب النيل كشرق الأردن... و أعيذكم أن ترضوا بالخفض، و لا تقبلوا (الضم)، إن الضم علامة (البناء)، و آية (استقرار) البناء، فاجهدوا في إثبات الضم و خلاكم ذم.

إنّ هؤلاء الأقوياء كلما عجزوا عن قيادة الجمع قادوهم بواحد...فاحذروا ذلك الواحد، و إن الجانب الغربي لكم عدوٌّ، فاتخذوه عدوًّا، و احذروه رواحا و غدوّاً، و احذروه قلقا و هدوّا".

1- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ص533.

القارئ لهذا المقطع قد يلتبس عليه معنى بعض المفردات إذا لم يتأمّل السياق الذي وُضِعت فيه، كقوله:" أعيذكم بالعروبة و هي الأمّ، و بالوطن و هو الهمّ و الأمّ"، فالملاحظ تكررا لفظ (الأمّ) مرتين؛ و نرى أنّ لكلّ منهما دلالة محدّدة، فقد ورد في لسان العرب: "الأُمُّ: كالأُمَّة...و أمُّ الشيء: أصله"[1]، و"الأَمُّ: بالفتح: القصْد...و الأَمُّ: العلم الذي يتبعه الجيش"[2]، قال ابن دريد:"كلّ شيء انضمّت إليه أشياء فهو أُمٌّ لها. و أُمُّ القوم: رئيسهم."[3]، و قال ابن شميل:."الأُمُّ لكلّ شيء هو المِجْمَعُ و المِضَمُّ"[4].

لكن أيّ هذه المدلولات قصد الإبراهيمي؟

إنّ العودة إلى السياق في هذه الحالة هي الطريقة الوحيدة التي تكفل لنا معرفة المعنى المناسب لكلّ لفظة؛ و هنا، في هذه العبارة، نجد أنّ المقصود بـ(الأُمّ) الأولى (الأصل)، أي أنّ العروبة هي أصل كلّ من ينتمي إلى هذا الشمال الإفريقي، أمّا من يزعم غير ذلك بحُكم البربرية و بقايا الآرية التي كانت منتشرة فيه، فقد قضت عليها العروبة بقوّتها و روحانيتها و أدبها و سموّ خصائصها و امتداد عروقها، و فعل الزمن فعله حتى نسيَ الناس و نسي التاريخ أنّ في هذا الشمال جنسا غير عربي[5]. أمّا (الأُمّ) الثانية فيقصد به (المِجْمَع و المِضَمُّ)، فالوطن هو المجمع و المضمّ لكلّ أبنائه مهما كانت خلافاتهم و طبائعهم.

و من الأمثلة الأخرى التي تدلّ على تحكّم السياق في دلالة بعض المفردات قوله:"...و بعمر، حادي الزمر، عمر الشهيد، و ما عهده بالعهيد، و بما أرقتم من دموع و دماء، لم يبق منها إلا الذِّماء، و بالإسلام — و هو الذّمام- أن تختلفوا في الحق، فترضوا بالشقّ، أو توسعوا الشقّ، فتقعوا جميعا في الرقّ".

1- ابن منظور: لسان العرب، م12. ص 27 - 28.

2- المرجع نفسه، م12. ص22 – 24.

3- المرجع نفسه، م12. ص31.

4- المرجع نفسه، م12. ص33.

5- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ص428.

إنّ المقصود بـ(عمر) هنا، هو (عمر المختار)، ذلك أنّ المقام-كما أشرنا في البداية- هو مقام الحديث عن ما يُعرف اليوم بـ(الجماهرية الليبية)، حيث أنّ الكاتب قد ذكر أسماء مدينتين تقع إحداهما في الجنوبي الغربي و تسمّى(فزّان)، و تقع الأخرى في القسم الشرقي من البلاد و تسمّى(بَرْقَة)، هذه الأخيرة وُلد بها (عمر المختار) الذي يعدّ من أشهر مجاهدي طرابلس الغرب (ليبيا) في حربهم ضد الاحتلال الإيطالي، ولم يتمكن الإيطاليون منه إلاّ عام 1350هـ-1931م، عندما أسروه، وحاكموه، ثم أعدموه، بعد أن سطَّر صفحة بيضاء رائعة في تاريخ الجهاد الإسلامي والكفاح الوطني ضد الاحتلال.

و أمّا في قوله:"...أن تختلفوا في الحق، فترضوا بالشّق، أو توسعوا الشّق..."، فنلاحظ تكرار كلمة (الشّق) مرتين لكن بمعنيين مختلفين؛ فالأولى بكسر الشّين، و هي بمعنى "نصف الشيء"[1]، و يدلّ على ذلك ما ورد قبلها في التركيب الجملي، فالكاتب يعيذ الشعب الليبي من أن يختلفوا في الحق - و هو هنا حقّ الاستقلال- فيؤدي ذلك بهم إلى القبول بنصفه دون أخذه كاملا؛ أمّا الثانية فهي بفتح الشين (الشَّق)، أي بمعنى "الصدع البائن، و قيل غير البائن، و قيل هو الصدع عامة"[2]، إذ أنّ الاختلاف و تقديم المصالح الشخصية على المصلحة العامة يؤدي إلى اتّساع الهوة بين الشعوب و حكّامهم من ناحية، و فيما بين الشعوب من ناحية أخرى؛ و قد أشارت بعض المراجع التاريخية إلى أنّ السنوسي* أراد أن يشكّل حكومة سنوسية وراثية متحالفة مع بريطانيا في مدينة (برقة)، فبدأ يتصل ببريطانيا لتطبيق آرائه السياسية هذه، فأرسل رئيس ديوانه عام 1948م لمناقشة موضوع استقلال برقة، وفي خطاب عام أمام أعضاء المؤتمر البرقاوي العام في مدينة بنغازي عام 1949م، أعلن السنوسي رسميًا قيام الدولة السنوسية في برقة، وكانت بريطانيا أول دولة اعترفت بهذا الاستقلال وبالحكومة السنوسية.

1- ابن منظور: لسان العرب، م10. ص182.

2- المرجع نفسه، م10. ص181.

* على الرغم من أن عمر المختار طالب بسيادة وطنية على ليبيا المتحدة تحت زعامة إدريس السنوسي، لكن السنوسي عندما تسلم إمارة برقة بعد موافقة بريطانيا وترتيباتها، وافق على أن يحكم برقة حكمًا داخليًا مطلقًا، ولم تكن علاقة السنوسي بالقوى الوطنية في برقة وغيرها علاقة طيبة، بل كانت علاقة يخيم عليها الشك والريبة./ الموسوعة العربية العالمية، نسخة إلكترونية. 2004.

لكنّ الشعب الليبي و العديد من الدول والجمعيات والهيئات الغربية رفضوا أسلوب تجزئة الكيان الليبي، وعمّت المظاهرات الأرض الليبية ضد هذا المشروع وطالب الجميع بالوحدة الليبية ضمن دولة ليبية وطنية مستقلة.

يتّضح بعد ذلك غرض الكاتب من هذا التحذير و النهي عن الانقسام و الفُرقة، فهو لا يريد أن يكون "غرب النيل كشرق الأردن"، أي أن لا تكون ليبيا(الواقعة غرب نهر النيل) كالأردن (الواقعة شرق نهر الأردن)، و هو بهذا الصنيع يحيلنا إلى المقالة الأولى التي تحدّث فيها الكاتب عن الأردن و ملكها، فغدت هذه السلسة محكمة النسج يرتبط أوّلها بآخرها.

خاتمة

خاتمة

توصلنا في ختام هذا البحث إلى جملة من النتائج تفصيلها كالآتي:

– تعدّد مفاهيم الخطاب عند الغربيين بتعدد اهتمامات الدارسين، إلاّ أنّها في مجملها تحقق للخطاب مفهوما واسعا يتضمن كلّ الخصائص اللسانية و المنطقية و التواصلية.

– تتعدد تعريفات الخطاب أيضا عند الدارسين العرب، فقد تتقاطع أحيانا و قد تتباعد، و أحيانا أخرى يكمّل بعضها البعض الآخر.

– قد يمتلك الكاتب السلطة بمجرّد التلفظ بالخطاب، و قد تختلف سلطة الخطاب بحسب مقصد المخاطِب و أيديولوجيته، فيكون الخطاب بذلك انعكاسا لتلك السلطة كما أنّ السلطة تعمل من خلال الخطاب.

– تعدّ المقالات موضوع الدراسة مقالات سياسية بامتياز نظرا لما احتوت عليه من وظائف سياسية خاصة منها ما تعلقّ بالوظيفة الإخبارية و وظيفة المقاومة و المعارضة بالإضافة إلى وظيفة منح الشرعية أو نزعها.

– حاول الإبراهيمي من خلال هذه الوظائف نزع الشرعية من الحكومة الفرنسية اللائكية بالإضافة إلى فضحه لبعض الأنظمة التي كانت سببا في تخلّف و ضياع الشعوب العربية.

– تبنى الكاتب موقفا أيديولوجيا واضحا تمثّل في رفضه للاستدمار بكلّ أنواعه و تنديده بالتخاذل العربي في نصرة القضايا العادلة خاصة منها قضية فلسطين.

– اتّخذ الإبراهيمي من وسائل الإعلام المتمثّلة في جريدة البصائر منبرا لإيصال صوته لكلّ الشعوب و الأنظمة العربية و بيّن موقفه و موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من القضايا السائدة في العالم العربي.

– لا يشكّل الوضوح الهدف الأساس للخطاب السياسي، و هو ما لاحظناه في هذه المقالات حيث كثيرا ما اضطررنا إلى الرجوع إلى المعاجم و السياقات التاريخية من أجل فهم المراد من بعض الألفاظ و التراكيب.

– ساهمت مظاهر التداولية من إشاريات بمختلف أنواعها بالإضافة إلى الأفعال الكلامية و السياق في فهم الخطاب الإبراهيمي في المقالات موضوع الدراسة.

– أبان مضمون المقالات على خلود كتابات الإبراهيمي نظرا لتطابق تلك المضامين مع ما يعيشه الوطن العربي في عصرنا الحاضر من أزمات و فتن و تخاذل للحكام.

– كان للتحليل التداولي دور في إبراز سمو البيان الإبراهيمي و معرفته ا لموسوعية التي قلّما نجد لها نظيرا في الوطن العربي.

و في ا لختام نقول إنّه حقيق لمثل هذه الكتابات الإبراهيمية أن تنال حظّها من الدراسة و التأمّل في مضامينها نظرا لما تحتويه من جواهر و درر تستحق أن تكون موضوعا لدراسات كثيرة و متنوعة سواء أكانت أدبية أم اجتماعية أم تاريخية أم دينية.

ملحق

فصل الدين عن الحكومة...*

– 1 –

ما زالت هذه الحكومة تمزج الصلف بالتصلّب، والتردّد بالتقلّب، وتخلط الممانعة بالمدافعة، وتؤيّد التحيّل بالتخيّل، وتكمل الإصرار على الباطل بالعناد فيه، في قضية حقّنا فيها أوضح من الشمس، وباطلها فيها أعرق من الإدبار من أمس.

وما تزال تهيم في أودية من الضلال، وتتصامّ عن الأصوات المتعالية من أصحاب الحق، بطلب الحق، وتتعامى عن الحقائق التي بيّناها لها، وعن النذر التي جلتها عليها الأيام، وتحن إلى تقاليدها الاستعمارية البالية في التسلّط على ضمائر المستضعفين ومعنوياتهم لتفسدها عليهم، فهي تظهر في كل يوم بجديد، في مسألة لا قديم لها فيها ولا جديد...

ونحن لا نستغرب هذا ولا أكثر من هذا من حكومة تدين بالهوى لا بالعقل، وترتجل الأحكام حيث يجب التروّي، وتتروّى حيث يجب الارتجال، وتدور على قطب قلق من المكاتب المتعاكسة، ورؤساء المكاتب المتشاكسين، وعلى تواطؤ في التباطؤ، يُفني الآمال، ويُضني الآملين، ويضلّ الأعمال، ويملّ العاملين؛ لا على شورى تعصم الرأيَ من الضلال، ولا على استبداد يحرم الرأي من الظهور! ولعمري... إن هذه الحالة هي شرّ ما تُساس به الأمم وتُدار به الحكومات، ويصاب به الحاكمون حين يصابون بالأزمات النفسية، والقلاقل الفكرية، والزعازع الحزبية، والأمراض العنصرية، وهو أسوأ ما تبتلى به الشعوب التي تدور عليها كواكب النحس، فتوزن بموازين البخس.

كأني بهذه الحكومة اللايكية المسيحية – معًا – الديمقراطية الديكتاتورية – معًا – ترمي ببصرها إلى ما وراء حدود الجزائر من الأقطار الإسلامية الحرة في ديانتها، المدبرة لشؤونها الدينية بنفسها وبحكوماتها، فترى أن حكومات تلك الأقطار هي القائمة على شؤون الدين،

* نشرت في العدد 75 من جريدة «البصائر»، السلسلة الثانية، 11 أفريل سنة 1949.

والمسيّرة لنظمه، فتجعل البابين بابًا واحدًا، وتقول: هذا من باب ذاك... هن حكومات، وأنا حكومة، وهنّ يتصرفن في الدين، فأنا أتصرف في الدين... فتقيس مع الفارق، وتقف على «ويل للمصلين»... ويغيب عليها في هذا البُحران أن تلك الحكومات إسلامية، فهي تمارس شؤون الدين، بحكم الدين، وتجري هي تصرفاتها فيها وتسييرها لها على أحكام الدين، وترجع في ما يُشكل عليها إلى رجال الدين، وهم – بالطبع – ليسوا كعلماء دين الحكومة الجزائرية...

علمنا هذا مما علمناه من أعمال الحكومة، وبلوناه من سرائرها، وجلوناه من جرائرها، واستنبطناه من تمسكّها الشديد، وتشدّدها الأعمى، وحيرتها واضطرابها في هذه القضية، ثم مما قرأناه في السطور (وبين السطور) في تقريرها الذي وسمته بالتقرير العاصمي.

وإذا ذكرت أن الشيء الواحد يتفق مصدرًا فإذا هو شيء واحد، كما تعقله وتفهمه، وتعرفه وتعلمه، ثم يختلف مظهرًا فإذا هو شيئان أو أشياء، كما تشاء الأهواء؛ إذا ذكرت ذلك فاذكر أن العاصمي في تقريره المملوء بالمنطق الأعوج، المبني على التاريخ الأعرج، معناه أن الحكومة استعملت المساجد (ورجالها) يوم استلمتها من يد المفتيين الحنفي والمالكي. فمن العدل (ومن المطابقة) (ومن مراعاة النظير) أن ترجعهما إلى المفتيين (يعني الحاليين) أو (يعني مفتيًا واحدًا من الحاليين).

واسأل العرّافين: لو لم يكن العاصمي مفتيًا، أو لو عُزل عن الإفتاء، أكان يرى هذا الرأي؟

يقول كل عرّاف: لا. ويقولون أيضًا: إن العاصمي لا ينطق عن هواه وإنما ينطق عن وحي ساداته ومواليه. وليس هذا الرأي ابن يومه، ولا ابن التقرير، وإنما هو ابن سنين. فقد زارني العاصمي مبكرًا متنكّرًا منذ سنوات، وكان يومئذٍ يحضر جلسات نادي الترقّي، ويشايع الأستاذ العقبي ظاهرًا على آرائه في القضية، فأفضى إليّ بهذا الرأي على أنه من بدائعه، وقال لي: إن مساعي العقبي ضائعة، وإنها ضرب في حديد بارد، وإن هذا الرأي هو الرأي المقبول المعقول. فقلت له ما معناه: إن المفتيين اللذين سلّما المساجد، سلّما ما لا يملكان. فعملهما ليس بحجّة علينا؛ وسلّما، وسيف الاستعمار مصلت على رأسيهما، فتسليمهما ليس بحجة علينا؛ وفعلا تلك الفعلة الشنعاء استسلامًا للجبن، واحتفاظًا بالوظيف والرغيف، وفعل المستسلم ليس بحجة علينا؛ وقلت له إن استلامكما لها لا يقل شناعة، ولا يختلف مقاصد وأغراضًا عن تسليمهما؛ وإذا تنازلنا قلنا: إننا لا نأمن أن تستلماها، فيأتي مفتيان آخران فيسلّماها، ما دامت حجتك دائرة على: مفتٍ يسلّم، ومفتٍ يستلم، وكلا عمليهما غير مشروع، وقلت له: إن الرأي في القضية للعلماء الأحرار وإن الحق فيها للأمة المسلمة، وإن المفتي الأول لا حق له في التسليم، وإن المفتي الأخير لا حق له في الاشتلام، والأول

مبطل في العطاء والأخير مبطل حين يأخذ. وكلاهما موظف مأجور، أقلّ ما يقال فيه إنه متهم؛ ولو كان المفتيان اللذان سلّما المساجد والأوقاف إلى الحكومة مسلمين يخافان الله ويرجوان لقاءه لما أقدما على ذلك، ولآثرا الموت شنقًا على ارتكاب ما ارتكباه وأقلّ ما كان ينتظره الإسلام منهما – إن أكرها على ذلك – أن يسلّما الوظيفة لا المساجد؛ ولكنهما كانا أحرص على الوظيفة منهما على دينهما.

وقلت له: أتظن أن عملكما في الاستلام يعد تكفيرًا عن إجرامهما في التسليم؟ أم تظن أن عمل الحكومة في التسليم لكما يُعدّ توبة لها من الغصب؟ أنتما موظفان لا تملكان لأنفسكما حرية، فكيف تُحرّران المساجد والأوقاف؟ إن الأمر متشابه الأواخر بالأوائل، وبعضه من بعضه؛ وإن تسليم الحكومة شيئًا لموظّفيها لا يكون معناه البديهي إلا تسليم الحكومة لنفسها؛ ومن القواعد المقرّرة في الفقه: العبد وما ملك لسيّده، ولا يتم تحرير المساجد إلا على أيدي الأحرار.

* * *

وهذه القضية هي أخت التي فرغنا من الحديث عنها بالأمس، كلتاهما مما تشتدّ جمعية العلماء والأمة في المطالبة بتحريره، لأن كلتيهما من صميم الدين، وقد كانت لنا في هذه مواقف مشهودة، كالتي كانت لنا في تلك؛ بل كنا نقرن بينهما دائمًا كشهادتي الإسلام إحداهما مكمّلة للأخرى، فلا نريد أن تبقى للحكومة يد ولا إصبع في تعليمنا العربي الديني، ولا في شعائرنا الدينية ولا في مساجدنا، ولا نريد إلا أن تكون الأمة حرة في دينها، مطلقة التصرّف في مساجدها وأوقافها وشعائر دينها.

وللحكومة في هذه القضية قوانين وقرارات متشابكة متناقضة كالتي في تلك، وفيها الظاهر، وفيها الباطن، وفيها ذو الوجهين، وفيها الصريح في الفصل، وفيها ما يقيّده؛ ولا نتشاغل بمناقشتها لأن الدستور الجزائري الأبتر قضى عليها جميعًا، وحسم القضية فصرّح بالفصل، ولم يبقَ إلا التنفيذ فوكّله إلى المجلس الجزائري فأبت حكومة الجزائر إلا أن تعكّر الصفو فركبت العظائم في تكوين ذلك المجلس، حتى جاء كما تهوى، ويهوى لها الهوى. وهي بعد ذلك دائبة على إبقاء هذه القضية وأخوات لها كما كانت؛ فأوعزت بالتقرير العاصمي لتوهم به النوّاب، ويكون أحد الأسباب؛ ثم عمدت إلى ألاعيب أخرى في الجمعيات الدينية؛ وليست مهزلة الانتخاب التكميلي للجمعية الدينية بالجزائر بآخرة المهازل، وسنناقش هذه المهازل وأصحابها الحساب. والأمة لا ترضى إلا بالفصل الحقيقي على الوجه الذي يسطره العلماء الأحرار، والمسلمون الأبرار.

فصل الدين عن الحكومة

*– 2 –

سلّمنا أن فرنسا دولة مستعمرة من ذلك الطراز الاستعماري اللاتيني الأزرق، وأنها تمتاز بادّعاء أنها ممدّنة العالم ومعلّمته وناشرة لواء الحرية فيه، وأنها السابقة إلى نبذ الأديان، وقطع الصلة بين الله وعباده، وأنها واضعة نظام اللائكية التي معناها وضع سور بين الحكومات وبين الأديان كيفما كان نوعها، ومعناها أيضًا تقوية السلطة المادية، وتوهين السلطة الروحية، وأنها الأستاذة الكبرى لكلّ من سلك هذا السبيل، وتأسّى بهذه الشرعة، وأنها مرجع كل إباحي، وقدوة كل ملحد، وأنها شيخة مصطفى كامل في الأولين ومصطفى كمال في الآخرين، ما هتف الأول في الوطنية إلا بشعارها، وما تغنّى في الحرية إلا على مزمارها؛ وما استدبر الثاني مشرق الشمس إلا ليستقبل مغرب أنوارها، وما نبذ حروف العرب إلا ليستبدل راءَه بغَيْنها[1] وطورانه بنارها.

كل هذا مما تدعيه فرنسا وتغري به البله منّا وتغرّ المغفلين.

ولكن ما بالها خالفت العالم الاستعماري كله، وخرقت إجماعه، وشذّت عن قاعدته، فهو يسالم الاديان حتى الباطل منها وغير المعقول، ويترك أهلها أحرارًا في شعائرهم ومعابدهم، ويوليها شيئًا من الرعاية والاحترام، ويكتفي بالتسلّط على الجانب الدنيوي من حياتهم؛ أما هي فتضايق الإسلام في الجزائر وتحتكر معابده وشعائره، وتمتهن رجاله، وتبتلع أوقافه، فلا مسجد إلا ما فتحته ولا إمام إلا من نصبته، ولا مفتي إلا من (حنفته) أو (ملّكته)، ولا شيخ طريق إلا من (سلّكته) ولا حاج إلا من حجّجته أو نسّكته، ولا صائم ولا مفطر إلا على يد (لجنتها)، ولا هلال إلا ما شهد برؤيته (قاضيها)!...

* * *

* نشرت في العدد 83 من جريدة «البصائر»، 13 جوان سنة 1949.

1) بغينها: كثير من الفرنسيين ينطقون الرّاء غينًا.

قرأنا سِير الإنكليز في الهند فوجدناهم بالغوا في إعطاء الحرية للأديان حتى بلغوا حد السخافة، وسوّوا في تلك الحرية بين (قرّاء البقرة) بالحق، وبين (عباد البقرة) بالباطل، ويسّروا سبيل الحج حتى اتّسع معنى الاستطاعة.

وقرأنا عن تلك الدويلات الاستعمارية – وشهدنا – أنها تحترم الأديان الموجودة في مستعمراتها حتى الوثني منها، والمضاد لحضارة الإنسان، والواقف في طريق الرقي العقلي. ولو أنها خصّت الوثني منها بالاحترام والحرية لقلنا: إنها مكيدة تجعل بها حرية الدين وسيلة لاستعباد المتدينين به. ولكنها أرخت عنان الحرية للإسلام الذي هو أعظم خصوم الاستعمار، وأقوى عامل للتخلّص منه.

ثم ما بالها خالفت نفسها، وناقضت مبدأها؟ فهي في فرنسا تدين باللائكية وحرية الأديان، ينصّ على ذلك دستورها، ويجري عليه تعليمها، وتتأثّر به أمّتها، وهي في الجزائر «تتمسّك» بالإسلام هذا التمسّك، وتتشدّد في «القيام» به هذا التشدّد، وتتعنّت في الانفصال عنه هذا التعنّت.

* * *

في الدول المستعمرة مَن هي أبرع من فرنسا في فقه الاستعمار، ومَن بلغت فيه رتبة الاجتهاد المطلق، وهي – مع ذلك – تعامل الإسلام بما يليق به من كرامة، وبما يستحقه من حرية؛ فهل هي في هذا جاهلة لأصول الاستعمار؟ وهل هي في هذا غافلة عما في حريته من خطر؟ لا... وإنما هي في هذا أوسع نظرًا وأكثر تبصّرًا بالعواقب من فرنسا. وهي ترى أن إعطاء الحرية للإسلام جلب للهناء والسعادة وحسن العشرة ولو إلى حين، وهي تعتقد في قرارة نفسها أن الاستعمار لصوصية، واللصوصية أحوج الأشياء إلى الحذق؛ وهي قد جرّبتْ فعلّمتها التجارب أن حرية الأديان لا خطر فيها، وإنما هي خير وراحة ورضىً واطمئنان؛ ولو أن فرنسا السيّئة الظن بالإسلام، والموجسة من حريته خيفة، رمتْ ببصرها إلى ما وراء الحدود الجزائرية، ولو أنها كانت ممن ينتفع بالتجارب، لرأت في المغرب وتونس ما ينقض عليها عقيدتها في الإسلام، ويغيّر نظرتها إليه، وحكمها عليه؛ فالإسلام في القطرين حرّ، وإدارته بيد أهله ولم يأتها الخطر من تلك الحرية، بل إن حرية الدين في القطرين سدّت عليها أبوابًا من الخطر والإقلاق. وإذا قلنا إن الإسلام حرّ في المغرب وتونس فإننا لا نعني من الحرية معناها الواسع الصحيح لأن الاستعمار الفرنسي لا ينسى عوائده. ولا يخالف أصوله وما زال يتخذ من أعماله في الجزائر – على شناعتها – نموذجًا يحتذيه في الأقطار التي ابتُليت به: لا ينتفع بالعظات، ولا يتطور مع الأوقات، وفي تدخله في الأوقاف الدينية بتونس

ومراكش، واستهوائه لأكابر رجال الدين، وامتداد نفوذه إلى السلطة القضائية، أكبر دليل على ما قلناه.

* * *

الاستعمار كله رجس من عمل الشيطان، يلتقي القائمون به على سجايا خبيثة، وغرائز شرهة، ونظرات عميقة إلى وسائل الافتراس، وإخضاع الفرائس، وأهمّ تلك الوسائل قتلُ المعنويات وتخدير الإحساسات الروحية؛ ولكن هناك تفاوتًا بين استعمار واستعمار، فاستعمار يباشر وسائله بالحقد ويشربها معاني من الانتقام؛ وآخر يباشرها بنوع من التسامح واللين؛ والاستعمار الفرنسي من النوع الأول، وبين النوعين فرق، وإن كانا بغيضين ممقوتين، لأنهما استغلال للأموال، واستعباد للأجساد، ويزيد أحدهما بأن فيه ترويحًا على الأرواح، ولولا ما بلوناه من شر الاستعمار الفرنسي على ديننا ولغتنا، وما تجرعناه في سبيل إحيائهما من غصص، وما كابدنا في إنقاذهما منه من بلاء، لما ذكرنا الاستعمار بخير، ولما أجريناه على ألسنتنا إلا مقرونًا باللعنة مصحوبًا بالسخط، ولكن في الشر خيارًا لا يقدره قدره إلا المبتلى بالأشد من أنواعه.

ساء مثلًا الاستعماران: ما يُقعد منهما الروحانيات المقعد الخشن، وما يُقعدها المقعد الوطيء، وما يتعمدها بالقتل الوَحِيِّ، وما يبتليها بالموت البطيء؛ وسيسوآن – وإن طال أمدهما – مصيرًا، وسيخذلهما القاهر الذي يُمهل ولا يُهمل، ولا يجدان من دونه وليًّا ولا نصيرًا.

* * *

أكثرنا من ذكر الاستعمار في المعارض التي يلتقي بنا أو نلتقي به فيها حتى كدنا نألفه فتأنس له نفوسنا، ويشغلنا ترداد اسمه عن الاستعداد للتخلص منه، كما يشغلنا الإكثار من لعن الشيطان عن الاحتراس من وساوسه، والتحفظ من مكايده؛ فلنرجع إلى أنفسنا وإلى أمّتنا، ولنناقشها الحساب: ماذا أعدت لتحرير الدين؟ وبماذا استعدت؟

لنخرج من الأقوال إلى الأعمال، ومن الافتراق إلى الاجتماع، ومن التفريط إلى الحزم، ومن المهاودة إلى التصميم، ومن المطاولة إلى الإنجاز، ومن التخاذل إلى التناصر، ومن الجمجمة إلى الصراحة، ومن السلب إلى الإيجاب.

إن المسألة خطيرة، وإن الأمّة الجزائرية المسلمة في قلق عظيم، وإن أصحاب الأغراض والمنافع من حكومة وحكوميين يعبثون بديننا ونحن ننظر.

فلنقف الوقفة الحازمة التي توقف كل عابث عند حدّه.

فصل الدين عن الحكومة

– 3 –*

شهر رمضان ظرف زماني للدين، فكلّ حديث فيه عن الدين عبادة، والمساجد ظروف مكانية للعبادة، بينها وبين رمضان صلات وكّدها الله الذي كتب الصوم وجعله له، وشرّف المساجد فجعلها بيوته، وشرع لهما حُرُمات متشابهة، ومنها هجر اللغو، والتزام الصدق، وحبس الأنفاس على طاعة الله؛ فالمسلم في المسجد مواجه لربّه، واقف بين يديه، وفي رمضان مكبوت عن شهواته، مأخوذ بناصيته إلى الحق.

فالحديث عن المساجد من الدين، والتنديد بأعمال الظالمين لها والغاصبين لحقوقها من الدين، وانتقاد القائمين فيها من الدين أيضًا! فنحن – من رمضان والمساجد – في دائرة مغناطيسية من الدين، لا نفلت منها إلا لنقع فيها، وداعي الدين هو الذي يحرّك ألسنتنا إلى النطق، وأقلامنا إلى الكتابة، وعقولنا إلى التفكير في هذه المسألة؛ ونحن نعتقد أننا حين نكتب حرفًا، أو ننطق بكلمة، أو نرسل رأيًا في هذه القضية، ننطق بحق ونكتب حقًّا، ونرى حقًّا، ولو كرّرنا ذلك ألف مرة، وأننا حين نسكت – نسكت عن باطل لا يجوز إقراره ولا السكوت عليه – ونعتقد أن الأمة حين تسكت، أو تقصر، أو تتخاذل في هذه القضية، مجمعة على محرم، مأخوذة به عند الله، يوم يطالب كل ذي حق بحقّه ويطالب رب العباد بحق دينه، وويل لمن كان ربّه خصمه يوم القصاص.

ونعتقد أيضًا أن هذه الحكومة المسيحية مصرّة على باطل أبطلته الأديان والقوانين والمدنيات والعوائد، وأنها عجزت عن دينها المسيحي أن تحرّره من احتكار روما، وعن دين موسى أن تنتزعه من مجامع الأحبار، فجاءت إلى ديننا تتحكّم فيه، وتلصّ أوقافه وتسخر رجاله الضعفاء لمصالحها، وتجعل من معابده ميادين لاحتفالاتها بالنصر والكسر،

* نشرت في العدد 87 من جريدة «البصائر»، 18 جويلية 1949.

ومن أئمته ألسنة تجهر بالدعاء لها، وما دعاء الظالمين إلا في ضلال.

نعتقد أن كل ما قرّرته هذه الحكومة المسيحية، وكل ما تقرره في شؤون ديننا باطل منقوض دينًا وعقلًا وقانونًا، حتى تسمية الأئمة والمؤذنين فهي باطلة وطلب هذه الوظائف من هذه الحكومة باطل، والرضى بها باطل، لأن شرط نصب الإمام أن يكون من حكومة مسلمة، أو من جماعة المسلمين، لا يختلف في هذا مسلمان، ولا يخالف فيه إلا «العاصمي» في قياسه لحكومة الجزائر على حكومة ابن سعود، وهو قياس لا يشبهه في الفساد إلا قياس مسيلمة على محمد في شهادة الإخلاص!!

وإن هذا القياس لدرجة في العلم لا تبلغ إلا بخذلان من الله، ودرجة في العمل لا تُرتقَى إلا بتوفيق من الحكومة.

* * *

ونحن قد قمنا في هذه القضية مقامات يحمدها الدين، وأبلينا في هذا الميدان بلاء الثابتين الصابرين، ما نكص لنا فيه بطل، ولا وهنت لنا فيه عزيمة، ولا تغيّر لنا فيه رأي، ولا التبس علينا من وجوه الرأي فيه مذهب.

ألححْنا في المطالبة بتحرير المساجد والأوقاف، وسقنا على ذلك من الحجج ما لا يدحض، وكشفنا عن المستور من مقاصد الحكومة، وقلنا لها (بالقلم واللسان): إن سكوت مَنْ قبلنا لا يكون حجة علينا، وإن تخاذل من معنا لا يكون مسوغًا لبقاء هذا الوضع الجائر واستمراره؛ بل قلنا لها: إنها هي السبب الوحيد لهذا التخاذل، وهي التي صيّرت طوائف منّا مبطلة تخذل الحق وأهل الحق، وإن بقاء الوظائف الدينية في يدها هو أصل هذا البلاء، وإن هذا البلاء لا ينقطع حتى يُنزع حبل الدين من تلك اليد ويوضع في أيدي أهله. وقلنا لها: إن الواجب المعجل المحتّم، والعمل السديد المنظّم، هو إعلان رئيس الحكومة أمرين متلازمين؛ أولهما تنفيذ قانون الفصل الذي تضمنه الدستور الجزائري الأعرج، وثانيهما حياد الحكومة التام في تأسيس الجمعيات الدينية التي تنتخب المجلس الإسلامي الأعلى.

وقلنا لها: إن ابتلاعها لأوقافنا الدينية والخيرية ظلم، والظلم لا يدوم، ولصوصية، واللصوصية لا تتأتى إلا في الغفلة أو النوم أو الظلام، فأما في الانتباه واليقظة والنور فافتراس تبرره القوة والعتو، وليسا من صبغة هذا الزمان.

وكأني بقائل يقول: ما لكم تُبدئون في هذه القضية وتعيدون؟ مع أن الفصل واقع في الأمر نفسه، واقع في بنود الدستور الجزائري... فقد قضى ذلك الدستور على جميع القرارات التي كانت تحدّد سلطة الحكومة على المساجد حينًا، وتمدّدها أحيانًا. ونحن نقول

لهذا القائل: لو كنت تعرف ما تقول عذرناك، ولو كنت تعرف ما نقول عذرتنا في الإبداء والإعادة. فقد بُلينا بحكومةٍ جُمع فيها كل ما تفرّق في غيرها... وقد بلوناها في جميع حالاتها وألوانها، فإذا هي هي، تُغطّي الشمس بالغربال، وتطاول العماليق بالتنبال، وترصد لكل كلمة من الحق كلمات من الباطل تنسخها أو تمسخها؛ ولكل صوت من الخير أصواتًا من الشر تشوشه أو تلغو فيه، ولكل صلاة إلى الله مُكاء وتصدية من الشيطان، ولكل داعٍ إلى الجنة دعاة إلى أبواب جهنّم؛ ولكل مطالب بتحرير المساجد مطالبين بإبقائها في العبودية، وقد رصدت قبل ذلك لكل مطلق في قوانينها قيودًا وسلاسل وأغلالًا، فلا يطمع الطامع في فتح باب إلا أوجدت له قفلًا...

وما الدستور الجزائري الأبتر إلا أحبولة من تلك الأحابيل؛ وما المجلس الجزائري إلا سليل للمسلول؛ فإذا كان الدستور قد جعل فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الجزائرية أحد بنوده، فقد أيّد حكومة الجزائر من المجلس الجزائري بأحد جنوده، وحكومة الجزائر لا تريد الفصل، ولن تريده، ولا ترضاه، ولا ترضى على من يرضاه؛ والدستور حكم بالفصل، ولكنه وكل تنفيذه إلى هذا المجلس الذي صنعته الحكومة بيدها، ونفخت فيه من روحها؛ ومعنى ذلك أن الدستور ترك للحكومة منفذًا تستطيع هي بأساليبها أن تجعل منه بابًا واسعًا؛ وقد فعلت...

* * *

ونحن نعلم أن المسألة من أولها إلى آخرها سفسطة وتضليل، ولا ندري كيف يتأتى لهذا المجلس المصنوع، المحدود السلطة، المقصور على الماليات، أن ينفّذ قضية ليس المال إلا جانبًا من جوانبها الكثيرة، ومعظم الجوانب خارجة عن دائرة نفوذه. وهبْ أنه اتسع نظره للأوقاف الإسلامية، فماذا يصنع في الجوانب الأخرى؟ أيبقي ما كان على ما كان؟

وكنا نرجو أن يكون المجلس أكمل من الدستور، ينتخب أعضاؤه انتخابًا حرًّا، وتظهر فيه النيابة عن الأمة بمظهرها الحقيقي، ويكون النوّاب نوّابًا حقيقيين يؤثرون مصلحة الأمة على مصلحة الحكومة؛ ولو وقع ذلك لكانت جمعية العلماء أول المطمئنين إلى أعمال النوّاب في مطالبها الدينية، كيفما كانت أعمالهم الأخرى.

وقد مرّت على هذا المجلس سنتان، وعرفنا من أعماله وبرامجه اليد التي توجّهه والريح التي تسيّره، والجهة التي يتّجه إليها، وصدق كل ما قلناه فيه، وأن عسى أن يهبط عليه الوحي في لحظة فيتناول مسألة فصل الدين الإسلامي بآراء مسيحية، وأفكار لائكية، وعقول بين ذلك... ثم ينتخب لدراسة الموضوع مقررين مسيحيين أو لائكيين أو ما شاء الهوى... ويا ضيعة الإسلام بين الأهواء!

فصل الدين عن الحكومة

*– 4 –

... ونظرنا نظر المستقلّ، الذي يبني أحكامه على الواقع المحسوس، فوجدنا هذا الوليد الناقص الذي يسمّونه الدستور الجزائري لم يشرّع جديدًا، ولم يزرع مفيدًا، ولم يزد على أن نقل هذه القضية من ميدان إلى ميدان، ومن يد إلى يد؛ نقلها من فرنسا إلى الجزائر، ومن برلمان يسيطر على الأفراد، إلى شبه برلمان يسيطر عليه فرد... ليدفع الغضاضة عن فرنسا اللائكية، ويلصقها بفرنسا (المسلمة) التي تتمسّك من الإسلام بمعابده ورجاله، وتعرف كيف تسيره وتسيرهم. فكأنه يقول لحكومة الجزائر: لنتُ قليلًا فاشتدي، ورضيت قليلًا فاحتدي، وتركت لك ما إن عملت به لن تضلي من بعدي، ولم أضع لك قانونًا بل شبكة كلها خروق، فاخرجي من أيها شئت... وكأنه يقول لها «بدأت فتممي» وخصصت فعمّمي، وصدعت الحائط فرمّمي، وتساهلت فصمّمي، وأشرت بالترياق وأنت... فسمّمي، وجملت الوجه قليلًا فدمّمي، وقالوا إن فرنسا تغضب الإسلام، فأقيمي الدليل على أن المسلمين راضون، وشدّدي اللام من صفتهم فإذا هم «مسلِّمون». ففهمت حكومة الجزائر هذه الإشارة، وتلقتها كأنها بشارة؛ وكيف لا تستبشر؟ والدستور برمّته (لامركزية) من النوع الذي يسيل عليه لعابها، وبنود القضية الدينية منه إطلاق ليدها في التصرف المطلق؛ لذلك فهي قد فهمت من الدستور أشياء غير ما فهم الناس، ولذلك قامت بالتنفيذ على حسب مفهومها لا على حسب فهم الناس، فبدأت بالمجلس الجزائري فصاغته على ما يوافق هواها، وظفرت منه بمفرد يأتي بجمع؛ ولها من ورائه مدد من (رجال الدين)، وعدد من المرتزقة المجنّدين، وبدد من الظلمة المعتدين، وأوزاع من العوام غير المهتدين، وأشياع من الزملاء (المنتدين)[1]، فإذا اتحد هؤلاء بهؤلاء اتحادًا كيماويًّا تمّ المطلوب،

* نشرت في العدد 88 من جريدة «البصائر»، 25 جويلية 1949.

1) المنتدون في اصطلاحنا هم كل من دخل «النادي الفرنسي الإسلامي». وهو نادٍ أنشأته حكومة الجزائر وزوّدته بمال ورجال وبرامج للاصطياد والتنويم والتلفيق.

وكان حزب الحق هو المغلوب؛ ومن هذا ولهذا وضع التقرير العاصمي، وكأنه مقدّمة لكتاب، أو طليعة لكتائب؛ ومن هذا ولهذا رأى الناس مفتي الجامع الحنفي مترددًا دائمًا على مقر المجلس، متصلًا بأعضائه مداخلًا لهم، متطارحًا عليهم، متملقًا إياهم، لا يفارق أحدهم إلا ليتصل بآخر. كأنه المعني بقول القائل: لا يرسل الساق إلا ممسكًا ساقًا، وكأنه آنس منهم صاغية، فهدّد في بعض ما كتب بأن (سعيه سوف يرى)...

* * *

ونظرنا نظرة أخرى فإذا هذه القضية قد خرجت من يد الحكومة – بالمعنى الذي نعرفه للحكومة – وأنها لا تملك فيها رأيًا، ولا تهتدي سبيلًا، على ما استباحت في سبيلها من حرمات، وارتكبت من محرّمات؛ وأن القضية أصبحت كرة تتلاعب بها الأهواء المتعاكسة، والمكاتب المتشاكسة. ففي الولاية العامة مكاتب، لكل مكتب في القضية نظر ووجهة هو موليها، ولكلّ مكتب غاشية من (رجال الدين) تطرق الأبواب خلسة، وتقنع من البخت السعيد بالجلسة، وفي إدارة عامل الجزائر مكاتب أخرى تُزاحم وتُلقي دلوها في الدلاء، ويلوذ بها جماعة من (رجال الدين)، ولكل واحد من عمّال العمالات[2] رأي في القضية ومنهاج عملي يجري عليه، وعلى الدستور الجزائري العفاء، ولكل واحد منهم (محاسيب) من رجال الدين، يفيدون ويستفيدون؛ وإن اهتبال العمّال بهذه القضية لأمر طبيعي، لأنها سلطة مجدودة، وسلطنة غير محدودة، فهم يخشون أن تفلت منهم؛ فهم الذين يولون رجال الدين ويعزلون، فكيف عن هذه العروش ينزلون؟ وكيف لا يعذرون إذا جاحشوا عنها إلى آخر رمق؟

وإن هذا هو الذي يفسّر لنا موقف عامل قسنطينة من الوفد الذي فاوضه في قضية الجامع الكبير منذ أشهر.

ذلك أن طائفة من أعيان مدينة قسنطينة وفضلائها هالهم ما رأوا من إقبال طلبة الآفاق على معهد عبد الحميد بن باديس، وهالهم أن يضيق المعهد بهم، فيرجعوا خائبين، ورأوا أن في ذلك مسًّا بكرامتهم، وخدشًا لسمعة بلدتهم، فعقدوا اجتماعًا في المعهد، وحضرناه معهم لنبلى في العذر، وقرّروا إيفاد وفد إلى عامل العمالة باسم مدينة قسنطينة ليفاوضه في فتح الجامع الأعظم في وجوه هذه المئات التي ضاق عنها المعهد ولم تجد أماكن لدراسة دينها ولغتها؛ وتألف الوفد من رئيسي أكبر الأسر القسنطينية، وأعرقها في العلم والشهرة، وأطولها امتدادًا مع التاريخ، وأقربهما لرضى الحكومة، وهما الحاج محمد المصطفى بن

2) عُمّال: جمع عامِل وهو «المحافظ أو الوالي». والعَمالة: المحافظة – الولاية.

باديس، والحاج الخوجة بن الشيخ الفقون، ومن نائبين في البرلمان الفرنسي وهما السيدان الهاشمي بن شنوف وعبد القادر قاضي، ومن محاميين مشهورين هما الأستاذان الحاج إدريس، والحاج مصطفى با أحمد، ومن ثلاثة من رجال الإصلاح الحافِّين من حول المعهد؛ والتقى الوفد بالعامل على ميعاد، وشرح له القضية، وما من رجاله إلا منطيق مبين، وكان مما قالوا له: إن هذه المسألة لا تهم شخصًا معينًا، ولا هيئة معينة، وإنما تهم الأمة وأبناءها بصفة عامة، ثم تهم – بوجه خاص – مدينة قسنطينة التي يأبى لها شرفها وسمعتها أن ترى أبناء الأمة الجزائرية يؤمونها لطلب العلم، ثم يرجعون كالمطرودين منها، لا لشيء إلا لأنهم لم يجدوا أمكنة للدراسة، ومساجد الأمة خاوية على عروشها، معطلة من أعظم وظائفها وهو التعليم، وتكلم ابن باديس على سنّه ومقامه وبيته فأقنع، وتكلّم النائبان بما لهما من حق النيابة وقوتها فأحسنا، وتكلم المحاميان بما لهما من المكانة في القانون فأفحما، ولكن حضرة العامل كان قيصري النزعة في الخطاب والجواب، فلم يزد على أن رد عليهم بكلمات جوفاء من الطراز المألوف، وبوعود من الطراز المألوف أيضًا... وبتنصّل من أوائل القضية وأواخرها مألوف أيضًا... وبإحالة على مرجع أعلى منه، وهذا من المألوف أيضًا، ثم ضرب للوفد موعدًا بإرجاع الخبر، وهذا من المسكنات المألوفة أيضًا... ولعلّ السادة ما زالوا ينتظرون رجوع الخبر إلى الآن...

ولم يخلُ هذا الاجتماع – على ما بلغنا – من تلك العادة الممقوتة التي تفننت هذه الحكومة فيها، وبرعت في استخدامها، وهي التلويح بشق معارض... فقد تعوّدت أن ترصد لكل حق معارضًا من الباطل، تقيمه وتنصبه، وتدّخره من يوم الاستغناء ليوم الحاجة، أو ترتجله ارتجالًا، إذا حفزها الأمر؛ ولهذه الغاية نراها تُكوِّن جمعية دينية، في كل بلدة فيها جمعية دينية حرّة لتضار هذه بتلك، فكلّما طالبت جمعية العلماء بحق، أو وقفت موقفًا يغيظ الحكومة أوحت إلى جمعيتها: أنْ عارضي، وقولي: لا، فيما قالت فيه الجمعية الحرة: نعم، وكم تجرّعنا من هذه العادة من صاب، وكم لقينا فيها من أوصاب.

ويلوح لنا أن لعامل قسنطينة على الخصوص هوى غالبًا مبرحًا في الجامع الأعظم، وأنه حريص على إبقائه في يده، ولو حكم المجلس الجزائري، ولو تصافت المكاتب، ورجع إلى الحق (المعتوب) والعاتب؛ وكأن له فيها غرضًا بديعًا، وذوقًا لطيفًا وهو أن يجعل منه مزارًا للزوّار من العظماء، ومتحفًا عامرًا بالتحف الآدمية المتحركة، والدمى البشرية الحية، فكلما زار قسنطينة عظيم من فرنسا ذو حيثية، طيف به على الجامع الكبير والبيعة الكبرى، والكنيسة العظمى، ليرجع الزائر إلى وطنه بصورة رائعة من امتزاج الأديان، وإيمان جديد بقدرة الرجال على المزج والعجن، وبشهادة صادقة للعامل بأنه لا يفرّق (بين أحد من رسله)... ومن عاش في الجزائر رجبًا، رأى عجائب لا عجبًا.

فصل الدين عن الحكومة (5)

أو فصل رمضان والأعياد عن قاضي الجزائر...!*

... وما ظنُّ الناس؟ أيظنون أننا نقصد في ما كتبنا ونكتب من هذه الأسماء والألقاب أصحابها المعروفين؟ لا والله، فهم عندنا أقل من أن يجول لنا فيهم خاطر، أو يثور لنا فيهم اهتمام، وإنما نقصد من هذه الأسماء والألقاب – التي تجري على أقلامنا في هذه المواضيع – معاني خبيثة، وفكرًا شيطانية أصبحت هذه الأسماء دوال عليها، وأعلامًا لها، ومرتبطة بها ارتباط اللفظ بمدلوله الوضعي.

إن هذه الأسماء والألقاب التي فرضت علينا كلمة الحق تناولها بالنقد والتجريح، ليست أعلام أشخاص، ولا ألقاب أشخاص، وإنما هي أعلام أجناس لمعانٍ استعمارية، كما قالوا في فجار، إنه علم للفجرة، ... فإذا حاربنا اسمًا من هذه الأسماء فإنما نحارب الفكرة التي رضي صاحبه أن يمثّلها، والصوت الذي رضي أن يكون بوقًا له، لا الشخص الذي تحده الحدود، وتنمّيه الجدود، والفِكَر إنما تتمثل في المظاهر ذات القابلية. والناس يحملون من طبائع الأرض ألوانًا شتى، ففيهم القار المكين، وفيهم القابل للانخساف، والمتداعي للانهيار؛ وما ذنبنا إذا رضي أصحاب هذه الأسماء والألقاب أن يكونوا مظاهر للفكرة التي ينكرها الإسلام، ويمقتها المسلمون، وتحاربها منا الألسنة والأقلام؟ وما ذنبنا إذا رضي هؤلاء أن يتمثّلوا أفكارًا خبيثة لا رجالًا، ومبادئ لعينة لا أشخاصًا، وظلالًا من يحموم لا باردة ولا كريمة؟... لا ذنب لنا في ذلك وإنما الذنب لمن جعل نفسه عرضة لوطء الأقدام ووخز الأقلام.

نحن نريد – جادّين – فصل ديننا بجميع شعائره وعلائقه عن حكومة الجزائر اللائكية المسيحية فصلًا ناجزًا حاسمًا، لا تلكؤ فيه ولا هوادة؛ ونريد بتّ حباله من حبالها في المعنويات والماديات، ونعمل لذلك متساندين في الحق، مستندين على الحق؛ والحكومة

* نشرت في العدد 89 من جريدة «البصائر»، 8 أوت 1949.

تريد بقاء حبالها بحباله مربوطة، ويدها في التصرّف فيه مبسوطة، وتحاور فلا تصدق في محاورة، وتشاور فلا تخلص في مشاورة، فإذا أعشاها الحق بنوره، وأفحمها البرهان بظهوره عمدت إلى شخص من هذه الشخوص فغطّت به مقصدًا من مقاصدها المفضوحة وسترت باسمه الإسلامي وصبغته الإسلامية مكيدة من مكائدها المكشوفة، فبالأمس غطت فضيحة استعباد المساجد باسم المفتي العاصمي، واليوم تستر مكيدة تدخلها في الأعياد الإسلامية باسم القاضي، ولا مفتي، ولا قاضي، وإنما هي الحكومة متسترة بهذه الأسماء التي لا تستر، متقنعة بهذه الأسماء والصفات والثياب، لابسة لها لِبسة الممثل... كأنها تقصد ما يقصده (القالب الحيران)[1].

هذه أهدافنا نسدد إليها سهام التجريح، وهي مبادئ ظهرتْ بمظهر رجال، أو رجال صيّرتهم قابلية الاستعمال مبادئ؛ ولكن ما بالهم كلّما مسّهم النقد بحرارته صاحوا وناحوا، وثاروا وخاروا، وتظلموا وتألموا؟ أنا لا أصدق أن ذلك كله انتصار للكرامة الشخصية، وإنما هو إغراء لنا بموالاة الحملات عليهم، ليزداد شأنهم نباهة عند مسخّريهم، وليتّخذوا بذلك وسيلة وزلفى لأسيادهم، وذريعة لنيل الممتنع من مرادهم، وإن شأنهم في التظلّم منّا شأن القائل:

أدعو عليه وقلبي يقول: يا رب لا لا

* * *

ولم ننتقل بالقرّاء من ميدان إلى ميدان، وإنما حدث في القضية ما أوجب تغيير العنوان،... فقد كان الصوم والإفطار والأهلة والأعياد كلها بعيدة عن تدخّل الحكومة، وكانت كالناحية المستقلّة من الوطن المستعمر، لم يُصبها من تسلّط الحكومة ما أصاب المساجد والأوقاف والحج، فالأعياد لا تُقام مسايرة لمقصدها، والأهلة لا تُرى بعينها، ولا بمرصدها، ولم يكن ذلك استعفافًا منها، وإنما كان استخفافًا بها، لعدم وجود المال فيها... فرمضان ليس له أوقاف تنفق عليه، ولا سفينة تحمل إليه، والأعياد، عاطلة الأجياد، آمنة من طروق زياد، وطارق بن زياد... وكان المسلمون يصومون ويفطرون متفقين أو مختلفين، لا يتبعون في ذلك إلا أحكام الدين أو تأويلات لا تخرج في الأغلب عن الدين، ولا ينقادون إلا لعوائد إن كان بعضها قبيحًا، فليس منه الانقياد للحكومة.

1) من مزاعم العرب أن من حار ولم يتبين له وجه الصواب فدواؤه أن يلبس ثوبه مقلوبًا لتزول عنه الحيرة، يقول شاعرهم:

جدت جداد بلاعب وتبدلت في الحي لبسة قالب حيران

ولما جد جد القضية الدينية بيننا وبين الحكومة انتهى بنا الأمر إلى إمعان في الذياد، وانتهى بها إلى غلو في الكياد، فرأت أن (تُلحق) الصوم والأعياد الدينية بالمساجد والحج، حتى يعمّها الاستعمار، ويشملها الاحتكار، وبنت الجديد في القضية – وهو لجنة الأهلة والأعياد الإسلامية – على القديم، وهو لجنة الأهلة التي كانت وبانت واستصدرت قانونًا يجعل الأعياد الإسلامية رسمية، تعطل فيها الأعمال والمصالح الحكومية، لتفتن العمّال والموظفين بذلك، فيكون صغوهم إليها، وهواهم معها، ولها في ذلك مآرب أخرى، وعمدت إلى قاضٍ من قضاتها المخلصين في ابتغاء مرضاتها، فنصّبته رئيسًا لتلك اللجنة، وشدّت عضده بعصبة من طرازه، لتحرّك النار بأيديهم، وتعمل ما شاءت بأسمائهم وألقابهم، وبدأت التجربة العملية المفضوحة في العام الماضي.

ومن أغرب المتناقضات في شؤون هذه الحكومة أنها تقتل الشيء، ثم تحاول استغلال خصائص الإحياء منه، فهي التي مسخت هذه الألقاب الإسلامية وامتهنتها، وجرّدتها من كل احترام، باحتكارها للتصرّف فيها، ووضعها في غير مواضعها، وإلباسها لغير مستحقّيها، ثم بدت لها بدَوات، فجاءت الآن تريد أن تستغل آثار هذه الألقاب في نفوس المسلمين، وهيهات... إن المسلمين لا يحترمون هذه الألقاب إلا إذا كانت من وضعهم في اللغة الدينية، وما زالت فيهم بقية من الرشد الديني يُفرقون بها بين ما يريدونه لأنفسهم وبين ما يراد بهم، وبين ما يحوكونه بأيديهم، وبين ما يُحاك لهم...

* * *

وفي هذا العام... جاءت ليلة الثلاثين من شعبان، فباتت جمعية العلماء مرابطة بمركزها الذي لا يغلق حتى تغلق مراكز التليفون، تتلقّى الأخبار وتوزّعها، وباتت الأمّة متّصلة بها، اتصال من يهمّه الأمر بمن يعنيه الأمر، وأصبحت الأمّة صائمة في شبه إجماع على الثبوت، وعلى إلهام واحد من الحق، لا يد لهذه اللجنة فيه.

أما لجنة الأهلة فباتت نائمة ملء جفونها من غير علة... لم تمتثل من سنن الله إلا جعل الليل لباسًا... وإنما أرادت أن تثبت وجودها، وتعلنَ عن نفسها، فأوعزت من أول الليل إلى الإذاعة – كما بلغنا من مستمعيها – أن تدعو بالشفاء لرئيسها المريض، وأن تقول على لسانها: إن الصوم ثبت عندها ثبوتًا شرعيًا... ولم تُبين وجه الثبوت، أهو بالرؤية، أو بحساب المرصد؟... ففهمنا من ذلك الإجراء البسيط أن شهر رمضان خفيف الوزن عند الحكومة لأنه لا عطلة فيه، بقدر ما هو ثقيل على اللجنة، وفهمنا أن هذه اللجنة ترتجل هذه الإعلانات ارتجالًا من غير تثبّت ولا عناية، لتفيد البسطاء أنها حية كإفادة حياة المتكلّم من

وراء جدار، وفهمنا أنّ آخرَ ما يعني هذه اللجنة هو دين الأمة وصومها وإفطارها.

وجاء العيد فوقعت الواقعة...

جاءت ليلة الثلاثين من رمضان، فجرَتْ جمعية العلماء على عادتها من السهر والاحتياط، وجرَت الأمة على عادتها من الاتصال بها للإخبار والاستخبار، وجرت اللجنة على عادتها من الارتجال وعدم الانتظار، وما كنا ندري أن الأمر دُبِّر بليل بين الحكومة وبين اللجنة – قبل ذلك بيوم أو بأيام – على (جعل) العيد يوم الأربعاء، وقطع النظر عن الرؤية والرائين، والمسلمين أجمعين، حتى المحاكم الأخرى ووثائقها وشهودها، كأن الحكومة ولجنتها لا يعنيها في أمر العيد وعطلته إلا العاصمة، ولا يعنيها من المسلمين إلّا سكّان العاصمة، ولا يعنيها من إفساد شؤون الدين إلا ما كان في العاصمة؛ فإذا نجحتْ في شيء من ذلك فيها فذلك هو النجاح... وكأن هذا القاضي على الأهلة والأعياد ظنّ أنه رقي أسباب السماء بسلّم، فتوهّم أن (تصويم) المسلمين (وتفطيرهم) أصبحا من مشمولات نظره وحكمه، كما يحكم في طلاق امرأة، أو زواج رجل، أو مال محجور، وسكت عنه الناس فيما يوافق الحق، فتمادى فيما يخالفه، وقال: ما دمتُ أحكمُ على الأهلة فلأقل لها كوني فتكون، ولا تكوني فلا تكون، وما دام المرصد طوعَ إشارتي، والإذاعة تؤدّي – بالأمانة – عبارتي، فلآخذ من هنا، وأضعْ ههنا، ولأخرج عن طاعة الخارج، فهنا المُحُّ وهناك (المارج)...

وهكذا أصبح يقدم على العظائم في الدين، وأصبح (يحكم) بالصوم في شوال والفطر في رمضان، ولعلّه لو قيل له: إن حكم القاضي لا يدخل هنا، يجيب بأنه يدخل بصفته رئيسًا للأهلة أو رئيسًا عليها... وينسى أنه لو لم يكن قاضيًا لم يكن رئيسًا على الأهلة... وأن القضاء هو الذي رقّاه إلى الرياسة على مخلوقات ليست من جنسه، وليس من جنسها.

أعلنت اللجنة قبيل العيد بأيام، بواسطة الإذاعة تقول لمستمعيها: انتظروا هلال شوال ليلة الثلاثاء. ومن رآه، فليخبر اللجنة؛ ومقتضى هذا البلاغ أن تنتظر اللجنة في مركزها، وتتلقّى الأخبار والشهادات طول الليل، لأن القطر متباعد الأطراف، والراءون في الغالب بعيدون عن مراكز الأخبار، ومكاتب البريد.

ولكن اللجنة احتاطت في ذلك البلاغ لنومها، فحدّدت الإخبار الرسمي بالساعة العاشرة ليلًا، وهي مدة لا تكفي لإفطار الشهود واتصالهم بمراكز الأخبار أو تأدية الشهادات.

وجاءت الليلة الموعودة، فكان القاضي بين عاملين، أهونهما الوفاء بوعده، وأجلّهما ما قالت حذام... فقذف الإذاعة ببلاغ محضر، أعلن فيه الرأي المدبر، وهو أن العيد يوم الأربعاء، لأن مرصد «بوزريعة» قال إن الهلال لا يُرى، ولأن الشيخ بخيت الفقيه قال كذا، ولأن الفلكي التونسي قال كذا، وكل هذا تجديد في عالم البلاغات من اللجنة المجددة،

وكل هذا تغطية لقول حذام، وإلا فالقول ما قالت حذام...

والناس كلهم يعلمون أنه إذا ذكرت اللجنة أو رئيسها القاضي فقد ذكرت الحكومة، كما يطلق الخاص، ويراد به العام. ويعلمون أن من لا يُعجزه أن يُرغم نتائج الانتخابات على الظهور عشية السبت، من غير اعتبار لشهادة الصندوق، لا يعجزه أن يعكس القضية فيرغم الهلال على عدم الظهور إلى يوم الأربعاء، من غير التفات إلى شهادة الرؤية.

... وقذفت اللجنة ذلك البلاغ المدبّر إلى الإذاعة، ومن يدرينا؟ فلعلّها أرسلته في النهار، وأوصتْ أن لا يُذاع إلا في الميقات المحدود، تغطية لذنب الفضيحة، وإلا فما الذي منع اللجنة أن تنتظر حتى تسمع وثائق القضاة الرسميين على الأقلّ؟ إن كانت لا تقيم وزنًا لشهادة غيرهم... بل بلغنا أن اللجنة تلقّت أخبارًا بالرؤية، ولكنها تصامَّت عن سماعها، وأغلقت الباب واستسلمت للنوم والهدوء.

أما جمعية العلماء فقد انتظرت إلى الساعة الثالثة صباحًا، وأما الأمّة فقد اتصلت بها مخبرة مستخبرة بقدر ما وسع الإمكان، وسمح التليفون، فكانت النتيجة أن الهلال رُئي بالشهادة العادلة في بلدان متعددة منها: الغزوات، وندرومه، وفرنده، من عمالة وهران، ومنها: برج بوعريريج، وبني ورتيلان، وبريكة، وورقلة، وتمرْنة، وبعض نواحي الميلية، وعنابة، من عمالة قسنطينة، ومنها فحص الجزائر.

استوفينا الشهادات من البلدان المذكورة بتلقّي السماع من عدلين إلى عدلين فأكثر، وكانت الأصوات معروفة من الطرفين معرفة قطعية، وتمّ ذلك عندنا نصف الليل، وأدّى إلينا قاضي قسنطينة بنفسه ما ثبت لديه منها؛ فشرعنا في الأداء والتبليغ على الوجه الشرعي السابق، ونشرنا الخبر وعمّمناه في معظم القطر بعد أن عمّمناه في العاصمة وأحوازها بكل واسطة، وأخبرْنا نادي الترقّي بهذه الشهادات كلها بواسطة عدلين، فبلغني أن بعضَ الناس ما زالوا مفتتنين ببلاغ الراديو المحفوف بشهادة الفلك والعلم وفتوى الشيخ بخيت، فخشيت أن تأخذ هذه الفتنة الجديدة مأخذَها في بعض النفوس فيضيع الحق، ونفقد جلالة الإجماع عليه، وتضيع فرصة من فرص اجتماع الأمة على شعيرة من شعائرها فيفرح المبطلون الذين يعيشون على الافتراق والتفريق، فذهبتُ بنفسي إلى النادي، وأعلنتُ في الملأ كل ما تأدّى إليّ من الشهادات، فآمن المؤمنون، وأجمعوا على إقامة سنته في وقتها بمراكز الإصلاح من العاصمة، ببلكور، وسلام باي، وحي السانتوجين، والجزائر. وأردنا أن نبلغ صوت الحق لهذه اللجنة الهاجعة، ونوقظ أعضاءها النائمين أو المتناومين، فنقيم عليهم الحجة إبلاغًا في النصيحة، ومبالغة في جمع الكلمة، وقمعًا لفتنة الراديو وفتنة المشوّشين الذين رأيناهم يدخلون في صفوف الأمة المتراصّة، يوسوسون بالباطل، ويغرون بالخلاف، وقلنا: نبلغ القوم

ما ناموا عنه، فإما رجوع إلى الحق ونسخ لإذاعة الراديو بضدها، وإما مكابرة وعناد في الشمس وضحاها فيفتضحون وتتكشّف للأعين تلك اليد التي تسيرهم.

وذهبت أنا والأستاذ الشيخ الطيب العقبي وجماعة كثيرة من العقلاء، فبدأنا برئيس اللجنة. وتقدم من العقلاء من طرق الباب، وأفهم القضية من وراء حجاب، فتوارى ولم يرد الجواب، فتقدّم الشيخ العقبي بنفسه وخاطبه بالصوت الذي يعرف ففعل مثل ذلك، ففهم من لم يكن يفهم، وعلم من لم يكن يعلم، حقيقة هذه اللجنة، وأنها أداةُ إفساد للدين وتفريق لأهله، ورجعنا في السحر – بعد أن أفشينا العيد على أهل الحي – فأعلمنا الجماهير المحتشدة بالعيد وحثثناهم على إقامة سنّة الصلاة واستماع خطبتها؛ فانصرفوا يعلوهم جمال الإجماع وجلاله، مبشّرين بالعيد، محذّرين من هذه اللجنة، داعين لجمعية العلماء، هاتفين باسمها، ذاكرين لفضلها على الدين، شاكرين للعلماء الأحرار لطف مداخلهم في إقامة الحجة على أعوان الباطل وأدوات الحكومة.

وما طلعت الشمس حتى كانت الألوف من المصلين رجالًا ونساءً في الأماكن التي عيّنتها جمعية العلماء للصلاة، وعيّنت أئمتها، وأقيمت صلاة العيد وخطبته في أربعة مواضع من العاصمة على صورة لم يسبق لها نظير، روعة وجلالًا وسلفية.

صلّى وخطب في بطحاء جامع «بيلكور»، كاتب هذه السطور، وعيّن للإمامة والخطبة بمدرسة الحراش – الشيخ ربيع أبو شامة، وللإمامة والخطبة بجامع «سانتوجين» – الشيخ أحمد سحنون، وللإمامة والخطبة بمدرسة سلام باي – الشيخ سعيد صالحي.

* * *

وأحقَّ الله الحق، وأبطل الباطل، وفرح المؤمنون بنصر الله لدينه، ولاذ اللطيم بأمّه يشكو وينتصر، فأصبحت المساجد محاطة بشراذم من البوليس تحمي بيوت الله من عباد الله، وكانت هذه الفعلة أكبرَ سيئات اللجنة البغيضة، ورجحت العاصمة – التي هي ميدان الصراع – كفة الحق على كفة الباطل، وأوقف السائق الإلهي الأمور عند غايتها.

ثم كانت خاتمة الفضائح ما كتبه رئيس اللجنة في ذلك اليوم في جريدة «آخر ساعة»... وقد تناولته الجرائد الإفرنسية وأفاضت فيه، وقد لفت الناس إليه اعتراف القاضي بأن المرصد قرّر أن هلال شوّال يولد ليلة الثلاثاء ويبقى ثماني عشرة دقيقة... ولكنه قد لا يُرى لعوامل جوية. وسخّر الله صاحب الجريدة لنصرة الحق، فاستخرج من شهادة المرصد أن الهلال يبقى أكثر من خمسين دقيقة. وقرأ الذين سمعوا بلاغ الإذاعة هذا التناقض فقالوا: سبحان من يطبع على القلوب، ليجعل للحق أنصارًا من خصومه وأعدائه...

سجع الكهّان*

– 1 –

هذه فصول، إن لا تكنْ فيها روح الكاهن ففيها من الكاهن سجْعُه، وإن لا يَجُلْ في جوانبها صَدَى الكهانة ففيها من ذلك الصدى رَجْعه؛ فيها الزمزمة المفصحة، والتعمية المبصرة، وفيها التقريع والتبكيت، وفيها السخرية والتنكيت، وفيها الإشارة اللّامحة، وفيها اللفظة الجامحة، وفيها العسل للأبرار، وما أقلَّهم، وفيها اللسع للفجار، وما أكثرهم؛ فلعلّها تهزُّ من أبناء العروبة جامدًا، أو توْزّ منهم خامدًا، فنجني شيئًا من ثمرة النية، ونغيِّر أواخر هذه الأسماء المبنيّة.

وفي هذه الفصول من لبوس الألفاظ ما يَعُدُّه المتخلفون من كتّابنا غريبًا، وما غرابته في أذواقهم، إلا كغربة الأعلاق النفيسة في أسواقهم؛ ولو حفِظوه ووَعَوْا معانيه وأقروه في مواضعه من كلامهم، وأحسَنوا إجراءه في ألسنتهم وأقلامهم، لأحيَوْه فحيوا به، ولأصبح مأنوسًا لا غريبًا، وأصبحوا به من لغتهم قريبًا؛ ولكن أعياهم الإحسان، فعفّروا في وجوه الحسان، وعجزوا في جني الثمرة عن الهصر، فرضوا من اللغة بما يباع في «سوق العصر»[1].

منشئ الفصول

* * *

«نحن الكهّان، أفراس رهان. منّا السابق المصلي، وممّا الآبق المولّي. كنّا إرهاصًا للنبوّة، ودليلًا للضعف إلى القوة، فلما جاء الحق، وحيص[2] الشق، اندحرنا وانجحرنا،

---

* نشرت في العدد 69 من جريدة «البصائر»، 28 فيفري سنة 1949.

1) سوق العصر عند العامة هو السوق الذي تُباع فيه الأشياء القديمة المستعملة (الخردة والأسقاط).

2) حيص: خيط، ومنه المثل: أن دواء الشق أن يحاص.

فلما عادت الكسرويّة إلى شرائعها، والقيصريّة إلى ذرائعها، آن أن نعود إلى الإنذار، ونصرخ في وجوههم: حذار حذار، إن بطش الله لشديد، وإن الحرير قد يفلّ الحديد».

كاهن قديم

* * *

«الكاهن، لا يُداري ولا يداهن؛ كلامه رمز، ليس فيه لمز. عاذ غيره بالتصريح فعاد بالتجريح؛ ولاذ هو بالكهانة، فأمِن المهانة. كان... فكان الزاجر الرادع، للفاجر الخادع، وكان... فكان نذير السارق والمارق، والخاتل والقاتل، والمحتال والمغتال، والقاذف والحاذف، والمبتهر والمبتئر[3]. تجف قلوبهم إذا نوفروا إليه، وتجفّ لهواتهم إذا وقفوا بين يديه، لاستتارهم بالعيب، واستهتارهم بالغيب، فلما جاء «محمد» بالحق فاء الناس إلى ضمائرهم، وحكموا هديَه في سرائرهم، وردُّوا الغيب إلى عالمه فاستراحوا؛ ولكنهم اليوم عادوا إلى الجاهليّة، وتقلّبوا في أرحام حنظليّة وأصلاب باهليّة، فماذا نصنع؟ أنتقدّم منذرين، أم نتأخّر معتذرين؟ بل نُحيي الاسم، ونُميت – كما أمات الإسلام – الرسم».

كاهن عصري

* * *

«كلام الكاهن ليس بالواهي ولا الواهن، كأنما وخزه الماء، أو لمسته السماء، ففيه من الماء إيراق؛ وفيه من السماء إشراق. شارف مكامن الغيوب ولَمَّا... وورد معين العربية فورد جمًّا. عمر صحائف من ديوان العرب، وكان من شعرهم كالكرب من القَرَب[4]، بل كان هو الشعر في أول أدواره، وكان قارعَ باب البيان وفارعَ أسواره... اصطنع الكهّان السجع ليروقوا السامع ويروعُوه، وليسهل على الناس فيحفظوه ويَعُوه. ولهم في حوْك الكلام مقامات حسان، أخذ منها ابنُ دريد والهمذاني تلك المقامات الحسان. سبقوا في السجع فما سبقتهم إلا الحمائم، وأخذوه طبعًا فما لحقهم فيه صنعًا إلا «بعض ذوي العمائم». وما عدا هذا من الأسجاع، فهي غُصص تتبَعُها أوجاع».

كاهن أديب

* * *

3) الابتهار ادّعاء الفاجر الفجور كاذبًا، والابتئار ادعاؤه صادقًا.
4) حبل يشد في عراقي القربة.

لا أقسم بذات الحفيف، والجناح الخفيف، المشارفة في جوّها للكفيف[5] وبالسر المودع في التجاويف والتلافيف، وبالمغيرات صبحًا عليها التجافيف، والمغيرين على الحق كالعاهر ابن العفيف[6]. وبالسابغات والسوابغ من الدروع والجلابيب، وبالآخذين أمس من تلّ أبيب بالتلابيب، وبالبحر والسفينة، والحبر و«الدفينة»[7]، إن أبا الطيب المتنبي لمن موالينا، وممن تلقَّى الكهانة عن أوالينا؛ وإنه ما دُعي بالمتنبي[8] إلا لأنه كان شاعرًا كاهنًا، ليناقض النبي الذي لم يكن كاهنًا ولا شاعرًا، وقد نُفِيا عن النبي مجتمعين، فثبتا في المتنبي مجتمعين، وإن كثيرًا من شعره كهانةٌ ملتفِّعة بالشعر؛ يُوطّيها في جُمل، ويغطِّيها بممدوح أو جمل؛ وستظهر أخباؤها، وتُعلم أنباؤها... وإن قوله: وقعت على الأردن منه بليّة، هو من الكهانة الكاهنة (بالحالة الراهنة). قالوا أراد أسدًا قانصًا، وقلنا أراد رجلًا ناقصًا. قالوا: أراد كلبًا، روع قلبًا، ومزّق خلبًا، وأوسع المهج سلبًا، وقدم ضراغمة غُلبًا، أوطنها غابات غلبًا وذاد عنها أشاوس غلبا، قلنا: إنما أراد رجلًا ركب صعبًا، وباع شعبًا، وعقَّ لؤيًّا وكعبًا، وسلك بنو أبيه شِعبًا، وسلك وحده شعبًا، وخذلهم في الجلى فملأ القلوب رعبًا، واشتفّ صُبابة المال، فلم يدَعْ لبائس حلسًا ولا لبائسة قَعْبًا... لم يُرد أسدًا خادرًا، وإنما أراد رجلًا سادرًا، يظهر في زمن نحس، ويبيع ضفَّتي الأردن بثمن بخس، وأيْن ليث عفَّره بدر بسوط، من شخص كفَّره صدْرٌ بنوط.

أيّتها البُحيرة[9]، مالك في حيرة؟ لقد شهدت لبدر بن عمّار بالفتوة، فهل تشهدين لأبي الطيب بالنبوّة؟... وحدّثي الولي يا (ولية)، أيّهما كان عليك بلية؛ ذاك الذي وردك زائرًا، أم هذا الذي وردك خائرًا؟ إنهما لا يستويان؛ ذاك أسد غاب، رزقه في الناب، وهذا حلف وِجار، رزقه على الجار؛ ذاك يعيش على فرائسه، وهذا يعيش على فضلات سائسه؛ ذاك رمزُ إقدام، وهذا موطئ أقدام؛ ذاك ورد الفرات زئيرُه، وهذا جاوز الفرات تزويره؛ ذاك مشغول البال بتربية الأشبال، وهذا مشغول... بعُرْس الغول.

أيها الصاعد في العقبة، المجاحش عن خيط الرقبة، البائع لجار السوء صقبه، لا يكن صوتُك الصيت، ولو أحييت البحر الميت.

5) السماء لأنها مكفوفة.
6) ابن العفيف التلمساني، له نزعات شاذة في الاعتقاد.
7) طعام معروف عند اليهود.
8) بدر بن عمار الذي قتل الأسد.
9) المراد بحيرة طبرية.

أيها الخاذل للغزَّى[10]، ما أنت لهاشم... إنما أنت لعبد العزَّى؛ أغضبت سراة الحيّ، وأزعجت الميت منهم والحيّ، من لؤيّ إلى أبي نُمَيّ. فويحك، أما تخاف أن تهلك، يوم يقال: يا محمد إنه ليس من أهلك.

كاهن الحي

10) جمع غاز.

سجع الكهّان*

– 2 –

أليّة بتربة الكواهن، ما حازم في أمره كواهن.

ويلٌ للعرب، من حبل قد اضطرب، وشرٍّ قد حلّ ولا أقول قد اقترب. قُسم الويل، على العميم والخُويل. فويل للعرب من ملوكهم، وويل للعجم من سلوكهم، وويل للروم من صعلوكهم، جنت على الأصفر ناره، وعلى الأبيض ديناره، وعلى الأسود فدامته واغتراره، وعلى العربي ركْبُه البطيّ، ولسانه النبطي.

ما أكثر الملوك وأهون العنا، وما أكثر السيوف وأقلّ الغنا؛ سيوف، كالدراهم الزيوف، هذه لا تُقني، وتلك لا تغني؛ ونعيذ العروبة بالله من ملك لا يدفع، وسيف لا يقطع.

أحاجيكم، ولا أناجيكم؛ مملكة في أفحوص، وعاصمة ليس لها (فحوص)، ودولة بلا صولة، وخزينة من أصفار وخزانة بلا أسفار، وكرسي بلا قوائم وعرش بلا دعائم... عرش كعشّ الحمامة، عُود من غرَب[1] وعود من ثُمامة.

قد لصَّه[2] قعيده في هيعه ونـاله بالـبـيـع لا بالـبـيـعـه

وسيوف مجرَّبة، تخيّرن من يوم «تُرَبَة»، وجيش درّبه الغير، وجرّبه إلا في الخير، وبطانة مدّ بها الشيطان أشْطانَه؛ وحاشية كالماشية؛ وأسماء بلا مسمَّيات، ومجازات لا حقائق لها، و (مجازات) كلها حقائق، وملك يأتمر ولا يحجُّ ولا يعتمر؛ يَحسُن فيه التمثيل بملك (التمثيل). بكت الجلالة منه كما بكى الخز من روح[3]، وضاق صدرها بسرّه وشرّه ومَن

---

* نشرت في العدد 70 من جريدة «البصائر»، 7 مارس سنة 1949.

1) الغرب والثمام: عودان رخوان.

2) لصه: سرقه، ومنه اللص.

3) روح بن زنباع المقول فيه: بكى الخز من روح وأنكر جسمه.

لها بالبوح؟ عشقها يافعًا، والتمس لوصلها شافعًا، فكان الشافعُ عدوّ وطنه وقومه، وظالم أمسه ويومه؛ فأين يقع هذا من أرض الله؟

فإن عرفتموه فسلوه من ملكه، بعد ما لاكه وعلكه، وفي خرت الإبرة سلكه؟ ومن صيَّره غراب بين، وجالب حَيْن؟ ومن أعجم تعريبَه، وأحكم على الشر تدريبَه؟

أنشد ابن خلكان في القرن السادس هذا البيت:

كسِنَّور عبد الله بيع بدرهم صغيرًا فلما شبَّ بيع بقيراط

وقال: إنّ عبد الله هذا لم يعرف أحد من هو. فمن لقي ابن خلّكان فليخبره أنّ كاهن الحي عرف عبد الله صاحب السنور...

أيها العربي: الحق سافر، والعدو كافر، والقوي ظافر، فعلام تنافر خصمك إلى خُنافر[4]؟ ويلك إن المنافرة لا تكون إلا في المشكوك، وإن الحق تحميه السيوف لا الصكوك؛ وويحك إنّ منافرة الكهنة إلى الكهنة، بالخيبة مرتهنة، مجلس الأمن مخيف، والراضي بحكمه ووضعه ذو عقل سخيف؛ إنهم ليسوا من شكلِك، وإنهم متفقون على أكلك.

كاهن الحي

4) خنافر بن التوأم الحميري، كان كاهنًا في حمير، ثم أسلم على يد معاذ بن جبل، وأخباره مع صاحبه شصار مبسوطة في كتب الأدب وكتب الرجال.

سجع الكهّان*

— 3 —

أيها الأعارب، هل فيكم بقايا من حرب أو من محارب؟[1] دبّت بينكم العقارب، وأنتم أقارب، فتكدَّرت المشارب، وتقوَّضت المضارب[2]. وكهُمت المضارب[3]، وغاب المسدِّد في الرأي والمقارب، ولم تُغنِ النذر والمثلات والتجارب، إن لدُهاة المغارب يدًا خفيّة المسارب، قرأوكم سطورًا لا رجالًا، وعرفوكم بطاءً عن الجُلَّى لا عِجالًا، وحفظوكم شعرًا بلا رويّ، وفكرًا بلا رويَّة فأخذوكم ارتجالًا، وخالوكم على البعد أعمالًا، فوجدوكم على القرب أقوالًا، وحسبوكم عُمَدًا في التركيب الأمميّ فألفوكم مفاعيلَ وأحوالا، فأعربوكم إعراب الفَضَلات، وعاملوكم معاملة المهملات، وراضوكم على المهانة حتى ذل جانبكم، ووطِّئت مناكبكم. فأصبحوا لا يُبالون برضاكم لأنه لا ينفع، ولا يأبهون لسخطكم لأنه لا يضرّ. إن الغضبة لا تعقبها وثبة، هي غضبة الذليل العاجز؛ ولو افترّت كلُّ بارقة منكم عن صاعقة، لما حمد شائموها القطر؛ إن غضبة العاجز لا تُبكي ولا تُنكي. تشتعل في الحنايا ولا تهدم الحنايا، تحرق صاحبها ولا تُحرق الناس، وتلك هي غضبتكم حين تغضبون.

إن للغرب فيكم مطايا ذللًا، ولرائده منكم أدلَّة أذلة. هم أصل البلاء والعلّة، قادكم بسلوك من الأمراء والملوك، فقادوكم إلى الهاوية، فانزعوا المقادة من هؤلاء القادة تُفلحوا، ولن تُفلحوا ولن تصلحوا ما دام يلقاكم بوسيط واحد، فتلقَوْنه بسبعة سفراء، ويلقاكم برأي جميع، فتلقونه بسبعة آراء، ويلقاكم بكتيبة ملمومة، فتلقونه بشراذم شتّى... ويتحداكم نذيرُه بإنجيل واحد، فتعارضونه بيوحنّا ولوقا ومتّى...

---

* نشرت في العدد 71 من جريدة «البصائر»، 14 مارس سنة 1949.

1) حرب ومحارب: قبيلتان من العرب.

2) تقوّضت المضارب: المضارب الخيام.

3) كهمت المضارب: كهمت كلت والمضرب ما يُضرب به من السيف والمضارب جمعه.

لن تفلحوا ولن تصلحوا إلا إذا رجع أمركم إلى الشعب، وأجمع الشعب على رأي واحد، واتفق الرأي على نظام واحد، وتمخّض النظام بدستور واحد، وملك واحد؛ فإن قلتم: إن هذا عسير، فعيشوا عيشة الأسير أو موتوا ميتة الحسير، شبر في الحياة وقبر في الممات.

جاءتكم النذُرُ تترى، والمعجزات شفعًا ووترًا، وقامت عليكم الحجّة من ثلاثين حجة، فتغافلتم أوّلًا، وتخاذلتم أخيرًا، وضاعت العروبة بين التغافل والتخاذل.

إن الفارق بين لفظَي العرب والغرب نقطة، وفيها كل السر، وفيها كل الشر.

وقف الغرب بالباب فلم تتحرّكوا، ثم أنشب الظفر والناب فلم تستدركوا، ثم دسّ أنفه في التراب فوجد رائحة الزيت، ثم طلب الوقوف بالأعتاب فوطّأتم له أكناف البيت.

إن الزيت إدام، ازدحمت عليه الأقدام، فحرمه الجبان وحازه المقدام، وكان حظكم منه حظ الطبّاخ الصائم: زَهَمًا في اليد ورائحة في الأنف؛ فيا أرض ابلعي زيتَك، وَأَحْيِ ميتك، وإلا خرّب (أبرهةُ) الغرب بيت الله وبيتك.

ألا إن الغرب جاهد في أن يلحق بلفظ السبع منكم حرفين فإذا هو (سبعون)، وأن يزيد في عدد السبع من ملوككم فإذا هو سبعون.

أيها العرب: ما أضيَعَ حكمة الأسلاف عندكم. لقد أبقوا لكم من وحي السماء وحكمة الحكماء، ما لا يُبليه التراب، ولا تُنسيه الأحقاب، وما لو عملتم به لسدتم الكون أئمة، وقُدْتُم الكائنات بالأزِمَّة، ولفللتم السيوف بالآراء، ودحضتم الآراء بالسيوف؛ ولكنكم أضعتم التراث بتشاكس الورّاث، وإذا كان الوارث غير همّام ولا حارث، غارت العين الفوّارة، وقحلت الأرض الغوّارة:

ورثنا المجد عن آباء صدق أسأنا في ديارهم الصنيعا
إذا البيتُ الرفيع تعاورتْه بُناة السوء أوشك أن يضيعا

أيها العرب: أطعتم الكبراء فأضلُّوكم، وخضعتم للأمراء فأذلّوكم، حتى لِنتم للعاجم، ودِنْتم للأعاجم، وحتى ألقيتم بالمقاود، لمن سمّاهم أجدادُكم رقاب المزاود؛ فويحكم: أغنيٌّ ويقترض، ومحجوج ويعترض؟ عزّ الداء وغاب الآسي... لم يأسُ جراحَكم ألف «دكتور»، فهل يأسوها «ديكتاتور»؟...

* * *

وضع الأجداد العقال للرجل فنقلته الأحفاد إلى الرأس، وعدلوا به من الأباعر إلى الناس، وما بين النقل والنقل، ضاع العقل... والتصريف للألفاظ كالتصرّف في الأموال فيه القصدُ والسرَف.

كاهن الحن

سجع الكهّان*

– 4 –

أخنى الزمن على اليمن ... أبدلها صابًا بمن[1]
جيش الشقا لها كمن ... مهزولة على السِّمن
مغصوبة بلا ثمن ... دستورها: لا تفهمن
لا تقرأن لا تعلمن ... سلْ سِيفها[2] أنت لمن؟
سلْ سَيْفها بيد من؟ ... أغْرِبَة على دمن
لا ناصر لا مؤتمن ... عُد للحمى يا ابن اليمن
جُدْ بالدماء من غير مَن ... إن لم تذد عنها فمن؟

* * *

يا ذا جدَن[3] أيْنَت[4] عدن؟ ... روح جنتْ على البدن
فهو الحوا[5] وهي الفدن ... شر الملا لها سدَن
قرن البلا فيها شَدَن ... يا نائيًا لا تبعدن
يا وانيًا لا تقعدن ... يا ساهيًا لا ترقدن
يا خاملًا لا تزهدن ... ولا تغب بل اشهدن

---

* نشرت في العدد 72 من جريدة «البصائر»، 21 مارس سنة 1949.

1) الصاب: مر، والمن قرين السلوى في القرآن.
2) سيف البحر بكسر السين ساحله، والسيف الثاني واحد السيوف وهو معروف.
3) ذو جدن من أذواء اليمن.
4) أينت: لغة فصيحة في أين الاستفهامية.
5) الحواء: أبيات حقيرة، والفدن القصر.

ولا تُـدِن مـا لـم تُـدَن لا تـعـتـصـر في غـيـر دن
تبغي الهُدى على الهدن[6] تـخـشـى الـردى فـلـتـخـلـدن

* * *

يا بلاد الأذواء[7]، لا أقول: وُقيت الأسواء، ولا أقول: سُقيت الأنواء، ولكن أقول: ثكلت الأبناء، يا مطارح الأبناء[8]، فكل أدوائك من أبنائك، وإذا كان الولد سخنة عين ومجلبة عرّ وشين، فالثكل فيه نعمة لا رزية، والعقم به فضل ومزية.

سموك السعيدة فشقيت بمن ولدت، وما سعدوا ولا سعدت؛ فأين أنت اليوم ممن كنت سعيدة بهم وكانوا سعداء بك؟ أين أنت من سعد العشيرة وحماة الأهل والجيرة؟ أين أنت من حمير وأشياعهم وتبع وأتباعهم؟ أين؟ لا أين...

أما ظفار، فقد حالف عهدها الإخفار، وخالف ظلامها الإسفار. وأما حضرموت، فقد ساورها الموت، وجاورها الخسران والفوت، وحاورها النجيُّ فما سمع لها صوت، وأما صنعا، فما أحسن بنوها صنعًا، قد أصبحت خرقاء، وعطلت من طوق الورقاء، وعقمت أن تتمخض عن ألمعيّة (زرقاء)، ما حاكت في عبقريّ الأزمنة ولا وشتْ، وطار الناس فما حبتْ ولا مشت.

انعكست الخصائص وغلبت النقائص، وأعوز الجوَّ الطائر حين أعوز البحر الغائص.

* * *

أيها العامد إلى غامد[9]، والدافع إلى يافع[10]، هلّا وقفت بالأطلال، من عبد كلال[11]، وهبطت التلاع، من ذي كلاع[12]، فهتفت بالرفات، من الأموات، علَّهم يسمعون فيهطعون، قل – وخلاك ذمّ – قد دُخلت الدار من جميع الأقطار، فهل من

6) الهدن جمع هدنة، وحياة الهدنة مضلة.
7) الأذواء: أمراء اليمن في القديم، جمع ذو.
8) الأبناء: طائفة من الفرس استوطنوا اليمن.
9) غامد: قبيلة يمنية.
10) يافع: كذلك، ثم أطلق على موطن باليمن.
11) عبد كلال: أبو قبيلة يمنية.
12) ذو كلاع: من أذواء اليمن.

المقاول الصيد، حارس بالوصيد، إن الصائد قد صيد، وإن الشاعر قد أخلى[13]، فلا بديع في البيت ولا بيت في القصيد.

كذب الرعد، وأخلف الوعد، وأورد الإبلَ سعد، فضاع (قبل) ولم يُحفظ (بعد). فكأنّ امرؤ القيس أورى زنده، واستعرض مستقبل بني أبيه من كندة، فقال: ودع عنك نهبًا صيحَ في حجراته؛ وها هي ذي مواطن قومه نهب مقسَّم، وقد كذبت المخايل من توسّم.

سل سبأ، هل جاءها النبأ، وقل صدق المثل[14] فيك مرتين، وأعاد التاريخ نفسه كرتين؛ لقد سار أعقابكم في الزمن الحثيث سيرة وانية، فبادوا في الجيل الحديث بيدَةً ثانية.

نادِ – مُسمِعًا – في الجمع الراشد، من بكيل وحاشد[15]، فإن أصاخوا إصاخة الناشد، فقل: دهمكم السيل فلكم الويل، هذه آثار أسلافكم مجفوّة وهذه قدورهم الراسيات مكفوّة، وهذه الرقاع من البقاع غير مُلْتامة ولا مرقُوّة، طمست السوافي، ما خلَّدت القوافي، وهفت الهوافي بالقوادم والخوافي، وفرست العوافي[16] ما نامت عنه العيون الغوافي[17]، ماتت الأذواء وعاشت الأذواد، وذهبت الأقيال[18] وبقيت الأقياد.

إن الزمان الذي جرَّ إلى جُرْهُم، وخثا على خثعم، قبل أن يأتيهم بنذير، أو يبلوهم بتحذير، قد جاءهم من الغرّة بعذير: أما اليمانون فلهم من الإسلام محجّة، وعليهم من زمانهم ألف حجّة، فهم كثمود، حين لاح لهم من البرهان عمود، فضلّوا؛ أو كقوم هُود، حين أخذت عليهم العهود، فزلّوا.

كاهن الحي

13) أخلى الشاعر إذا كان شعره ليس فيه معنى جيد.
14) المثل هو: تفرّقوا أيدي سبا.
15) بكيل وحاشد: قبيلتان باليمن ما زال اسمهما محفوظًا.
16) عوافي الطير والسباع هي المفترسات منها.
17) الغوافي: النائمة.
18) الأقيال: الملوك في عرف اليمن القديم.

سجع الكهّان*

– 5 –

والعتاق الضمر، والعقبان والحمَّر[1]، والهامة ودُمَّر[2]، والزامر إذا زمّر، والخادع وما دمّر، والعامر إذا عمّر، والشمّري إذا شمّر، ومن حبس الجيوش جمَّر، ومن دخل ظفار فحمَّر[3]، إن للظماء مآرب في ماء مارب[4]، إنها تلوب على مطلوب، كوَّنه الحيا فكوّن به الحياة، فلا تجد إلا السراب والخراب والغراب.

يا عاد، أودى درم[5]، فما عاد، ويا سبأ، هل كنت من سيل العرِم على ميعاد؟ أغنى أسلافك عن ماء مأرب، ماءُ يثرب، وبرَد أحشاءهم ماءُ بردى، واتخذ أبناء قَيْلَة في ظلال النخل مقيلًا، واتخذت غسّان منه[6] إلى جنان الشام سبيلًا؛ فماذا أغنى أخلافك اليوم؟ إنهم عُراة، بالسَّراة، وظماء بلا ماء، ورعية لراعٍ غير ترعية[7]، حطّمهم رعاة البر، فأصبحوا خولًا لرعاة البحر، حفَّ مارب وروافده، فخرب اليمن ومحافده.

يا أخلاف لم يسبق مخلاف، بنيتم السد وأحكمتم للثغور السد، وأحسنتم لأواخي الأخوّة الشدّ، وجددتم للأبناء ما بناه الجدّ. هلّا وجهتم العناية إلى هذه الآية. ﴿لقد كان لِسَبَإٍ في مسكنهم آية﴾. إنها – وأبيكم – عبرة العبر، في وصْل المبتدإ بالخبر، أين الجنتان عن يمين وشمال؟ وأين البلدة الطيبة؟ إنها اليوم رمال؛ وأين القرى الظاهرة والعمارة

* نشرت في العدد 74 من جريدة «البصائر»، 4 أفريل سنة 1949.

1) نوع من الطير.
2) متنزهان بظاهر دمشق.
3) صار حميريًا، وهو مثل.
4) مأرب: سد أثري في اليمن، وقصته في القرآن.
5) مثل، ودرم رجل في عاد غاب ولم يرجع، وأودى هلك.
6) الضمير إلى غسان لأنه في الأصل اسم ماء نزلوا عليه.
7) الترعية، بالكسر والتخفيف: الذي يحسن الرعي.

المتكاثرة؟ إنها اليوم قفار؛ وأين تقدير السير بالأميال، لتيسير الاتصال؟ إنها اليوم مجاهل، يضلّ فيها القطا، ويقطع فيها من المطايا المطا[8]. أجدبت الخمط والأثل، فضلًا عن الكرم والنخل.

أعرض أسلافكم عن هدى الله فباعد بين أسفارهم، وجعلهم أحاديث، ومزقهم كل ممزق. وأعرضتم عن سنن الله فباعد بين قلوبكم، وكنتم أهون عليه من أن يُسَيَّر فيكم حديث، أو يسطّر في شأنكم قصص؛ أولئك أخذوا على قوّة، فالأحاديث عنها تملأ المسامع، وتهزّ المجامع؛ وأنتم أخذتم على ضعف وانحلال، فالحديث عنكم لا يُثير عزّة، ولا ينير السبيل إلى قدوة.

لو بذل الكُهّان، ما عزَّ وما هان، في أن يأتوا بمثل قوله: ﴿فجعلناهم أحاديث﴾ لما حصّلوا، ولو رقوا إلى سماء البلاغة بسلّم وكان فيهم العض[9] والملهم والمكلم، لما وصلوا؛ جلّ كلام الله، وقلّ كلام الكاهن.

* * *

يا أسلاف، ورّثتم الحكمة وسيّرتم الأمثال والفِقَر، وعمرتم من التاريخ صحائف بالمحامد، وشغلتم القرون بالحديث عنكم، وشدتم الباقيات للحضارة، وزيّنتم الحياة بالقوة والبأس الشديد، وسبقتم العالم إلى موارد العزة في الدنيا، ووقفتم في نصف هذه الكرة تحكمون وتتحكّمون، وتصلون شرقها بغربها وتقسمون، فبدتم وما بادت آثاركم ولا أخباركم.

ويا أخلاف، ماذا صنعتم؟ وبماذا اقتنعتم؟ هذه آثار سلفكم، عرف الغريب مواقعها، وجهلتم مواضعها؛ فهل النسب مدخول؟ أو الانتساب غير منخول؟ ويلكم! إن الألوان، على الدلالة أعوان، سوّد بنو العباس لسؤددهم، وبيَّض العلويون لطهارتهم، وخضَّر العبيديون لدعواهم ودعايتهم، وزرّقتم[10]... لماذا؟...

كاهن الحي

8) المطا: الظهر.
9) العض: العالم الخبير، والعضان زيد بن الكيس ودغفل أعلما العرب بالنسب.
10) لبستم الزرقة، وبدو اليمن يعشقون هذا اللون.

سجع الكهّان*

— 6 —

أُقسم بالذيب الأطلس، والثعبان الأملس، إن المتجر بالأحرار لمُفلس، وإن العاقل بين الأشرار لمُبلس، وإن العربيّ لزنيم إذا بقي في المجلس[1]، ذهب العز الأقعس، وحلّ الجد الأتعس، ونزل من غِيَر الزمان ما أنسى النسيب في الكثيب الأوعس، والتشبيب بالثغر الألعس.

أيها الهائمون في البيد، النائمون على الذل المبيد، الراضون بعيشة العبيد، على البرير والهبيد[2] لن تزالوا كذلك أبد الأبيد، لا عمر لُبَدِ أو لبيد، حتى تعملوا بقول الشاعر: ومَن ومَن، فهو دين كل زمن[3].

كتب الله أن الصداقة مطويّة على العداوة، وأن الحضارة متصلة الطرفين بالبداوة، وأن في الإنسان جبلة من الحيوان، ما زال في النزوع إلى أصلها غير وان، وأن الضعيف طعام للقوي، وأن الرشيد في أبناء آدم مجرور بالغوي، وأن من لم تبسُط يدك لتقتله بسط يده لقَتْلك، وأن من قصرت في ختله جدّ في ختلك.

* * *

ثارٌ للغرب في فلسطين، لم تنبُت عليه شجرةٌ من يقطين، وشياطين تنزو للإغراء إثر شياطين؛ ويوم في أعناقكم بيوم حطّين، تنسيه غريزة الماء والطين، فتذكره نُعرة الجنس

---

* نشرت في العدد 75 من جريدة «البصائر»، 11 أفريل سنة 1949.

1) مجلس الأمم المتحدة على الباطل.

2) البرير: ثمر الأراك، والهبيد: حب الحنظل.

3) إشارة إلى قول زهير في معلّقته:
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه... الأبيات.

والدين، أنَسيتم يوم تنادوا مُصْبِحين، وتعادوا مسلّحين، وتداعوا مصطلحين، وتعاووا من كل حدب، وتهاووا من كل صبب، ذؤبان تقدمها رهبان، وغربان تظلّلها صلبان، بنفوس من الحقد ثائرة، وقلوب بالبغضاء فائرة، تنازعكم إرث الإسلام، ومعراج نبي السلام؟ أنسيتم ما فعله صلاح الدين بالمعتدين؟ إن نسيتم أمسكم فهم له ذاكرون، وإن كفرتم بيومكم فهم له شاكرون. أين كنتم يوم أعطوا العهود لليهود؟ أم أين كنتم يوم جاءوكم بالفهود في المهود؟ أم أين كنتم يوم آمنوا بإسحاق وكفروا بهود؟ كلّ ذلك وقع وأنتم شهود، ولكنهم كانوا أيقاظًا وأنتم رقود، أمعنوا في الاستعداد وأمعنتم في الرُّقاد، اعتمدوا على العلم و (الريال) واعتمدتم على الجهل والخيال، جاؤوكم بصف واحد كملمومة الصخر، وجئتموهم بصفوف متخاذلة، جاءُوكُم على قلب رجل واحد، وجئتموهم بقلوب متنافرة، قادهم إلى الظفر قائد واحد ورأيٌ جميع، وقادكم إلى العار قوّاد متشاكسون ورأيٌ شتيت، ما أضاع السيادة إلا توزيع القيادة، اجتمعوا وافترقتم، فسَلِموا واحترقتم.

تالله ما ضاعت فلسطين اليوم، ولكنها ضاعت يوم وُعدوا بها، فركنوا إلى العمل، وركنتم إلى الكلام، بل ضاعت قبل ذلك بقرون، منذ نبت قرن صهيون، فتماريتم بالنذر، ولم تأخذُوا الحذر.

لا تقولوا إن شرّ دين، ما جرّ التشريد للمتشرّدين؛ فإن شرًّا منه عقلكم الذي جرّ العار للعرب أجمعين، وكرّ بالخزي على جميع المسلمين.

* * *

جاء النصر من مصر، فلماذا تخلَّفت البصرة عن النصرة؟ قلب وجف بالنجَف، بعد ما رقأ الدمُ وجفّ، وآخر خفق بالمنتفق، بعد مغيب الشفق وافتراق الرّفق؛ ما أغنى الخفوق من قلب الشّقوق، وما أجدى الوجيف بعد ما سدَّ الباب وأجيف[4].

أيها العرب: بعضكم أبرار، وجلكم أشرار، وكلكم أغرار...

كاهن الحي

4) أجيف الباب: أغلق مصراعاه.

سجع الكهّان*

– 7 –

بارقٌ في برقة، شمنا من بعيد برقه، فإذا أصوات رجعُها في الآذان خلاف وفرقة، ووقعُها في النفوس أسى وحُرقة، وإذا فرق من رفاق الجهاد تُعادي فرقة فرقة، وإذا إنتاج ذلك كله وليد في خرقة، وقابلةٌ تجهد في الأهباط وتقول: ارقهْ. وإذا الغرب من ذلك الهيكل الملموم يُزايل شرقَه، وإذا الوتد مفروق، والقاعدة فروق، والحمى بالشعواء الصامتة مطروق، وصُواع بني الأب بأيدي بني الأم مسروق، وإذا القيصرية – المحروبة في كل وطن – تبدو في هذا الوطن المحروب قرونها، ويأبى إلا التقحم في المهاوي حرونها، وإذا صفحة من تاريخ ملوك الطوائف تُعاد، فتلقى ممن يعيشون على التفريق الإسعاد.

أي جيران الشمال، ومعاقد الآمال، أعيذكم بالعروبة وهي الأمّ، وبالوطن وهو الهمّ والأمّ، وبعمر، حادي الزّمر، عمر الشهيد، وما عهده بالعهيد، وبما أرقتم من دموع ودماء، لم يبق منها إلا الذماء، وبالإسلام – وهو الذِّمام – أن تختلفوا في الحق، فترضوا بالشقّ، أو توسعوا الشقّ، فتقعوا جميعًا في الرقّ؛ وأعيذكم أن تغتروا بالوعود الخالبة من الدول الغالبة، فإنما ذلك إبساس من الأيدي الحالبة، وأعيذكم أن تُنْكروا التقسيم وأنتم منقسمون، وأعيذكم أن يكون غرب النيل كشرق الأردن... وأعيذكم أن ترضوا بالخفض، ولا تقبلوا (الضم)، إن الضم علامة (البناء)، وآية (استقرار) البناء، فاجهدوا في إثبات الضم وخلاكم ذم.

إن هؤلاء الأقوياء كلما عجزوا عن قيادة الجمع قادوهم بواحد... فاحذروا ذلك الواحد، وإن الجانب الغربي لكم عدوٌّ، فاتّخذوه عدوًّا، واحذروه رواحًا وغُدوًّا، واحذروه قلقًا وهدوًّا.

* نشرت في العدد 88 من جريدة «البصائر»، 25 جويلية سنة 1949.

ويحَ فزّان، هل أتاها نبا وزّان؟ شال بها الميزان، فهي رهينة أحزان.

وويح برقة البوارق، من الدخيل الطارق، ومن الأصيل المارق، ومن اللص السارق.

عتبات الفتح بنيت على الكسر، وآسرة الصيد مُنيت بالأسر، وصائدة المناسر[1] صادها النسر، وجسر العروبة إلى المغارب، عصفت به الأعاصير... فتداعى الجسر، وباذلو الماعون في ساعة العُسْر، جُزُوا في العاقبة بالخسر، ثم كانت خاتمةُ الكيد، إرجاعهم إلى القيد.

كاهن الحي

قائمة

المصادر والمراجع

المصادر:

- الإبراهيمي أحمد طالب: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3. ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.

المراجع العربية:

1-إبراهيم عبد الله: الثقافة العربية الحديثة و المرجعيات المستعارة، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1999.

2-الباردي محمد : إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000.

3-بدوي محمود طه: النظرية السياسية، د.ط، المكتب المصري الحديث، القاهرة، د.ت.

4-بغورة الزواوي: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، 2000.

5-بنسالم حميش: التشكلات الأيديولوجية في الإسلام، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت، 1993.

6-بوقرة نعمان: الخطاب التداولي، د.ط، مركز بحوث كلية الآداب، الرياض، 2009.

7-الجاحظ أبو عمر عثمان بن بحر: البيان و التبيين، ت: عبد السلام محمد هارون، ج1، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998.

8-الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ت: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية للطباعة و النشر، بيروت، 2002.

9-اجعيط نور الدين: تداوليات الخطاب السياسي، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2012.

10- حرب علي: أوهام النخبة أو نقد المثقف، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2004.

11- حسان تمام: اللغة العربية معناها و مبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2001.

12- حساني أحمد: مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ت.

13- حنفي حسن: الهوية، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2012.

14- داود محمد محمد: العربية و علم اللغة الحديث، دار غريب للطباعة، القاهرة، 2001.
15- الدريدي سامية: الحجاج في الشعر العربي القديم، ط1،جدار الكتاب العالمي، الأردن، 2008.
16- دلاش الجيلالي: مدخل إلى اللسانيات التداولية، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.
17- الراجحي شرف الدين علي: في علم اللغة عند العرب ورأى علم اللغة الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002.
18- الرافعي عبد الرحمان: مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1984.
19- الرويلي ميجان و البازغي سعد: دليل الناقد الأدبي، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000.
20- أبو زيد نواري سعود: تداولية الخطاب الأدبي، ط1، بيت الحكمة، الجزائر، 2009.
21- السعران محمود: علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، دار الفكر لعربي، القاهرة، د.ت.
22- سفر محمود محمد: الإعلام موقف، ط1، تهامة، المملكة العربية السعودية، 1982.
23- السكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي: مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
24- سليمان عصام: مدخل إلى علم السياسة، ط2، دار النضال، بيروت، 1989.
25- السيوطي جلال الدين: شرح شواهد المغني، لجنة التراث العربي، دمشق، 1966.
26- الشرفي سلوى: تحليل الخطاب، مركز النشر الجامعي، د ط، تونس، 2010.
27- الشهري عبد الهادي بن ظافر: استراتيجيات الخطاب، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004.
28- صحراوي مسعود: التداولية عند العلماء العرب، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2005.
29- الصراف علي محمود حجي: في البراغماتية-الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، 2010.

30- الصفدي صلاح الدين: الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى، ج3، ط1، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 2000.

31- طحان ريمون: الألسنية العربية، ط1، دار الكتاب، لبنان، 1972.

32- طه عبد الرحمان: أصول الحوار و تجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000.

33- عبد المطلب محمد: البلاغة العربية قراءة أخرى، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1997.

34- العروي عبد الله: مفهوم الأيديولوجيا، ط5، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 1993.

35- عكاشة محمود: لغة الخطاب السياسي، ط1، دار النشر للجامعات، مصر، 2005.

36- علي جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1. ط2، جامعة بغداد، 1971.

37- العيد يمنى: في القول الشعري، ط1، دار توبقال، المغرب، 1987.

38- الغذامي عبد الله: الخطيئة و التكفير (من البنيوية إلى التشريحية)، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998.

39- فضل صلاح: بلاغة الخطاب و علم النص، د.ط، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1992.

40- ابن قتيبة عبد الله بن مسلم: عيون الأخبار، م3، دار الكتاب العربي، لبنان د.ت

41- قميحة مفيد: شرح المعلقات السبع، دار و مكتبة الهلال، بيروت، 2000.

42- لحميداني حميد: القراءة و توليد الدلالة (تغيير عادتنا في قراءة النص الأدبي)، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2003.

43- المتوكل أحمد: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، د.ط، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985.

44- مصدق حسن: النظرية النقدية التواصلية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005.

45- المعايطة ريم فرحان: براغماتية اللغة و دورها في تشكيل بنية الكلمة، د.ط، دار اليازوري، الأردن، 2008.

46- مقبول إدريس: الأسس الابستيمولوجية و التداولية، ط1، جدار للكتاب العالمي، عمان، 2006.

47- منقور عبد الجليل: علم الدلالة "أصوله و مباحثه في التراث العربي " اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.

48- الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد: مجمع الأمثال، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج2، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1955.

49- نحلة محمود أحمد: التعريف و التنكير بين الدلالة و الشكل، د.ط، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1999.

50- نحلة محمود أحمد: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2006.

51- ياقوت محمود سليمان: منهج البحث اللغوي، ط1، دار المعرفة الجامعية، الكويت، 2000.

52- يقطين سعيد: تحليل الخطاب الروائي، ط4، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 2005.

المراجع المترجمة:

53- ديان مكدونيل: مقدمة في نظريات الخطاب، تر: عز الدين إسماعيل، ط1، المكتبة الأكاديمية، مصر، 2001.

54- دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر:محمد يحياتن، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008.

55- تزيفتان تودوروف: مفهوم الأدب، تر: عبود كاسوحة، ط1، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 2002.

56- ميشال فوكو: حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، 1987.

57- أوليفي روبول: لغة التربية تحليل الخطاب البيداغوجي، تر: عمر أوكان، د.ط، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002.

58- ميشال فوكو: نظام الخطاب، تر: محمد سبيلا، د.ط، د.ت.

59-ميشال فوكو: إرادة المعرفة، تر: جورج أبي صالح و مطاع صفدي، ط1، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990.

60- جان ماري دانكان: علم السياسة، تر: محمد عرب صاصيلا، د.ط، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع (مجد)، بيروت، 1997.

61- هربرت أ. شيللر: المتلاعبون بالعقول، تر: عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، العدد243، الكويت، مارس1999.

62- آن روبول، جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2003.

63- فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، د.ط، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986.

64- فان دايك: علم النص، تر: سعيد حسن بحيري، ط2، دار القاهرة، القاهرة، 2005.

65- فان دايك: النص و السياق، تر: عبد القادر قنيني، ط1، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1999.

66- ج.ب براون و ج.يول: تحليل الخطاب، تر: محمد الزليطني، و منير التريكي، د.ط، جامعة الملك سعود، الرياض، 1997.

67- فولفجانج هاينه مان و ديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم لغة النص، تر: سعيد حسن بحيري، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2004.

68- جيفري ليتش و توماس جيني: اللغة و المعنى و السياق، البراغماتية المعنى في السياق، الموسوعة اللغوية، تر:محي الدين حميدي و عبد الله الحميدان، د.ط، جامعة الملك سعود، 2000.

69- جاك موشلر، آن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: عز الدين المجدوب و آخرون، ط2، دار سيناترا، تونس، 2010.

المراجع الأجنبية:

70- Franck Salaun : l'autorité du discours, éditions champion, paris, 2010.

71- John Lyons : linguistique générale « introduction a la linguistique », F.Dubois-Charlier et David Robinson, librairie Larousse, Paris,1970.

المعاجم:

1-أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، م1، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 2008.

2-الجرجاني محمد السيد الشريف: معجم التعريفات، تح: محمد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د.ت.

3-الزمخشري جار الله: أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، ط1، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998

4-ابن فارس أحمد: مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، ج2،ط2، دار الفكر، القاهرة، 1979.

5- مطلوب أحمد: معجم المصطلحات البلاغية و تطورها، ج3، المجمع العلمي العراقي، 1987.

6-ابن منظور أبو الفضل جمال الدين: لسان العرب، ط3، م11، دار صادر، بيروت، 1994.

7-ابن منظور الإفريقي أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، م1 دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

8-مجمع اللغة العربية: المعجم الكبير، ط1، ج6، القاهرة، 2004.

9-وهبه مجدي، المهندس كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984.

المقالات والمجلات:

1-بلبع عيد: التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، مجلة فصول، العدد66، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2005.

2-راضي سمير بن جميل: الإعلام الإسلامي رسالة و هدف، رابطة العالم الإسلامي، العدد 172، السنة الخامسة عشرة، السعودية. د.ت.

3-عبد الحليم عيسى: المرجعية اللغوية في النظرية التداولية، مركز البصيرة للبحوث و الاستشارات و الخدمات التعليمية، العدد1، الجزائر، 2008.

4-الكردي محمد علي: الخطاب و السلطة عند ميشال فوكو، مجلة فصول، مج11، العدد1، 1992.

5-لهويمل باديس: التداولية و البلاغة العربية، مجلة المخبر، العدد7، جامعة محمد خيضر، بسكرة-الجزائر، 2001.

6-مرتاض عبد المالك: تداولية اللغة بين الدلالة و السياق، مجلة اللسانيات، مركز البحوث العلمية و التقنية لترقية اللغة العربية، العدد 10، الجزائر، 2005.

7-مفتاح محمد: بعض خصائص الخطاب، علامات، ج35، مج9، 2000.

المذكرات:

1- حملاوي كمال: خطب الحجاج بن يوسف الثقفي-دراسة لسانية نصية- مذكرة ماجستير، المركز الجامعي سوق أهراس، 2007-2008.

2- مناصرية ميمونة: هوية المجتمع المحلي في مواجهة العولمة، أطروحة دكتوراه، جامعة بسكرة، الجزائر، 2011.

3- منصوري علي: البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، مذكرة دكتوراه دولة، جامعة باتنة، الجزائر، 2007.

مواقع الانترنت:

- www.linternaute.com
- www.toupie.org
- www.larousse.fr
- .www.arabization.org.ma
- .www.islamiyyat.com
- www.aljazeera.net
- .www.arab-ency.com
- .www.islamstory.com

فهرس

إهداء

مقدمة.....**أ–د**

الفصل الأول: ماهية الخطاب السياسي

1–مفهوم الخطاب و إشكالية المصطلح:.....02

1.1–الخطاب و السلطة.....07

2.1–الخطاب و الأيديولوجيا.....12

3.1–الخطاب و الإعلام.....16

2–تعريف الخطاب السياسي.....18

3–سمات الخطاب السياسي.....21

4–أهداف الخطاب السياسي.....24

5–وظائف الخطاب السياسي.....24

6–أشكال الخطاب السياسي.....26

7–الخطاب السياسي ومسألة الهوية.....28

الفصل الثاني: ماهية التداولية

1– مفهوم التداولية.....32

2– مجالات البحث التداولي.....37

أ–الإشاريات.....38

ب– الافتراض المسبق.....42

ج– الاستلزام الحواري.....43

د– الأفعال الكلامية.....44

3–مهام التداولية في البحث اللغوي.....47

4– علاقتها بالعلوم الأخرى.....49

1.4– علاقة التداولية باللسانيات.....49

2.4– علاقة التداولية بالبلاغة.....50

3.4– علاقة التداولية بالنحو.....50

5- مفهوم السياق.....51
6- أنواع السياق.....55
1.6- السياق اللغوي.....55
2.6- السياق غير اللغوي.....57

الفصل الثالث: مقالات فصل الدين عن الحكومة

المبحث الأول: الإشاريات و الأفعال الكلامية في مقالات فصل الدين عن الحكومة

أولا- الإشاريات.....62-81
ثانيا- الأفعال الكلامية.....82-103

المبحث الثاني: المعاني الحرفية و المعاني السياقية في مقالات فصل الدين عن الحكومة

1-المقالة الأولى.....105
2-المقالة الثانية.....107
3-المقالة الثالثة.....109
4-المقالة الرابعة.....110
5-المقالة الخامسة.....112

الفصل الرابع: مقالات سجع الكهان

المبحث الأول: الإشاريات و الأفعال الكلامية في مقالات سجع الكهان

أولا- الإشاريات.....118-138
ثانيا- الأفعال الكلامية.....139-153

المبحث الثاني: المعاني الحرفية و المعاني السياقية في مقالات سجع الكهان

1-المقالة الأولى.....155
2-المقالة الثانية.....157
3-المقالة الثالثة.....159
4-المقالة الرابعة.....160
5-المقالة الخامسة.....162
6-المقالة السادسة.....162

7-المقالة السابعة.....164
الخاتمة.....169
الملحق.....172
قائمة المصادر و المراجع.....209
الفهرس

ملخّص:

تعدّ مقالات الإبراهيمي التي نشرت في (عيون البصائر) صورا من إبداعه الأدبي، و سمو بيانه العربي، حيث جمع فيها بين العناية بالصياغة و بين التعبير عن العاطفة و الشعور المتقد، كما يجمع بين الفكرة الإصلاحية في مضمونه و بين الجمال الأدبي في تعبيره، و تظهر الثقافة العربية بمختلف فروعها و تنوع منابعها في لغته و أسلوبه، و هو من الكتّاب الذين يحتفلون بالقالب اللغوي و يصبّون فيه خواطرهم و أفكارهم، فاللّغة عنده ليست فقط وسيلة و لكنّها هدف أيضا.

لقد سعى محمد البشير الإبراهيمي إلى جعل اللغة أداة فاعلة يهدف من خلالها إلى إبلاغ رسالة على نحو ما إلى المتلقي بحيث يمكّنه من إدراك تلك الرسالة كما يقصدها و يريدها في مناسبة معينة، الأمر الذي فرض علينا مقاربة تداولية، تستحضر البعد الاستعمالي في اللغة، وتفاعل الأطراف التواصلية، ومقاصدهم الإنجازية، وسياق التلفظ، متخذين في ذلك مقالات "فصل الدين عن الحكومة" و "سجع الكهّان" أنموذجا للدراسة.

Abstract

The Ibrahimi's articles, published in (Eyun Albsayr), are pictures of his literary creativity and his Arabic expression, where he combines between the care of the formulation and the expression of passion and feeling, and combines the reformist idea in its content and literary beauty in its expression. The Arabic culture shows its various branches and the diversity of its sources in its language and style. It is one of the writers who celebrate the linguistic mold and put their thoughts and ideas into it. Language has not only a appliance but also a target.

Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi sought to make the language an effective tool through which to communicate a message in some way to the recipient so that he can perceive that message as he intended and wants it on a specific occasion. This has forced us to use a pragmatics approach that evokes the practical dimension of language and the interaction of the parties Communication, and achievement objects, and the context of pronunciation, taking the articles in " Fsal aldiyn ani alhukumat " and " sjae alkhhan" model of the study.